

كتب فقاهي عسكري

الغروب والظهور

ترجمة
أحمد عبد الكريم

اصدار
مركز الدراسات والبحوث العسكرية
دمشق - ١٩٨١



كتب قفاني حسدي

الحروب والجحافل

ترجمة :
أحمد عبد الكريم

اصدار

مركز الدراسات والبحاث العسكرية

دمشق - ١٩٨١

مقدمة العرب

منذ ان فرغت من قراءة هذا الكتاب القيم ، أصبحت على قناعة تامة بأنه « فريد من نوعه » دقيق في تحاليله وصياغته ، يختصر الكثير من المعارف والمعلومات والاحصائيات والمعطيات التي يفترض بالمتقن العلم بها واستيعابها . . . معتمدا الاسلوب العلمي الموضوعي « الجاف » في عرض النتائج التي امكن الوصول اليها خلال سنوات طويلة من الدراسة والبحث ، مسجلا بالتصريح او التاميع جميع المصادر والمراجع التاريخية والعلمية ومستشهدا ببعض اقوال كبار العلماء المختصين .

ومن هنا أصبحت تسيطر عليّ رغبة . . . لم استطع مقاومتها تدفعني لتكريس بعض وقتي من اجل نقل هذا الكتاب الفريد من نوعه الى العربية ، لاعتقادي ان المكتبة والمثقف العربي هما بأمر الحاجة اليه . ولانه يلخص محاولة جديدة جادة وعلمية ، لوضع ظاهرة « الحرب » التي عرفتها البشرية منذ نشوء « الانسان » ، في اقدم العصور حتى يومنا هذا ، في اطارها الصحيح بين جملة النشاطات الانسانية . كيف لا وهي من اخطر واهم هذه الظواهر واعظمها تأثيرا على تطور الحضارات البشرية وحياة الدول والمجتمعات والافراد .

لقد كتب الكثير عن « الحرب » ووضع المختصون العديد من الكتب والنظريات عن تاريخ الحروب والستراتيجية والتكتيك ، والتسليح والتعبئة والتجنيد ، ولكن هذه المؤلفات لم تدع مرة انها « تحاول » اقامة « علم » جديد وانما تهدف الى دراسة تجارب الحروب القديمة والحديثة واستخلاص الدروس منها وصياغتها على شكل نظريات في الاستراتيجية ، والعمليات والتكتيك ، للاستفادة منها في الحروب القائمة والمقبلة ، واخذ اعظم مردود

ممكن من الذكاء والقوة الجسمانية الانسانية ومن المميزات الفنية للأسلحة والعتاد والوسائط المادية المختلفة ، بأقل ما يمكن من الخسارة ، بالارواح والثروات والوقت .

اما هذا الكتاب الذي نحن بصدد تعريبه فهو : محاولة موضوعية علمية بحثة لوضع أسس ثابتة لـ « علم الحرب » بنفس الأسلوب الذي وضعت فيه بقية العلوم الانسانية .. كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والعلوم البيولوجية ، وغيرها ..

وبالرغم من انني لا ادعي القدرة بالحكم على مدى صحة الأسلوب الذي اتبعه مركز البحوث الفرنسي الذي اصدر هذا الكتاب ، وبالرغم مما لاحظته فيه من تحيز ظاهر ، للحضارة الغربية ، واغفال قد يكون مقصودا احيانا ، ومصادفة احيانا اخرى ، الا انني اعتقد ان هذا الكتاب يستحق المطالعة الدقيقة والتوقف الطويل عند بعض النظريات والنتائج التي تضمنها خاصة فيما يتعلق بالاحداث والنزاعات التي تسود بعض مناطق العالم في الوقت الحاضر ، والمخاطر التي تنتظر الانسانية في الفترة المتبقية من هذا القرن الذي نكاد نصل الى نهايته .

لقد حاول عدد من كبار الباحثين المعروفين في الاوساط العلمية والفكرية في فرنسا ، في هذا الكتاب دراسة وابراز التفاعلات بين الحضارات والحروب ، مستفيدين من الاساليب والمنجزات التي سارت عليها وحققتها العلوم الاخرى ، والمحاولات السابقة التي تمت في مجال « علم الحرب » ، واستطاعوا ان يطوروا الامور الاساسية التالية :

— الفترة الفامضة التي تبدأ من بدء الخليقة في عصور ما قبل التاريخ حتى عام ١٧٤٠ بعد الميلاد ، وهي اخطر الفترات التي اختفت فيها الكثير من الحضارات ولم تخلف وراءها ما يكفي لمعرفة هويتها واعطاء فكرة ما عن مساهماتها في صنع الاسس الاولى للحضارات العالمية التالية .

كما طور الباحثون الفترة ما بين ١٧٤٠ و ١٩٧٩ المعروفة جيدا ، والتي

لم تكن معروضة الا بخطواتها الكبرى ، وذلك بغرض استمرارية التطور التاريخي .

— وحاول الباحثون دراسة الوضع النزاعي العالمي في مطلع عام ١٩٨٠ والمستقبل المتوقع للفترة الواقعة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، هذه الفترة التي تشغل اذهان المسؤولين والمفكرين في شتى انحاء العالم نظرا لما يحيط بها من اخطار وما تفتحت فيها من آفاق هائلة تحتشد فيها الآمال وتزحمها الاخطار والمخاوف ، بسبب ما توصل اليه الانسان من منجزات عظيمة جعلته قادرا على قهر الطبيعة ، بل ومكنته من امتلاك القدرة على اباداة الجنس البشري اذا اراد .

وتستخلص جماعة الباحثين من هذه الدراسة :

ان جميع الحضارات البائدة دمرتها الحروب ، وكانت قبل ذلك تتعابش معها بود واستمرار .

وان الحرب هي بنفس الوقت « ابنة » قاتلة ومرسعة للحضارة لا تعق ..
وان الحضارات التي لا تدافع عن نفسها في خضم هذا الصراع الدائم لا يمكن أن تحيا ، بل انها لا تستحق الحياة .

لهذا اكرر القول بأن مكتبتنا العربية بحاجة لمثل هذا البحث التركيبي ، الموجز ، والواضح ، الذي يسمح برؤية الميادين المختلفة بنظرة فاحصة واحدة ، ويكتشف العلاقات المتينة القائمة بين هذه الميادين .

هذا بالاضافة الى ان هذه المحاولة قد تدفع بعض المفكرين والباحثين العرب لنقدها واظهار مواقع التحيز والضعف الظاهر بها خاصة فيما يتعلق بدور الحضارة العربية ، ومعاني الصراع العربي - الصهيوني الذي بدأ في مطلع القرن العشرين ولا يزال مصدر عدم الاستقرار والتوتر في ما يسمى بمنطقة الشرق الاوسط . وسيبقى من اخطر النزاعات التي لا تسبب اعظم الآسي للشعب العربي عامة والشعب الفلسطيني خاصة فحسب ، بل وقد يكون الشرارة التي تنطلق منها الحرب العالمية الثالثة (النووية) او ما يسميه

الباحثون في هذا الكتاب « القيامة الجديدة » اذا لم يدرك المجتمع الدولي مسؤولياته القانونية والاخلاقية ، بالنسبة لمشاكل هذه المنطقة الحيوية وبشكل خاص مشكلة الشعب الفلسطيني ، فيبادر جديا لكبح المطامع والنزعات العدوانية والتوسعية الامبريالية - الصهيونية ، ويساهم في وضع حد للمآسي والمذابح التي تعم المنطقة وتعرضها وتعرض العالم اجمع لاعظم الاخطار والمبادرة الفورية لاعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني الذي يعيش منذ ثلاثين عام ونيف في حالة من البؤس الرهيب الذي جعله في وضع لا يفرق فيه بين حياته التعيسة وبين « القيامة النووية » التي سيكون هو واعدائه بعض ضحاياها .

دمشق في ٢٥ تشرين اول ١٩٨٠

احمد عبد الكريم

الحروب والحضارات

تأليف :

**السادة : غاستون بوتول ، رينيه كارير ، جان لويس أنيكان ، من المعهد
الفرنسي لـ « علم الحرب » .**

المقدمة بقلم : السيد جان غيتون من الاكاديمية الفرنسية .

**من منشورات : المؤسسة الفرنسية للدراسات الدفاع الوطني ، ملحق
للعدد الرابع (الفصل الرابع من عام ١٩٧٩) مجلة الاستراتيجية .**

المقدمة

بعد أن انتهيت من قراءة هذا البحث تحدوني رغبة ملحة للقول بكل بساطة أن ما استرعى اهتمامي وشدني اليه هو اتاحته الفرصة لي بتلبية نزعتين مكنونتين في صدري ، يشاركني بهما جميع معاصري في هذه الفترة التي نقرب فيها من الالف الثالثة لعصرنا ، الا وهما : نزعة الفهم ونزعة التكهن .

الفهم : اذا تناولنا هذه الكلمة في الاصل الذي انحدرت منه ، نجد أن كلمة فعل « فهم » تعني محاولة النظر الاشياء في ذهننا كلا واحدا . ذلك أن « الفهم » ، في حضارتنا القائمة ، أصبح أكثر ضرورة وأشد صعوبة من أي وقت مضى ، لأن « الاعلام » غدا ، آنيا ، وكونيا ، ومتبينا ، ومتعددا ، وساحقا ، بل يكاد يكون مهووسا ، فلم يعد هناك مسافة كافية أمام الانسان تسمح له بالتراجع . وفي الوقت نفسه ، تضاءلت اوقات التسلية ، والراحة ، والتفكير . وهكذا أصبح الحس السليم نادرا ما لم تتوفر الوسائل التي تساعد الانسان على التركيب . وها نحن نقرب من الفترة التي سيكون فيها القادة وكبار المسؤولين ، غير قادرين على الرؤية الشاملة للاشياء ، كما كانت الحال في زمن « برج بابل » . وان الاسراف بالتعلم والقدرة ستأتي لتحمل مشكلة المعرفة والسلطة . وفي هذا الوقت سنحتاج الى مؤلفات تركيبية ، قصيرة وواضحة وكاملة ، أكثر من أي وقت مضى ، لكي تساعدنا على تغطية الميادين المختلفة والمتشابهة بأبصارنا الثابتة .

كان ديكارت يقول عندما يحاول قراءة أحد الكتب ، بأنه يبدأ أولا « يتأمل اللوحات ، فالصور ، ويضيف ساخرا ، أما ما بقي من الكتاب فغاياته ملء الورق ... » .

وفي اعتقادي أن الغاية التي توخاها المؤلفون من هذا الكتاب هي إعدادنا لاجتياز « عتبة قريبة مرعبة ليس لها سابقة في تاريخ البشرية » وقد سبق لكتابهم « تحدي الحرب » أن عودنا على هذا النوع من التفكير ، وهذا الكتاب يكمله ويختمه .

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير إلى « أن السلاح النووي قلب مفهوم الحرب نفسها » ، لأن قوة تدميره يمكنها أن تجعل من كوكبنا (الأرض) قمرا ، لأنها قادرة على إزالة الحضارة والفاء الأوهام التي يتخيلها البعض عن « النصر المحتمل » وهم يعدون لمجزرة بشرية متبادلة .

أن « التحدي الذري » المهيمن على الأذهان ، رغم كل المحاولات التي تتواطؤ لتخديرنا وحرف أبصارنا عنه ، يضاف إليه « تحد اقتصادي » أشد خطرا ، وهذا التحدي ناتج عن اختلال التوازن السكاني (الديمغرافي) ويزيد في خطورته أيضا سوء توزيع الثروات في العالم الراهن .

وتقدر الإحصاءات الرصينة أن عدد سكان الكرة الأرضية سيصل إلى (٨) مليارات نسمة في نهاية هذا القرن ، وسيكون $\frac{1}{4}$ من هؤلاء السكان فقط في مناطق العالم الصناعي المتطور . ومن هنا يأتي الخطر من التخريب السلمي البطيء الذي يعتبر أشد خطرا وشراسة من التدمير النووي .

أن « عملية الفهم » (التي يوقظها هذا البحث ويثيرها إلى أعلى الدرجات) اضطرت السيد بوتول ، والجنرال كارير ، وزملائهما ، لمحاولة الوصول إلى ذروة الأشياء ، فقد قارنوا هذه التحديات بنظرة فاحصة للتاريخ البشري منذ الأزل ، ودرسوا الحضارات في علاقاتها مع الحروب التي ساعدت على نشوئها أو دمرتها .

والحقيقة ، أن للحضارة والحرب علاقات أساسية . وأن كل ما سيجري فوق هذا الكوكب (حتى ولو لم يتشابه بالكثافة أو العالمية) يمكن تخيله بدراسة الحضارات والحروب التي ملأت تاريخ « هذا الحيوان المفكر » ، الذي عرف - ويا للأسف - بأنه عدواني يميل للسيطرة . وذلك هو الإنسان .

إننا ندخل عام ١٩٨٠ في فترة حاسمة من التاريخ ، فهل تسمح لنا « عملية الفهم » بأن نمارس « عملية التنبؤ » ؟ وهل يمكن لـ « عملية التنبؤ »

أن تجعلنا قادرين على تحاشي الموت الجماعي ؟ . تلك هي المجازفة التي يطمح لها هذا العمل الفكري الوحيد من نوعه .

ان هذا الكتاب ليس محاولة لما يسمى بـ « التنبؤ » وإنما هو احصاء لاختلاف الاحتمالات المتوقعة في المستقبل القريب . وان تحليل « علم الحرب » ، للنزاعات المحتملة سيلفت نظر جميع القراء . واني ، شخصيا ، لا أرمي لازالة الانفعالات التي يمكن أن تثيرها قراءة كتاب موضوعي جدا ، ورياضي جدا في استقراءاته ، بل اكتفي بالإشارة الى أن : « خلاصة هذه الاستدلالات لا تحمل على اليأس » ، وأن ما يهدف اليه مؤلفو هذا الكتاب هو « جعل فعل الحرية ممكنا » ، تلك الحرية التي أصبحت نادرة عند بعض القادة المسؤولين ، والتي لا يزال بمقدورها انقاذ البشرية .

فالواقع انه « ما من شيء حتمي » . ولكن لكي يكون الانسان حرا ، لا بد له من أن يرى ويدرك ، وهذا هو الهدف من الكتاب ، انه يساعد على « الرؤبة » و « التكهن » لكي يمكن « معالجة الامور » . ولا يسعني الا أن أتمنى له « بل وان اتبأ له » الانتشار الواسع .

اني منذ زمن بعيد احمل للسيد غاستون بوتول ، ولاعماله الفكرية الخلاقة أسمى انواع التقدير . ولقد عرفت الجنرال ريينه كارير طوال خمس سنوات من الاسر ، فكان يجمع بين رجل الحرب ورجل الفكر ، فعقدت بيننا صداقة لا تنفصم عراها . واذكر انني رويت مرة للجنرال كارير هذه الحكمة المعروفة عن الفيلسوف امرسون : « لكي تفهم أي شيء فهما جيدا ، لا بد لك من أن تهبط من ذروة عليائه » . ويقول الفيلسوف لينتز بهذا المعنى « ابحث عن وجهة النظر الاكثر تفهما » .

وأخيرا فان هذا الكتاب المكثف يشبه « الرمانة » بل هو « كالبرعم » ، يمكن أن يساعدنا على ان نفكر ونتصرف بشكل أحسن في فترة ليس لها مثيل في تاريخ بني الانسان .

جان غيتون

عضو الاكاديمية الفرنسية

تقديم الكتاب

ينضوي هذا الكتاب ، الذي وضعته جماعة من المفكرين والباحثين ، في إطار أبحاث « المعهد الفرنسي لعلم الحرب » الذي أسس في عام ١٩٤٥ ، من أجل الدراسة العلمية للحروب والسلام والنزاعات والأعمال العدوانية الجماعية ، والعنف السياسي (الذي يعتبر جرثومة الحروب) . ومنذ أحداثه ، قام المعهد بالبحث الأساسي والبحوث التطبيقية معا .

وفي نهاية عام ١٩٧٠ ، وبفرض تطبيق وتجربة « أفكار علم الحرب » بأشر المعهد بإجراء ثلاثة بحوث مترافقة :

الاول : دراسة العنف السياسي المعاصر يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، استنادا لاسلوب تجريبي منذ خريف عام ١٩٦٧ . ويتابع المعهد هذه الدراسة كل سنة ، وينشر نتائجها دوريا . (في مجلة علم الحرب التي يصدرها المعهد منذ تموز ١٩٧١) .

الثاني : دراسة الحروب والثورات التي وقعت خلال قرنين من الزمان . وقد اقتصرت هذه الدراسة على الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ وعام ١٩٧٩ ، وأدت الى وضع كتاب بعنوان « تحدي الحرب » الذي برهن على « أن الحروب تعبر عن المجتمعات البشرية وتحولها » .

الثالث : هدفه الدراسة بطرق مختلفة ولمدد اطول بكثير (ابتداء من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر النووي - الفضائي) وللتفاعلات بين الحروب والحضارات .

وقد انتهى هذا البحث (الثالث) في بداية عام ١٩٨٠ ، ونتج عنه هذا

الكتيب الذي نحن بصدده « الحروب والحضارات منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر النووي الفضائي » ، واصبح على هذا الاساس « مساهمة من علم الحرب » في مشكلة « الحرب والسلام » .

واننا (اي المؤلفين) لنخص بشكرنا العقيد ا.ج. بير فالات ماريو ، لما قدمه لنا من مساعدات في هذا المجلى .

ونحن نهدي هذا الكتاب للسيدة « هيلين فوب » التي يدين لها « معهد علم الحرب » بالكثير .

باريس في ١ آذار ١٩٨٠

مختل

عوامل الحرب وعوامل السلام

يؤكد لنا التاريخ ، ان كل دولة او عدد من الدول ، وكل حضارة او عدد من الحضارات ، تنتقل فجأة ، في فترة او فترات من تاريخها ، من عالم السلام الى عالم الحرب ، وهكذا تصبح الحرب امرا واقعا لا مفر منه .

والسلم ، الداخلي والدولي : « الهدوء في اطار النظام » ، هو الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى نتيجة القتل الجماعي ضئيلة الى ادنى الحدود .

اما الحرب ، الداخلية او الخارجية : فهي العنف الهائج ، والمنظم الذي تسبغ عليه صفة القداسة ، وهي المجابهة الدموية بين مجموعات داخلية او دولية لاغراض سياسية ، وهي ايضا الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى بالقتل الجماعي مرتفعة جدا من الناحية العددية .

وتعتبر الثورات شكل من اشكال الحرب ، بل هي ايضا شكل من اشكال الحروب الاهلية .

والحرب والسلم ليستا حالتان متضادتان اسميا فحسب ، ولكنهما عالمان حقيقيان متناقضان من جميع الوجوه (١) .

والسلم ، من الناحية المبدئية والاهداف على الاقل ، هو :

١ - نظام من القيم ذو وجهة عالمية .

(١) واذا ما وجدت اشكال وسط ، ليست بالسلم تماما ، ولا هي بالحرب ، « كالحرب الباردة » او « السلم الحار » او حالة « اللاسلم واللاحرب » ، فلا يعني أبدا وجود تشابه بين الحرب والسلم .

- ٢ - ونزعة نحو التنوع والوحدة ورفض لمذهب المانوية (اي الصراع الحتمي الابددي بين الخير والشر) .
- ٣ - العودة للاعتراف بـ « الغير » رغم اختلافه .
- ٤ - قاعدة اخلاقية مفادها « انك لن تقتل ابدا » ، واحترام وحماية للحياة الانسانية ، وبشكل خاص حياة الطفل والمرأة والشيخ .
- ٥ - ابقاء « القوة والعنف » بين ايدي الدول وتحت اقصى انواع الرقابة الممكنة .
- ٦ - تأكيد للحق ، الخاص والعام ، والداخلي والدولي ، وصوغه بشكل دقيق .
- ٧ - توازن بين التوترات الداخلية والخارجية .
- ٨ - العمل الدؤوب البطيء والدائم لخلق وتوفير وتراكم الثروات بمختلف انواعها : البشرية والاقتصادية والثقافية .
- ٩ - البحث عن الامن عن طريق احتواء جميع المخاطر وتقليصها الى ادنى الحدود .
- ١٠ - ايجاد الوسائل لتصريف النشاطات البشرية في الفنون والالعب .
- ١١ - اعطاء الاسبقية (الافضلية) للمعقول على اللامعقول والنسبي على المطلق ، في اطار روح من الود والوفاق والمنافسة بين المجازفات ، والكشف عن اسرار العنف لتحاشيه .
- ١٢ - الضبط والسيطرة على الازمات عن طريق التشاور والمفاوضات .
- ١٣ - الغاية لا تبرر الوسطة ، بل تخضع للقيم الاخلاقية العليا .
- ١٤ - المحافظة على التوازن والنظام .
- ١٥ - الحياة الهادئة ، تتخللها احيانا بعض المحن والشقاء .
- ١٦ - واخيرا ، ان السلم بالنسبة لكل شخص ، هو التقابل الطبيعي ، في نهاية الطريق ، مع الموت ، وقد يكون هذا اللقاء طارئا في بعض الاحيان .

والسلم هو الخلق المستمر والعمل العظيم للعقل والقلب معا .

واذا ما أخذنا هذه الميادين المختلفة الواحد تلو الآخر ، لوجدنا ان الحرب ، على نقيضها ، نظرا لطبيعتها ووجهاتها ، ونزعاتها ، فهي بالتالي :

- ١ - نظام آخر يختلف بقيمه النسبية .
- ٢ - هيمنة وتأکید لمبدأ المانوية (الصراع الدائم بين الظلام والنور وبين الخير والشر) .
- ٣ - عدم الاعتراف بالغير ، بل وانكار وجوده .
- ٤ - قاعدة اخلاقية قوامها « ستقتل » من أجل خلاص وانتصار قضية او مدينة او دولة .
- ٥ - اندلاع العنف ، حق وامكانية تخول كل طرف بعرض قوته وقتل عدوه ، واذا لزم الامر ، عدم احترام او توفير ارواح المدنيين والابرياء .
- ٦ - وجوب المخاطرة بحياة الانسان وحياة اتباعه .
- ٧ - غياب (او شغور) الحق ، باستثناء بعض القواعد - حقوق الناس ، حق المجتمع ، حق الحرب ، الاتفاقيات الدولية - التي تحترم الى حد ما .
- ٨ - عدم توازن التوترات الداخلية والخارجية والدولية .
- ٩ - سرعة ومدى تدمير الثروات المتنوعة - السكانية والاقتصادية والثقافية - وخاصة منها ما يحافظ عليه بحرص في فترات السلم ، والقائها دون تردد في اتون المعارك .
- ١٠ - قبول المخاطر الحيوية .
- ١١ - حشد وتكريس جميع النشاطات والجهودات البشرية في المجابهات الدموية .
- ١٢ - افضلية اللامعقول على المعقول ، والمطلق على النسبي ، في اطار عقلي شمولي .

١٣- اطلاق المآزق على غاربها ، وتبني مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، واضفاء صفة القداسة على العنف .

١٤- عدم التوازن والفوضى .

١٥- اشتداد الازمات الى اقصى درجات العنف .

١٦- الدم والعرق والدموع .

١٧- واخيرا فان الحرب بالنسبة لعدد كبير جدا من الرجال والنساء هي اللقاء الحتمي مع الموت الزؤام في الصدفه او المعارك .

١٨- وهي انقطاع احمق يبرهن على فشل العقل والقلب .

وهكذا تبدأ الحرب كحقيقة متعددة الاشكال ومتغيرة ، ثقيلة بمعناها ومخاطرها ، بل هي حدث هائل بأبعاده وآثاره وأساليب العنف التي يقتل بها البشر .

والحرب الاهلية والثورة هي اكثر اشكال الحروب وحشية . ومن المصلحة احترام هذه الحقيقة المزدوجة عند الكلام عن الحرب .

وان استعمال تعابير مثيرة مثل « حرب الخراف » او « حرب الحيتان » او « حرب الازرار » او حتى « حرب الاعصاب » ، ليس سوى مبالغاة تهويلية ، بالنسبة للمفهوم السليم للوقائع المتنازع عليها ، بل هو تضخيم خطر يشبه التضخم النقدي ... ومن هذه الناحية ، يبدو اصطلاح « الحرب الباردة » اكثر بؤسا من اصطلاح « السلم الحار » لان الحرب لم تكن أبدا باردة(١) .

وحتى عبارة « الحرب الاقتصادية » ، التي استخدمت منذ زمن بعيد ، فهي قابلة للنقاش ، لان الامر لا يصل في هذه الحالة الى حدود « الحرب » ،

(١) ومن الافضل عدم استعمال بعض الكلمات الا بكثير من التحفظ : مثل كلمة « حرب » . كما ذكر السيد اندريه فونتين في مقال بعنوان « غيوم القيامة » في صحيفة لوموند الفرنسية بتاريخ ١٨/١/١٩٨٠ .

بل هو صدام بين الاستراتيجيات الاقتصادية التي أصبحت في وقتنا الحاضر أكثر حسما بسبب الخطر النووي .

والخلاصة ان الحرب شيء خطير جدا وظاهرة لا يمكن الرجوع عنها مباشرة - بعد انفجارها - ، وهي عالم حقيقي قائم بذاته .

وهكذا نرى ان هناك عالين متناقضين تماما : هما الحرب والسلم . صحيح ان السلم لا يمكن الا ان تتخلله فترات من الظلام والفساد ، مما يفسح المجال للاتجاه الى الحرب ، وهو ليس الخير المطلق لان هناك اشياء اخرى خيرة مثل « بقاء المدنية » مثلا وهذا قد يتطلب التضحية بالسلم من اجله . والحرب نفسها لا تخلو من الاشعاع والفضائل .

والحرب والسلم عالمان متناقضان ولكنهما يتعايشان في كل الاوقات وفي كل وجدان ، كما كان الامر فوق سطح الكرة الارضية وعلى مدى التاريخ .

وكل فرد منا ، وكل اسرة انسانية ، وكل دولة من المجتمع العالمي ، وكل حضارة ، تساهم - بقليل او كثير - في هذين العالمين : وعندما تكون غارقة في احدهما فانها في الواقع تتابع العيش في الآخر ، بالذاكرة والخيال .

افلم تعيش الاجيال التي شاهدت حرب ١٩١٤ ، هكذا في الفترة الواقعة بين ١٩١٨ و ١٩٣٩ ، في عالم سلمي مضطرب وقلق ، تحمل في نفسها ذكرى ضحايا الحرب العالمية الاولى ، وبصيرة الكشف عن المجازر المحتملة لحرب عالمية ثانية ؟

اولا يعيش الرجال والنساء في عام ١٩٨٠ في ظل سلام مضطرب ، وتتعلق ابصارهم في خوف من شبح حرب عالمية ثالثة يتراءى لهم في الافق ؟

فما هي اذن صدمة الحرب ؟

وما هو اثر الحرب الحاسم ؟

نحن نعرف بالتجربة ، ان الحرب تطبع بعمق جسم وفكر وروح جميع اولئك الذين عانوها كما تطبع جميع العائلات التي ينتمون اليها . وقد راينا

بالتجربة والتاريخ أن الدول والامبراطوريات تكبر أو تنهار في المعارك . وبرهن
لنا التاريخ أن الحروب تعطي صورة صادقة للمجتمعات وتغير هذه المجتمعات .
أما إذا انتقلنا من الدول والمجتمعات إلى مستوى الحضارات التي يصعب
لمسها ماديا ورسم حدودها جغرافيا ، فإننا نلاحظ أن التفاعل بين الحروب
والحضارات أقل ظهورا وأقل حتمية ، ولكنها مع ذلك موجودة .

* * *

مراحل البحث الاربعة وعرض نتائجها

ما هي الطريقة التي يجب سلوكها لاستخلاص هذه التفاعلات بالكشف عن ميادين الحروب والحضارات ؟

— أولا : يجب اجراء « تحليل » لعنصري المجابهة : الحروب ، والحضارات (الجزء الاول ، الفصل الاول والثاني) .

— ثانيا : ثم « المراقبة » على امتداد التاريخ لكل انواع المجابهات وتفاعلاتها منذ اجداد البشرية الاوائل حتى تاريخ الحروب المقدسة والايديولوجية .

— ثالثا : وبعد ذلك اجراء تحليل اكثر عمقا في خمسة قطاعات عظيمة الدلالة (الاسلحة ، التحصينات ، الملاحة البحرية ، الفضاء ، التنظيم) ، وتنبع تطوراتها المتوازية (الجزء الثالث ، الفصل العاشر والفصل الرابع عشر) .

— الانطلاق من الحاضر بمنظور مستقبلي ، واستخلاص العلاقات بين الحروب والحضارات في العصر النووي - الفضائي ، وتوسيع النقاش على أسس علمية عن الحرب في العالم (الجزء الرابع ، الفصل الخامس عشر والفصل السادس عشر) .

— وضع جدول شامل للتفاعلات بين الحروب والحضارات (الفصل السابع عشر) .

— وكخلاصة : محاولة استشعار المخاطر والفرص المواتية التي قد تتعرض لها الحضارات المعاصرة في مطلع الثمانينات .

لقد أجملنا نتائج بحثنا في كتاب واحد ، وحاولنا في هذا الكتاب أن

نطور ونتعمق بشكل خاص : الفترة التي لا نزال نجهل الكثير عنها ويخيم الغموض على معظم أحداثها ، تلك هي الفترة الواقعة بين ظهور انسان ما قبل التاريخ ومنتصف القرن الثامن عشر (او على وجه التحديد حتى عام ١٧٤٠ م) . وتمتاز هذه الفترة باختفاء الكثير من الحضارات . اما الفترة الثانية المعروفة بشكل احسن ، فهي التي تمتد بين عام ١٧٤٠ م وعام ١٩٧٤ ، وقد كانت موضوعا للدراسة المنشورة في كتاب « تحدي الحرب » ، ولم نستعرضها (في هذا الكتاب الحالي) الا بخطوطها العريضة جدا .

واخيرا الوضع المتفجر في بداية عام ١٩٨٠ ومنظور الفترة الواقعة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، وهي اكثر المراحل اهمية بالنسبة لاهتماماتنا الراهنة .

فأي شكل فعلي يمكن ان يعطى للنصوص التاريخية الاحدى عشر التي ترسم ابعاد هذا البحث (الجزء الثاني ، والثالث من الكتاب) ؟

ان نستخدم بقدر الامكان ، كعنصر للوقت ، الزمن الحاضر الذي يبرز على احسن وجه هجمة العناصر والاحداث الحربية في الحضارات .

ان القراء الذين لا يهتمون بالبحث والدراسة ، ويرغبون قبل كل شيء معرفة نتائجه بأسرع ما يمكن ، يستطيعون الانتقال مباشرة من الجزء الاول (الفصل الاول والثاني) الى الجزء الرابع ، فالخلاصة التي نختم بها الكتاب ، شريطة ان يعودوا من جديد ، عندما يتوفر لهم الفراغ ، الى قراءة الجزئين الثاني والثالث ، ليطلعوا على الاسس التي بنيت عليها هذه النتائج .

وعلى العكس ، فان الذين يرغبون بأن يكون لديهم استمرارية تاريخية ومنطقية متدرجة وكاملة ، فلا بد لهم ، بل ومن مصلحتهم ، السير مع تسلسل الكتاب بكامله .

المجابهة

الفصل الاول

الحرب موجودة على الدوام

ان جميع الحضارات المنقرضة ، هدمتها الحروب ، وشهدت معها قبل هذه النكبة ، صداقة حميمة وعميقة ودائمة .

وقد عرفت الحضارات والحروب ، في اغلب الاحيان ، هذه النهاية المأساوية ونجحت في تحاشيها : فهكذا كان شأن روما في زمن غزوات قبائل الفول أو حملات هانيبال . والى جانب هذه الازمات يجري تتاريخ الحضارات يتخلله عدد لا يحصى من النزاعات المسلحة المتفاوتة بالطول والكثافة ولكنها دائما على صورتها ، التي ساهمت الى حد كبير بتبديلها .

المذبحة الكبرى

تبقى اكثر الحروب عنفا وعشوائية ، وتقلبا بين جميع القوانين الاجتماعية ، تبقى « رفيق الدرب » العظيم للتاريخ ، وهي بنفس الوقت « رحمه » القوي تسير مع الموت الفردي - الطبيعي والطارىء - الذي يعتبر أعلى مشكلة مطروحة في ساعتها بالنسبة لكل كائن بشري ، وترافق الكوارث الطبيعية التي تدفق مناطق بكاملها ، فهي الموت الجماعي الاعظم ، بل هي « المذبحة الكبرى للانسان على يد الانسان » التي تعرض للخطر ، الدول ، والمجتمعات والحضارات ، بالاضافة لتهديدها للأشخاص والأسر من جميع الانواع .

- فالدول : تتعرض لخطر إسكانها واقتصادها ، وتوسعها وانظمتها ، بل وحتى وجودها نفسه أحيانا .
- والمجتمعات : تتعرض للخطر في بنياتها وطرق تفكيرها .
- والحضارات : تتعرض للخطر في كل عناصرها وتركيبها ، والحرب هي في وقت واحد ، أم الحضارات وابنتها القاتلة ...

مفريات الحرب

الحقيقة أننا نعثر على هذه الاغراءات الى جانب التهديدات بالحرب في اصول منظم منجزات الفكر الانساني الكبرى . فأوايد الشعر والادب الاولى ، لم تكن سوى الملاحم الحماسية التي تمجد الابطال المحاربين واعمالهم العظيمة وحملاتهم الحربية . وفي فجر جميع الثقافات القومية تطالعنا هذه الاعمال الخالدة ك : « الالياذة » و « الساغا » (١) و « الرامايانا » (٢) و « الهاغافات — جيتا » (٣) و « اغاني رولاند » (٤) . ويستمر التاريخ حافلا ولا يزال ، بقصص الحروب والمعارك .

كما ان الاعمال الفنية الاولى ، والرسوم المنحوتة في الصخور تمثل الفربسة والصيد والمحارب . واخيرا فان معظم اساطير الالهة تبدأ برواية المعارك الرهيبة بين الالهة والجن ، والعمالقة والملائكة والشياطين . ولم تتوصل الالهة جميعها لبناء مجدها وقوتها الا بعد انتصارها على التنينات والاعداء الآخرين ، ويعتبر ذلك قاسما مشتركا بين آلهة الاولب عند الاغريق ومجمع الالهة الهندية والجرجانية والافريقية وكذلك آلهة الهنود الحمر في القارة الامريكية .

ويلخص الشيخ هيراكليت (٥) جميع هذه التقاليد واصول فلسفتها في

(١) قصص قصيرة تحكي وقائع حقيقية باللغة العامية ، وصلت أوجها في النصف الاول للقرن الثالث عشر الميلادي . وهي تختص بتاريخ الشعب الايسلندي ، وامجاد ملوك النرويج من عام ١٢٠ — ١٢٨٤ م والمناطق السكندنافية الاخرى . وهي تحكي الرحلات القديمة الى غزو غروثلاند .

(٢) اسم نوعي لملاحم هندية مقدمة من القرن الخامس ق.م الى القرن الخامس عشر ميلادي تروي حياة الملك الذي يجسد الالهة فيشنو .

(٣) اسطورة ماهايبا أو الاله كريشنا يعلم طرق التأمل والورع والاعمال العظيمة .

(٤) أشهر الابطال في عهد شارلمان قتل في الحرب ضد التاسك عام ٧٧٨ م وقد اشتهرت لغانبه الحماسية .

(٥) فيلسوف يوناني (٥٤٠ — ٤٨٠ ق.م) كانت النار بالنسبة له العنصر الاساسي للمادة .

المرحلة المشهورة ، فيقول : « الحرب هي ام جميع الاشياء فهي تصنع الالهة كما تصنع العبيد » . وبمعنى آخر ان الحرب هي الاساس الذي بنيت عليه جميع الفوارق بين البشر .

ان الاغراء الذي كانت تمارسه الحرب ، ولا تزال ، على بني البشر ، لم يأخذ فقط شكلا شاعريا او دينيا او فنيا ، فسرمان ما بدأ الانسان بالتفكير وانتاج منجزات لا علاقة لها بالفناء والفن ، بل تقوم على التفاهم بين جهود متنوعة كانت الحرب مصدر وحي لها . فالفلاسفة والاخلاقيون والمؤرخون ورجال القانون والكتاب السياسيون والعسكريون ، جميعهم خصصوا للحرب ومظاهرها المختلفة اعمالا عظيمة لا تحصى .

وهذه الاعمال المتنوعة ضرورية ومتكاملة ، لان كل « نزاع مسلح » يمثل جميع المظاهر والصفات في آن واحد ، وبالنتيجة لا بد من دراسته عبر جميع هذه الزوايا .

وفي ايامنا الحالية ، يضاف الى هذه الاساليب التقليدية اسلوب جديد يستند الى علم الاجتماع والعلوم الانسانية الحديثة الاخرى : فعلم الحرب يدرس الحروب والسلم والنزاعات بأنواعها معتمدا على اسلوب فكري قائم على انظمة ثلاث لا تنقسم عراها عن حياة المجتمعات .

وهذا النظام لا يزال في بدايته لان « معهد علم الحرب » تأسس في عام ١٩٤٥ ، ولم يستطع حتى الآن أن يلبي جميع وعوده وان يعطي جميع ثماره ، وهو امر طبيعي بالنسبة للعلوم الانسانية الحديثة . ولكن « علم الحرب » يشكل عملية اقتراب اصلية ومثمرة ، سيحاول من خلالها التدليل على « المنظور التاريخي » الذي سنرسمه عن الحروب والحضارات وصدى تفاعلاتها .

تمائب الحروب والسلم

يبدو الحرب كأنها جزء لا يتجزأ عن جميع الحضارات . ويمكن القول ، انطلاقا من معيار العنف الدموي المنظم ، ان التاريخ الداخلي والخارجي

للحضارات مطبوع بالتعاقب المستمر بين الحروب والسلم . فكل واحد منهما يشير الى الانتقال من عالم الى عالم آخر تتبدل فيه جميع القيم الاخلاقية والاقتصادية والقانونية والمراتب الاجتماعية ، ففي الحرب يتوقف العمل بمبدأ تحريم قتل الانسان لاخته الانسان . ويتحول فجأة ، خصوم الحكم بالاعدام على المجرمين الاشرار ، الى اناس يؤمنون بارسال آلاف الابرياء الى اتون الحرب . ويجري مثل هذا التغير في نفسية الافراد ، فالنجلاء مثلا يتقبلون بالرضا ابهظ التكاليف التي تتطلبها الاعمال الحربية التدميرية ، والجنساء الذين يفرون امام ذبابة او فارة يواجهون نيران الرشاشات .

والحرب تتسم بشكل خاص بالتبذير المفرط بالارواح البشرية والثروات . وتكمن احدى اهم مميزات الحضارة في وتائر فترات العدوانية . ومن الملاحظ ان الكتاب والسياسيين يؤكدون ان السلم يحمل احيانا الحرب بين ظهرائه ، وتحمل الحرب في احيان اخرى السلم في طياتها ، تبعا للظروف .

وهاتان النظريتان هما حقيقتان متلازمتان كوجهين لقطعة نقد واحدة . وتعبر عنهما تمام التعبير احدى العملات الرومانية القديمة التي سكّت في عهد الامبراطور جانوس ، ويمثل أحد الوجهين معبد جانوس مفتوحا ، ويمثل الوجه الآخر هذا المعبد مغلّقا ، حسبما تكون روما في حالة الحرب او حالة السلم .

ومن المؤسف ان البشرية لم تستطع حتى الآن تجنب هذا التعاقب . فهل هو مجرد صدفة شاذة ام انه على عكس ذلك ، خاضع لوتائر ودورات متناوبة ؟

ان السؤال كما يبدو على درجة عالية من الاهمية . والواقع يمكن الحاقه بعلم الحيوانات (علم البيولوجيا) بالمعنى الواسع ، اذا ما لاحظنا انه يخضع لوتائر دورية اكثر مما يخضع لقوانين معنية . وهذا يعني ان تعاقب الحرب والسلم ينحدر من اسباب عميقة يمكن تحديدها وتحليلها وتقدير الاجزاء التي تتكون منها ، وانها تخضع لقوانين معقدة ولا شك ، كجميع القوانين الاجتماعية ، غير انها فعالة في حدود امكانياتها . فاذا كان الامر كذلك ، فلا بد من وجود اسس لاقامة « تيار سلمي » اصيل وعلمي وعملي ، يختلف عن العديد من الحركات السلمية القائمة اساسا على العواطف ، والجديرة بالاحترام رغم عدم

فعاليتها ، ذلك أن هذه الحركات لا زالت تقوم حتى الآن على الآراء المثالية ،
والعويل والسخط واللعنات وعلى مانوية شاملة .

فاذا كانت الحرب لا تخضع الى أي قانون اجتماعي ، واذا كان محركها
الوحيد هو شهوات الحكام والشعوب ، فلن يكون هناك أي أمل بالتنبؤ بها
علميا ، وهذا يعني أن الإنسانية يجب أن تخضع لها دائما بشكل أعمى دون أن
تفهمها ، وسيكون من الواجب في هذه الحالة التنازل عنها لتكون حكرًا للادب
والتاريخ الاسطوري ، والاقتصار على دراستها من النواحي الذرائعية فحسب .

استقرار الحروب وظلتها

يبدو ، حتى الآن ، أن دوام الحروب أمر محتوم . فقد بذل الحقوقيون
منذ عشرات القرون ، جهودا هائلة من الإبداعات الفكرية التصورية غايتها وقف
الحرب أو الفائها نهائيا ، بالتأثير على المسؤولين عن السيادات الداخلية
والخارجية والدولية . وتدخل ضمن هذه الجهود : موائيق عدم الاعتداء الثنائية
او المتعددة الاطراف ، ومعاهدات الصداقة ، واتفاقيات عدم التدخل في شؤون
الآخرين ، واتفاقيات الهدنة كتلك التي تختص بالالعاب الاولمبية في اليونان
القديم ، او الهدنات المقدسة التي فرضتها الكنيسة في القرون الوسطى ، او
التي فرضها المحكمون اليونان^(١) ، او المنظمات الدولية المعاصرة ...

والواقع لم تكن أي واحدة من هذه الموائيق والمعاهدات والقرارات دون
جدوى ، ولكنها كانت دائما مؤقتة ، فبعد أن تحترمها الاطراف المعنية لبعض
اذا ببعضهم او جميعهم يتوقفون فجأة عن التقيد بها او اختراقها .

وكذلك الامر بالنسبة للسلطات الدينية التي لعبت دور الحكم المعتدل
بعض النزاعات ، في جميع الحضارات ، بشكل يكاد يكون دائما . وقد بذل
رجال الدين في جهودهم لوضع قواعد اخلاقية تبطل شرعية الحروب ، او تخفف
على الاقل من قسوتها . ومن هذه الجهود تلك النظريات التي وضعها القديس

(١) وهم جماعة من الحكمين الذين يمثلون الدول او المدن اليونانية القديمة ، كانوا يعقدون
اجتماعاتهم لمناقشة المصالح المشتركة والنظر في النزاعات المختلفة واصدار الاحكام النهائية عليها .

توماس داکان حول « الحرب العادلة » ، ونظريات رجال اللاهوت الاسبان مثل فيتوريا .

وبلاحظ ، بمزيد الحسرة والاسف ، ان هذه الجهود لم تكلل بنجاحات كبرى ، وان المواعظ الدينية المثيرة كانت مسموعة اكثر منها ، خاصة عندما تدعو للحروب المقدسة والعنف الجماعي . وهذا ما تؤكد الحروب الاسلامية ، والحروب الصليبية والحروب الدينية في اوربا .

ومن هنا يأتي السؤال التالي : الا يعني دوام وکلية وجود هذه الظاهرة المرعبة ، رغم كل الجهود والنوايا الحسنة التي بذلت لمحاربتها ، الا تعني بان « الحرب تقوم في المجتمعات والحضارات بوظائف لانزال اعروية حتى الآن ولا يمكن الاستعاضة عنها ! » . ولهذا اليس من الواجب ان تکرس جهود جميع المسؤولين في المجتمع الانساني : « لتوجيه عدوانية الانسان نحو مخارج اقل دموية واقل تدميرا ؟ »

والحقيقة ان الوظيفة الرئيسية للحرب هي التدمير . ولهذه الوظيفة ظاهرتين رئيسيتين :

فعندما لا تقتزن حرب ما بنتيجة هامة ، اي استسلام ودمار احد الاطراف ، نجد انفسنا حيال نوع من « الدمار المتبادل » ، والنزف المزدوج بالرجال والثروات . وعندما تبلغ الخسارة بالارواح البشرية والثروات ، ودمار الاراضي وخراب المدن ، مستوى معين ، تكون النتيجة نوع من « الوهن » و « الاشباع » الذي يجبر الاطراف المتقاتلة على القبول بسلام مبني على « التفاهم او الحل الوسط » . وهذا ما يحدث بالفعل لسياسة الحروب المحدودة الاهداف ، عندما تحقق اهدافها . وقد يترتب على مثل هذه الحروب نوع من التأثير المتبادل بين الطرفين المتحاربين ، كما حدث بالفعل للمارشال ليوتي^(١) في حربه الاستعمارية مع المملكة المغربية . ونادرا ما يحدث ذلك في الحروب الدينية

(١) المارشال ليوتي (١٨٥٤ - ١٩٢٤) هو القائد الفرنسي الذي احتل المغرب ونظم الحماية الفرنسية عليه بين عام ١٩١٢ و ١٩٢٥ ، واستطاع المحافظة على هذه الحماية في الحرب العالمية الاولى رغم المؤامرات الالمانية .

او الايديولوجية ، التي تقوم عادة على « **النفى المطلق لوجود الغير الذي ينتظر اليه لتجسيد مطلق للشر** » .

وعلى عكس ذلك ، فعندما تنتهي حرب ما الى سحق أحد الاطراف ، ولا يقبل الطرف المنتصر مراعاة جانب خصمه (المفلوب) او المحافظة عليه - كما فعل بسمارك بالنمسا بعد معركة سادوفا (١) ، لاسباب تتعلق بالسياسة العليا ، يمكن ان ينتج عن ذلك تبدل بالحضارة او على الاقل تحول عميق للطرف المفلوب بالبنيات السكانية ، والسياسية والاقتصادية والقومية والفكرية .

ذلك ان الصرخة الرومانية القديمة او اللفة القائلة « **الويل للمفلوب !** » لم تنته بعد .

وقد شهد تاريخ البشرية « **تغيرا حضاريا** » بين عام ١٤٥٣ م و ١٥٢١ م على اثر سقوط ثلاثة عواصم هامة هي : القسطنطينية على ابواب الشرق ، وغرناطة في اقصى الطرف الغربي من البحر الابيض المتوسط ، ومكسيكو على الجانب الآخر من المحيط الاطلسي .

صحيح ، ان الحضارة قد تحافظ على ازدهارها ومواردها بعد وتوسع هزيمة عسكرية او سياسية ، ونستمر على بسط نفوذها المعنوي وتأثيرها على الطرف « **الغالب المتوحش** » كما كان الامر بالنسبة للحضارة الاغريقية التي انتعرت عليها روما .

ويؤكد تاريخ القارة الاوربي ، انه ما من « **منتصر** » كروما التي استطاعت ان تجمع المتناقضات في امبراطورية واحدة ، وتشكل التحالفات المتعددة التي انفذت التوازن الاوربي ، وكانت الاساس المتين لتنوع هذه القارة والتمايز البسيط في حضارتها .

ولم يكن الامر كذلك في القارات الاخرى ، حيث نلاحظ ان الحضارات

(١) سادوفا : قرية في بوهيميا وقعت فيها المعركة الفاصلة التي سميت باسمها بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦ م وانتهت بانتصار بروسيا (بزعامة الرجل الحديدي بسمارك) .

العظيمة القديمة في اسيا ، باستثناء اليابان ، تفرق في تحولات عميقة جدا على اثر الحروب المعتدلة نسبيا . فقد كانت الصين والهند مسرحا للفتوحات والنهب والمذابح مرات عديدة ، ومع ذلك فقد بقيت عقليتهما على حالها من الناحية الجوهرية .

وهكذا نلاحظ بأن الصين استطاعت دائما امتصاص « غزاتها » الذين سيطرت عليهم حضارتها ثم تمثلتهم .

وظيفة الحرب التدميرية

ان الوظيفة الدائمة للحرب هي « الدمار » . ونحن نجدها في جميع النزاعات المسلحة - الكبيرة والصغيرة - وفي الحروب الدولية والحروب الاهلية . غير ان بعض الحروب تأخذ اهمية خارقة ، تلك هي الحروب التي ادت الى دمار حضارة ما . وهذا النوع من الحروب ادى بالفعل الى تغييرات عميقة تهم تاريخ البشرية جمعاء ، وكان لها آثارا سياسية واجتماعية وثقافية .

ومع ذلك ، فان هذا الدور الحاسم ، لا يقتصر بالضرورة على الحروب العظمى التي تتميز بضخامة عدد المقاتلين والوسائل المستخدمة فيها . فاذا استعرضنا تاريخ اسبانيا ، نجد ان حروب شارل كانت الباهظة التكاليف ، خلقت آثارا سياسية هامة . فقد احدثت ، هذه الحروب ، توازنات جديدة بين الدول والسيادات والممالك الاوربية ، كما احدثت نتائج اقتصادية وانتقال للثروات بين البلدان ، ولعبت دورا خاصا في مجال التبادل بين الحكومات والشعوب والاقتصاديات والثقافات المختلفة ، ولكن العناصر البنيوية المزمنة ، التي تقوم عليها حضارة ما ، كاللغات والقوميات والديانات والتقاليد السياسية والقيم الاخلاقية والفوارق الاجتماعية ، كل هذه البنيات ، بقيت على حالها اجمالا .

وفي هذا الوقت ، حدثت تغييرات حضارية كبرى على المستوى الكوني ، على الرغم من انها كانت نتيجة حملات عسكرية ضعيفة نسبيا ، قوامها حفنة من

الرجال بقيادة فاتحين عظام مثل : كورتيز (١) ، وبيزارو (٢) في أمريكا في القرن السادس عشر ميلادي ، وكذلك الامر في القرن التاسع عشر بالنسبة لحملات كليف (٣) ، وستانلي (٤) ، ودوبرازا (٥) ، وغاليني (٦) ، ومارشان (٧) ، ودودس (٨) .

كما شهد هذا القرن نوعا يشبه الفزوات البربرية ، وهي الهجرات التي قامت بها جماعات قليلة العدد من اوربا لتستوطن في أمريكا وافريقيا الجنوبية واستراليا ونيوزيلندا .

صدمة الحروب

ان دراسة الحضارات تساعد على اكتشاف المظاهر المتتابعة والتطور لهذا الاتحاد الوثيق الذي لا تنفصم عراه بين اشكالها والاساليب التي يحس بها وتتصور وتظهر (تعبر) اندفاعاتها في العنف الجماعي ، وتلقي الضربات المعاكسة .

-
- (١) هيرمان كورتيز (١٤٨٥ - ١٥٤٧) القائد الاسباني الذي احتل المكسيك وامبراطورية الازتيك عام ١٥٢١ واصبح حاكما هاما .
 - (٢) فرانسيسكو بيزارو (١٤٧٥ - ١٥٤١) القائد الاسباني الذي احتل البيرو وتحل على يد الشوار .
 - (٣) كليف دوبلاسي : جنرال انكليزي (١٧٢٥ - ١٧٧٤) انشا القوة الانكليزية في الهند واتهم بالاختلاس فانتحر .
 - (٤) ستانلي : انكليزي (١٨٤١ - ١٩٠٤) اكتشف افريقيا الوسطى واجتاز القارة السوداء من الشرق الى الغرب . ووضع نفسه تحت تصرف وخدمة ملك بلجيكا .
 - (٥) دوبرازا : مستعمر فرنسي (١٨٥٢ - ١٩٠٥) احتل جزء من الكونغو وانشأ مدينة برازافيل .
 - (٦) غاليني جوزيف : مارشال فرنسي (١٨٤٥ - ١٩١٦) خدم في السودان ، واحتل ماداغسكار ، واصبح حاكما عسكريا لباريس عام ١٩١٤ وساهم في انتصار المارن ، ثم اصبح وزيرا للحربية .
 - (٧) مارشان : جنرال ومكتشف فرنسي (١٨٦٢ - ١٩٢٤) اجتاز افريقيا من الكونغو الى نهر الفيل وقام باخلاء فاسودا .
 - (٨) دودس الفريد : جنرال فرنسي (١٨٤٢ - ١٩٢٢) استولى على داهومي عام ١٨٩٢ م .

وتصادف الحرب دائما عند احتضار وموت الحضارات . وهنا لا بد من التفكير ايضا بأولئك الذين يستفيدون من هذه الخاتمة المدمرة . ففي مثل هذه المناسبات يبرز على المسرح المناصرون للحروب والمنافحين عنها ، فهي بالنسبة اليهم « امتحان للشعوب » . ومن وظائف الحرب ، كما يدعي هؤلاء ، ازالة الاشكال الاجتماعية ، والدول ، والاعراق ، والحكومات المنهكة (المنحلة) لتخلي المكان للقوى الفضة ، ولاشكال من التفكير والتنظيمات الجديدة . وهذا يعني في النهاية اعطاء الحرب دورا خارقا يتعدى حدود البشر : « حكم التاريخ » او « حكم الاله » حسب العبارة الهيجلية التي اشتهرت في القرون الوسطى .

غير ان الامر ليس كذلك على الدوام ، فاذا كانت : « القوة مولدة المجتمعات » ، كما تقول بعض الآراء ، فهي ايضا « مجهزة المجتمعات » في أغلب الاحيان .

وفي بعض الحالات لا يقدر افزع انواع العنف في ابطاء سير الحضارات او حتى تأخيرها . . وسرعان ما يكشف المتخاصمون انهم لا يزالوا في نقطة الانطلاق بعد فاصل رهيب من المجازر البشرية والدمار .

والحقيقة انه ينذر وجود الحقائق المطلقة في العلوم الانسانية . فعندما تزول احدى الحضارات ، لا يبقى الا التاريخ الذي كتبه الفزاة المنتصرون على هواهم ، ومن الطبيعي ان تهيمن على هذا التاريخ مبرراتهم وامجادهم . فلنتصور مثلا ما كان يمكن ان يكون عليه تاريخ « الحروب التأديبية » (١) ، لو كتبها القرطاجيون .

وفي ايامنا هذه اقدم أحد المؤلفين على القيام بمحاولة فريدة عندما حاول كتابة تاريخ « فتح المكسيك » من وجهة نظر « احد امراء امبراطورية الازتيك » . وقد تمكن هذا الكاتب الموهوب (٢) ، من اعادة تكوين العقلية الازتيكية ، ومبرراتها

(١) الحروب التأديبية : اصطلاح أطلقه الرومان على صراعهم مع مدينة « قرطاجة » الفينيقية التي كانت تهيمن على القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط ، بل ووسعت نفوذها وتجارتها الى الجزر البريطانية وشواطئ اوروبا الغربية ، وبحر البلطيك . وقد استمرت هذه الحروب طوال الفترة الواقعة بين عام ٢٦٤ ق.م وعام ١٤٦ ق.م عندما سقطت المدينة بيد الامبراطور الروماني اغسطس .

(٢) كتاب « سقوط النسر الازتيكي » للكاتب المكسيكي كارلو كوكسيولي .

وآراء الشخصيات القيادية لهذه الحضارة البائدة بعد انتصار الفاتح الاسباني كورتيز ، كل ذلك بالاستناد الى بعض الحقائق والوثائق التي تم اكتشافها فيما بعد .

وهذه الظاهرة تتكرر بعد تدمير كل حضارة ، اذ يفتح الطريق لدورة جديدة ، حيث يستعيد المنتصرون من اجازة طويلة الى حد ما يقضونها مع التاريخ .

والواقع ان الامر ليس تماما كما قال الشاعر (الفرنسي) يول فاليري بأن « الحضارات فانية » بل ان « الحضارات تختفي بالموت العنيف » ، لانها تنشأ وتنهار بشكل دائم تقريبا في اتون الحروب . وانه لمن المؤسف الا تتخذ البشرية حتى الآن ما يكفي من الحيلة للحيلولة دون هذه الطريقة الرهيبة . لذا نرى بأنها تستحق الدراسة بعناية فائقة .

حق العنف والعنف

ان اهم واعظم وظائف الدول هي : حماية مواطنيها من العنف ، واحتكارها لحق استخدامه عند الضرورة في الداخل الخارج . وقد اختصت كل حضارة بأسلوبها الخاص لحل هذه المعضلة الهامة . والاساس الاكثر ثباتا في هذا المجال ، يكمن في المعتقدات الدينية والمبادئ الاخلاقية والقانونية التي تنظم استخدام العنف . ومنذ اقدم العصور عرفت المخلوقات (من حيوانات وبشر) نوعين من المبادئ التي تنظم العلاقات الاجتماعية :

الاولى : تتعلق بحق استخدام العنف . فما هو الاتجاه الذي يسمح او يمنع استخدامه ومع او ضد من ؟ والواقع ان نظام التسلسل الاجتماعي بأبسط اشكاله ليس سوى « سلم » لحقوق التأديب القضائي .

ويوجد عند بعض فصائل الطيور^(١) « نظام تسلسلي بضربات المنقار » ، اذ يحق بموجبه لبعض الطيور بان « تنقر » غيرها ، ومن واجب الطيور الاخرى تلقي « ضربات المنقار » هذه دون ان ترد ، وقد كان من العدل ان تتمتع على الاقل بحق الفرار ! . وهذا ما تسميه قوانيننا بـ « الهيبة او الاجلال » والنظام

(١) وتسمى هذه الطيور بالتاريخ الطبيعي « الطيور الداجنة » ومنها الدجاج .

التسلسلي يكون مموها في بعض الاحيان ولا يمكن تمييزه بوضوح ، وفي حالات اخرى نجد جماعات بشرية مقسمة الى قطاعات ، كل فئة منها منفصلة على نفسها ، وتسير وفق نظام وقواعد تميزها عن غيرها من الفئات .

اما الوظيفة الثانية للدولة : فهي تعريف العدو والصديق . وبمقدار ما تتكامل المجتمعات وتتنوع ، بمقدار ما تظهر العديد من الصفات الجديدة ، ولكنها ترتبط مع ذلك بالمخطط البدائي . ومن النادر الا تشمل التقاليد والنماذج الاصلية واللاشعورية ، لشعب ما ، على عدو تقليدي وراثي . وهذه ظاهرة معقدة ، ثابتة نسبيا ، ترجع اصولها للحروب القديمة التي تمر بفترات هادئة وفترات حادة .

وعندما يمكن العثور على « سوابق » من كل الانواع ، كما هي الحال في تاريخ القارة الاوربية ، يصبح الاختيار امرا لا بد منه ، فكل امة كانت في بعض الاحيان ، وعلى مرور القرون ، حليفة او عدوة بعض (او لجميع) جيرانها . وعندما تتضخم الروح العدوانية الجماعية وتستشيط من الغضب ، تكون النتيجة هي البحث عن « نقطة تطبيق » ، وهكذا يتغير العدو ، بتغير الظروف والاحداث . وهذه الطريقة معروفة في ميادين علم النفس ، وهي تقوم على طمس الاحقاد والنزاعات الماضية نحو البعض واحياءها وتنشيطها نحو العدو الحالي بكل الوسائل .

لكن حياة الحضارات ، بشكل عام والمجموعات البشرية ذات السيادة التي تتشكل منها هذه الحضارات ، يعترها حالات من الهدوء والراحة ، وحالات من العدوانية والتوتر ، على شكل متناوب ، وتبلغ هذه الحالة الاخيرة في النزاعات المسلحة ، فتزدهر عندها « ظاهرة الحرب » .

ولعل من المناسب قبل البدء بدراسة العلاقات التاريخية من الحروب والحضارات ، تعريف « ظاهرة الحضارة »^(١) ومكوناتها التي تساعد على تمييز وتصنيف مختلف الحضارات .

(١) - يرجى الرجوع الى الملاحق بهذا الكتاب للاطلاع على بعض التعاريف والمصطلحات .

الفصل الثاني

في قلب الحضارات

لقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان . ولكن كيف يمكننا تصنيفها ؟ وهل يمكن تصور معايير ومقاييس تسمح بتمييز هذه الحضارات المختلفة ؟

صحيح ان عددا من المحاولات التي اجريت حتى الآن في هذا المجال ، اظهرت صعوبات هذه العملية ، ولكن تجديد وخصوصية طرق اقتراب « علم الحرب » ، يمكن ان تسمح لنا بدراسة التفاعلات بين الحضارات والحروب ، وهذه العملية هي محاولة مستحدثة واصيلة لتحليل الحضارات .

ومع ذلك ، من الصعب جدا وضع تصنيف مرض للحضارات ، وان اي من المعايير المقترحة لا يمكن تطبيقه بشكل اكيد وبدون الوقوع في الخلط المحتمل .

فهل يمكن الاعتماد على معيار « العرق » ؟ اننا نشاهد امام اعيننا بشرا ينتمون الى اعراق مختلفة جدا من السود والصفرة والبيض ، ولكنهم يستطيعون مع ذلك تكلم نفس اللغة ، بل وينتمون لنفس الامة ويتبعون نفس الدراسات ويؤمنون بنفس الديانة ، وهذه الحالة كثيرة الانتشار في الايام الحالية ، للدرجة لا تحتاج الى ذكر امثلة عنها .

الحضارات اعلى من الثقافات

لا بد ، قبل شيء ، من تمييز الحضارة عن الثقافة . فهي اوسع شمولاً من الثقافة ، اذ تغطي مجموع الاشكال الاجتماعية وصنوف الحياة المختلفة . وكل حضارة تتميز عن غيرها بعقلية خاصة بها ، اي بمجموعة من المعارف والتقنيات والمعتقدات والقيم الروحية والاخلاقية والجمالية ، ولتل حضارة ايضاً ، مفهوماً خاصاً عن التسلسل الاجتماعي « النظام الطبقي » .

وبالمقابل ، فان الثقافة – بالمعنى الحديث للكلمة – مرتبطة بفكرة الامة . ويمكن القول مثلاً : « ان الحضارة الاوربية تشمل الثقافات الانكليزية ، والالمانية والاسبانية والفرنسية والايطالية والبولونية والروسية والسكندنافية .. الخ » .

وتعريف الثقافة هذا هو المفضل في الايام الحاضرة ، لانه يتلاءم مع مبدأ القوميات كما كان معروفاً في القرن التاسع عشر ، اي انه يقوم اساساً على اللغة . ففي ذلك الوقت ، كان الناس ينظرون للبلدان التي تحتوي في داخلها على عدد من الكيانات اللغوية ، على انها اكثر البلدان انقساماً وضعفاً .

وهكذا نجد ان الخرائط المكدونية في عام ١٩٠٠ – عندما كانت « المسألة الشرقية » تصم الاذان في السياسة الدولية – كانت ، هذه الخرائط ، ملطخة ببقع متعددة الالوان لتبين تمركز القوميات في هذه المنطقة . وكانت نتيجة ذلك تقسيم مكدونيا ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، حسب ادعاءات جميع الدول القومية المحيطة بها : الصرب ، والبلغار ، واليونان الخ .. وكانت هذه الادعاءات تستند الى حجج دامغة .

والواقع ، ان الكيان اللغوي يساعد على تحقيق الانسجام في المجتمع ، فهو يسمح منذ الطفولة ، بتبني نفس الاساطير والرجوع لنفس الابطال والادباء والمؤرخين ، وبالتالي تبني نفس اساليب التفكير . ولكن التبديل في اللغة المستعملة في منطقة ما لا يعني بالضرورة انتقال هذه المنطقة الى نموذج آخر من الحضارة . وهكذا فاننا نجد تبديلاً من هذا النوع ، في كل مكان من اوربا ، وذلك بتأثير التعليم الجماهيري ، وسهولة الاتصالات ، واستخدام وسائل

الاعلام الجماهيرية ، (الراديو ، والتلفزيون ، والسينما الخ) ، مما ساعد على محو الهمجات واللغات المحلية لصالح اللغة القومية الأم ولكن هذا التغيير اللغوي يتم دون ان يبدل الحضارة السائدة .

العناصر المكونة للحضارة

تشكل الحضارة مجموع الصفات والمزايا المشتركة لمجتمع او لمجموعة من المجتمعات ، وهي تتجاوز الثقافة وتغلفها . وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التي اوجدها او تبنتها مجموعة اجتماعية ما تندمج بشكل عام في « جو » واسع جدا ، ومكان جغرافي لفترة طويلة جدا من التاريخ .

وتستخدم هذه الاساليب المادية والتقنية ، والمفاهيم لحل جميع المشاكل التي يطرحها وجود هذه المجموعة : الاتصالات ، واصلاح وتوزيع الاراضي واستثمار الثروات ، وكذلك الحياة الاقتصادية والفكرية والدينية والسياسية .

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود ، وهذا العامل عنصر غير مادي وهو ضروري لكل حضارة لكي تولد ونحيا وتتطور .

وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء .

علم الجمال

ان اول ما يسترعي انتباه المراقب الذي ينظر للحضارة من الخارج دون فكرة مسبقة ، هو صفاتها الجمالية ، واراكها للجمال بشكل عام والاساليب الفنية المعبرة عنه . وتعتبر المؤشرات الخارجية ذات دلالة هامة بشكل خاص . لهذا نجد كتب الجغرافيا والتاريخ تمثل الاجناس البشرية من مختلف الحضارات بالبستهم التقليدية وحليهم . وبمقدار ما تتواجد الازياء القومية ، يمكن التعرف من النظرة الاولى على الحضارة التي ينتمي اليها الافراد بواسطة البستهم وزينتهم (تسريحة الشعر والمساحيق المستعملة) وجمالهم الجسماني .

وينقسم هذا الاسلوب العام بدوره الى عدة اقسام :

فاللباس ، في كل مكان ، يمثل الاختلافات التي لها علاقات بالجنس او التسلسل الطبقي . وبمقدار ما تكون الحضارة قديمة ومغلقة تكون الاختلافات باللبسة الالزامية بالنسبة للمذهب ، والمرتبة والفئة الاجتماعية للأفراد .

وحتى في الحضارات الراهنة - كالحضارة الاوربية مثلا - هناك البسة وازياء معينة للوظائف والاختصاصات ، وتعتبر الطابع المميز لكل فئة من هذه الفئات .

وفي الحضارات القديمة ، كانت القوانين التي تحدد انواع اللباس صارمة جدا . فقد كانت بعض الاقمشة والشارات وادوات الزينة ، وحتى بعض التسريحات ! وتربية اللحى والشوارب والشعور الطويلة والقصيرة والمجدولة (المسدولة) تعبر بدقة عن الوضع الاجتماعي ، فبعضها مخصص او ممنوع على الجنس او الطبقة او الفئة الاجتماعية التي تنتمي اليها الافراد .

وكان الغزاة المغول يفرضون على الرجال ذو الاصل الصيني ، تربية جديلة طويلة من الشعر في قمة جمجمتهم ، كاشارة مهنية تميزهم عن المغول المحتلين . وفي افريقيا السوداء التقليدية يميز الانتماء القبلي بوشم غير قابل للزوال .

وتعتبر المنشآت المادية ، والادوات ، والتماثيل ، والكتابات ، ذات اهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال في كل حضارة .

وبآتي بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية : كفن الطبخ وطريقة التغذية ، وصناعة الفخار ، والاولوان والادوات المنزلية ، والمفروشات ، والمنشآت والادوات والآلات والاسلحة ، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة والصفة الجمالية .

وفي هذه الميادين ، تبدع كل حضارة اشكالا اصيلة خاصة بها وتتميز بها عن غيرها من الحضارات ، وعندما تزول فان هذه الاشياء تعود للظهور بفضل التنقيبات التي يقوم بها علماء الآثار على شكل تماثيل واولان وكتابات ونقوش .

تقسيم العمل

يرتدي توزيع العمل في المجتمعات أهمية خاصة لأنه تعبير عن صفة مزدوجة : اقتصادية واجتماعية ، فهو أولا مرتبط بالتقنية الموجودة ، وبقدر ما تكون الحضارات بدائية يكون العمل الجسماني مجهدا ، وتكون الاعمال الزراعية وأعمال النقل التي تتم بواسطة الانسان ، في أسفل السلم الاجتماعي . وفي اغلب الحالات يكون هناك نوعان من العبودية .

وتوزيع المهمات يمثل أيضا نوعا من التسلسل الاجتماعي يختلف من حضارة وأخرى . ففي الاقتصاديات المعاشية - التي لم تعرف البشرية غيرها مطلقا حتى ظهور المجتمع الاستهلاكي - كان التوزيع الغذائي يتم على أساس الانتماء الطبقي ، أو الوظيفة الاجتماعية . وهكذا يأكل الافراد حسب طبقتهم أو مرتبتهم . ومن هنا كان مرض الضغط (أو زيادة الدم) محتكر للطبقات الاجتماعية العليا (السادة ؟) ، أما « فقر الدم » فهو المرض الطبيعي للطبقات الدنيا (العبيد) . وفي الموائد الدينية التي عرفت عند حضارات المحيطات في عصور ما قبل الكولومبية (١) ، كانت الوقعات ومواد الغذاء توزع لكل فرد حسب مرتبته .

وفي الحضارات التي تتميز بالتسلسل الاجتماعي والطبقي ، كانت كل فئة من السكان منغلقة على نفسها ضمن قواعد خاصة تميزها عن غيرها ، وفي بعض الاحيان يكون التمييز بين الفئات محوها لا يثير الانتباه .

الاختراعات والتقنيات

هناك عامل بشري حاسم آخر يلعب دورا في تطور الحضارات : ألا وهو الاختراع . في ميادين تقنيات الادوات والاجهزة والاسلحة ، والملاحة البرية والبحرية والجوية والفضائية .

(١) المقصود بعبارة مصور ما قبل الكولومبية : العصور التي سبقت اكتشاف كريستوف كولومب للقارة الأمريكية ، وهي تختص بشعوب هذه القارة التي كانت تعيش فيها قبل الاحتلال الإسباني والأوروبي .

والاختراعات كانت في اغلب الاحيان من اسباب تغير في الحضارات ،
وهذه التغيرات يمكن ان يرافقها الهجرات الكثيفة في بعض الاحيان .

وهكذا كان انتشار الحضارة الاوربية يزداد بشكل مذهل منذ القرن
الثامن عشر بفضل تقدم الاسلحة والبناء البحري ! صناعة السفن) .

وتستند كل حضارة على مجموعة من الاختراعات التي تتحكم بنشاطها
المادي للانتاج والتسليح ، ولهذه الاختراعات اثر تراكمي . فاختراع التقنيات
الجديدة لا يلغي القديمة ، التي تبقى صالحة للاستعمال رغم تجاوزها . واذا
صنفت صناعة الاحذية - على سبيل المثال لا الحصر - فان تقنية الاسكافي
القديمة تبقى مستخدمة رغم قدمها .

وتأتي بعد ذلك عناصر التقنية . فكل حضارة انشأت او استخدمت
اساليب خاصة لاستعمال المواد - الاحجار ، والاشباب ، والمعادن - ولتربية
وترويض الحيوانات ، وكذلك استعمال النباتات والزراعة . والتقنيات عموما
يمكن استخدامها في اوقات السلم وفي زمن الحرب .

واخيرا فان التقنيات تميز الحضارات ولكنها لا تنفي لتصنيفها . فقبل
ظهور الاسلحة النارية - في القرن الرابع عشر - كانت الشعوب تقابل بعضها
باسلحة متكافئة . وكان التفوق يعود للشعب الاكثر حضارة والاقدر على تنظيم
الجيوش وادارتها في الحرب . ولكن هذه الشعوب المتحضرة كانت تسقط في
اغلب الاحيان تحت وطأة وتهور الشعوب البربرية . ومنذ سقوط الامبراطورية
الرومانية حتى ظهور تيمورلنك كان التفوق العسكري للخيالة (الفرسان)
'لمدججين بالرمح وللشعوب البدائية الرحالة ! البارث ، والمغول ، والتتار ،
والهونس والعرب ، والأتراك ؟ . ويتأكد هذا التفوق في اغلب الاحيان بالفتوحات
الواسعة مثل فتوحات جنكيزخان الذي امتدت امبراطورية من الصين (في
اقاصي آسيا) الى بولونيا (في قلب اوربا) في الفترة الواقعة بين ١١٦٠ و
١٢٢٧ م .

ولكن « المدفع » وضع نهاية للغزوات البربرية . فقد استطاعت موسكو

تحرير روسيا من الاحتلال السويدي . وفي الصين حيث لم تستطيع الجدار العظيم صد الغزاة المغول ، استطاعت المدافع الاولى (التي صهرها بعض الرهبان 'نجزويت الطليان) وضع نهاية لتدخل هؤلاء الفرسان المرعين .

وهكذا فان الاسلحة النارية والسفينة البخارية هي التي مهدت لسيادة الحضارات الاكثر ثقافة وعلماً كما ساعدت الشعوب الاوروبية التي اخترعتها، على ان تفرض سيطرتها ، في القرن التاسع عشر ، على جميع الشعوب الاخرى ، وفي جميع القارات .

الطب

ان تقدم العلوم الطبيعة اعطى بدوره ميزة جديدة اضافة للحضارات . وفي هذا يقول الفيلسوف ديكارت : « ان التحول الحقيقي لظروف الانسانية سيأتي عن طريق الطب وعلم الاحياء » .

غير ان آثار هذا التقدم الطبي قد تصبح مخيفة ، عندما يحدث تفاوتاً هائلاً بين الولادات المفرطة وبين الوفيات بالاطفال بشكل خاص ، التي يمكن خفضها الى ادنى بفضل الطب ، كما هي الحال في عدد من البلدان الفتية ، وينتج عن هذا الوضع اختلال هائل في التوازن السكاني . وهذا الاختلال هو الصفة المشتركة الآن لجميع بلدان ما يسمى بالعالم الثالث على اختلاف مواقعها واعراقها ودياناتها وسياساتها .

بنية الاسرة

تحتل بنية الاسرة ، وما يترتب عليها من نتائج طبيعية ، وشروط المرأة اهمية قصوى . ونحن لا نعرف حتى الآن مجتمعات « امومية » بمعنى الكلمة الا في المجتمعات البدائية المنقرطة تقريباً .

اما المجتمع الابوي ، فيكاد يكون منتشر في كل مكان في العالم ، ومن المرجح انه تكرر بتأثير الحرب ، حيث استطاع الرجل ان يأخذ مكانه في الاسرة بسبب مساهمته في الحروب ، سواء اكانت هذه الاسرة قائمة على الزوجة الواحدة ، او تعدد الزوجات .

ولاسباب لا يزال في معظمها مجهولة ، فان عادة التزوجة الواحدة تنتشر في منطقة محددة تماما تشمل الغرب الاوربي وامتداداته الاوربية وهي تنطبق تقريبا على البلدان المسيحية باستثناء الحالة الخاصة باليابان .

اما بالنسبة لعادة تعدد الزوجات السائدة في المجتمع الاسلامي ، واحدى نتائج الدين الاسلامي الاجتماعية . فقد كانت زيادة السكان من الطبقات الحاكمة تفوق مثيلاتها في الطبقات الشعبية . ويبدو ان اهمية الشخص تقاس بعدد زوجاته (كذا على ذمة المؤلفين ؟ ، وكان طبيعيا ان تحاول الطبقات الحاكمة الاحتفاظ لابنائها بجميع المهمات السياسية والادارية . وخاصة منها المهمات المفرية ذات الامتيازات ، الامر الذي جعل الارتقاء الاجتماعي ضعيفا . اما في البلدان والمجتمعات التي تقوم فيها الاسرة على الزوجة الواحدة . فكانت ولادات الطبقات الحاكمة اقل بكثير من ولادات الطبقات الشعبية .

اساليب التفكير والمؤسسات

وللحضارات صفة ماثلة ، فيما عدا الصفة الجمالية والحياة المادية والتقنية ، وهذه الصفة تتعلق بأساليب التفكير والمؤسسات . ففي هذا الميدان تتوقف معرفتنا للحضارات ، قبل كل شيء ، على الاوابد والآثار التي خلفوها لنا ، وبشكل خاص على معرفة هذه الحضارات للكتابة او عدم معرفتها لها والكتابة هي الاثر الذي يسمح بمعرفة ما اذا كانت عليه معارف واساطير وتقاليد الحضارات البائدة ، وكذلك الطرق التي كانت كل منها تتصور العلاقات بين الالهة والافراد والمجتمعات . وتظهر الاساطير والقصائد الشعرية والروايات والنقوش والكتابات ، ان الحرب كانت - ولازالت - اغزر الاتصالات بين المجموعات ذات السيادة - القبائل والمدن والدول والممالك - والحضارات . ذلك ان الحرب تفصل بقوة السلاح الحواجز التي هي القاعدة العامة في معظم المجتمعات الجاهلية . فقد كانت هذه المجتمعات مغلقة بشكل عام ، ويغلب عليها التعصب العرقي وكره الغرباء ، ولا تعرف المسامحة مع الآخرين ، بل تكن لهم دائما مشاعر عدوانية .

ففي الصين القديمة واليابان ، كانت السلطة تحكم بالاعدام على الاتباع

الذين يتجرؤون على الخروج من مملكتهم او اذا ثبت ان لهم اية علاقة مع الاجانب .

وطبيعي ان تكون الحرب ، بعد ذلك ، وسيلة اجبارية للاتصال بين هذه الكيانات المتعادية ، وهي التي تفتح الطريق للتعارف وتبادل الخبرات والتقليد .

الاشكال السياسية

كانت الانظمة السياسية شديدة التنوع ومتغيرة باستمرار ، بدءا من الحكم الفردي المطلق الشبيه بالاستبدادية الشرقية الى الجمهوريات الديمقراطية مروراً بكل انواع الملكيات الليبرالية والدستورية .

وينطبق هذا الوضع على الشؤون الاقتصادية واشكال الانتاج . ففي اوربا نشأ أسوأ نوعين من الانظمة السياسية في القرن الثامن عشر ، احدهما في انكلترا في فترة عودة الارستقراطية الشرسة ، ويقوم على عدم المساواة المفرطة بين المواطنين ، في امة غنية جدا ، وصناعية جدا ، والثاني في انديمقراطيات السويسرية التي تميزت بفقرها المدقع وزهدها ، وخشونة عاداتها ، الى الحد الذي دفع المنظر الاكبر للديمقراطية ، جان جاك روسو الى القول : بأن البؤس والبساطة هما الشرطان اللذان يبرران وجود هذا النظام .

القدرة على الابداع والقدرة على التدمير

ان مستويات القدرة على الخلق والابداع من جهة ، والقدرة على التدمير والعلاقة القائمة بينهما ، تميز بين الحضارات ، وقدرة كل منها على تعويض خسائر الحرب والابوة والمجاعات والكوارث الطبيعية .

الوسط الجغرافي - السياسي وخطوط التصدع(١)

يمكن ان نضم الاساسات الجغرافية - السياسية ، للحضارات ، الى

(١) خطوط التصدع .

مجموعة صفاتها الأكثر ثباتا واستقرارا . فتأثير المناخ الدائم ، وطرق المواصلات والتغذية ، كلها تتحكم بالصفات الأساسية للمجتمعات البشرية الموجودة فوق سطح الكرة الأرضية . ولا يقتصر ذلك على أساليب العيش والتجمع فحسب ، بل على المجابهات فيما بينها أو انفصالها عن بعض .

ان الوسط الجغرافي الذي يروى ويزود بشبكات للري والمواصلات يعبر أحسن التعبير بهندسة هذه المنشآت عن الحضارة واتجاهاتها ، كما تؤمن نقل الأفكار والتقنيات وانتشارها وانسجامها ومدى مقاومتها ودفاعها الداخلي ، وتساهم بدفاعها الخارجي وتوسعها ، ولكنها بالمقابل ، تعرضها الى خطر النفوذ الخارجي والاعتداءات من قبل الحضارات المجاورة .

ومن الجدير بالذكر ان بعض المميزات الجيوبوليتيكية (الجغرافية - السياسية) تبقى ما بقيت الحضارات ، ويمكن ملاحظة حدوثها في الحضارات المتعاقبة في نفس المناطق . وقد لاحظ المؤرخ ي. ف. غوتيه « أنه بعد صراعات عنيفة متعددة ، نشأ الانفصال في القارة الأوروبية بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية طبقا لخط جدران الحدود الرومانية تقريبا » (٢) .

وهناك ملاحظة أخرى لنفس المؤرخ تقول : « ان المناطق التي استقر فيها الاسلام بصورة دائمة في حوض البحر الأبيض المتوسط هي التي آمنت لفترة طويلة من الزمن بمذهب أريوس » (٣) .

وهكذا نرى ان الاتجاهات الفكرية تتوالد من جديد خلال فترات مديدة من الزمن ، فتأخذ أشكالا جديدة ضمن نفس الاطار الجغرافي - لسياسي .

اما ما يتعلق بـ « المجابهات » فان « خطوط التصدع » هي الوطن الدائم تقريبا للصدامات الكبرى بين الجيوش عبر مسيرة التاريخ ، وهي أيضا أماكن

(٢) اقام الرومان خطا منيعا من الجدران لحماية الامبراطورية من غزوات البرابرة في شمال القارة الأوروبية في القرن الثاني لميلادي ويمتد تقريبا من منابع مصب نهر الرين ومصب نهر الدانوب على البحر الاسود .

(٣) أريوس : كاهن ولد في الاسكندرية عام ٢٥٦ ميلادية وتوفي عام ٣٣٦ م واسس فيها طائفة الاربيين المسمى بمذهب الارباينسم الذي ينكر وحدة جوهر الاقانيم الثلاثة كما ينكر الوهبة السيد المسيح .

مرور الغزوات والهجرات الكبرى . وحول هذه الخطوط تتكرر النزاعات الكبرى ، مثل النزاعات التي وقعت على جوانب نهر الرين ، ونهر الدانوب ، وبحر المانش ، وبصورة خاصة ، البحر الابيض المتوسط ، والبحر الاحمر ، وبحر البلطيك ، حيث اصطدمت حولها الحضارات تباعا طوال قرون عديدة . ويمكن المقارنة بين هذه الخطوط وبين الصدعات المحيطية التي تقسم الكرة الارضية وتشق قيعان المحيطات ، وحولها تحدث الهزات الارضية وثورات البراكين .

غير ان هناك انواعا من « الصدعات » التي تحدث بين مختلف المجموعات البشرية ، ويأتي في المقام الاول منها : الحدود الفاصلة بين الاعراق بالمعنى البيولوجي للكلمة . والاعراق هي المخلوقات الاجتماعية العرقية ، التي تنتمي لنفس الحضارة وتنطق نفس اللغة وتملك نفس الثقافة وتعيش لاجبال عديدة وتنتهي الى خلق كيانات اجتماعية بيولوجية حقيقية تحتوي جميع انواع التمازج السكاني الذي عرفته طوال تاريخها .

وعلى هذا الاساس يمكن تمييز خط تصدع بشري ، يمر عبر الصحراء الكبرى ليرسم الحدود الفاصلة بين الاعراق البيضاء والاعراق السوداء ، او الخط الذي يفصل بين الاعراق البيضاء المنغولية عبر هضاب وفيافي اسيا الوسطى .

وان استقرار هذه « الصدعات » البشرية يعود لاسباب متغيرة وعددة ، وتعود في الغالب الى انواع الحياة التي يفرضها المناخ والموارد الطبيعية .

وفي الماضي كانت هذه الحواجز لا يمكن التغلب عليها لان حياة الناس تتحكم بها الى حد بعيد عوامل طبيعية بيئية ، اما الاعراق التي استطاعت التكيف وقهر بعض هذه العوامل فقد نجب وتطورت . ومن الامثلة في هذا المجال يمكن القول ان اختراع وسائل التدفئة المستمرة سمحت باستيطان المناطق التي كانت لا تصلح للاستيطان مثل كندا وسيبيريا . يضاف الى ذلك عامل المرض : كالسل القاتل للسود الذي يستوطن في شمالي الصحراء الكبرى ،

والحمى الصفراء ، والأمراض الاستوائية المربعة بالنسبة للبيض . وفي القطب الشمالي استطاع شعب الاسكيمو وحده التكيف على المناخ ، ولا يزال هؤلاء يعيشون على الصيد ويشكلون قبائل صغيرة قليلة العدد . أما سكان الصحارى والهضاب فهم من القبائل الرحل التي تعيش على تربية الابل وبعض المواشي .

ويبلغ تأثير العوامل الجغرافية - السياسية الذروة في الحروب الكبرى التي تولد وتنضج على جوانب خطوط التصدع . وهذه الخطوط ليست اسطورية بالنسبة للتاريخ ، ولكنها خطوط اجناس بشرية واجتماعية ، وهي التي كانت سببا في تغير الحضارات . ففي العالم الغربي ، على سبيل المثال ، شهد التاريخ الفتوحات الرومانية والغزوات البربرية ، والفتوحات العربية والتركية (الاسلامية) واخيرا الفتوحات الاستعمارية (١) .

العقليات هي الاساس

تتميز الحضارات بواسطة العقليات السائدة والمعروفة عنها ، وهي عبارة عن مجموع المعارف ، والافكار والمفاهيم والقيم . وتشتمل العقليات عامة بما فيها العقليات البدائية جدا على ثلاثة عناصر تشكل اطارها الدائم .

العنصر الاول : يمكن ان يطلق عليه « علم الكون » ، اي الشروح والمعارف الصحيحة او الوهمية المتعلقة بالكون واصوله وبنيته وعمله .

والعنصر الثاني : يتألف من التقنيات بجميع اشكالها ، اي مجموع السبل والعمليات والاساليب المستخدمة للتأثير على المادة او الجسم البشري .

أما العنصر الثالث : فيرتبط بالاخلاق التي تشمل جميع الاحكام والقيم والقواعد الدينية والعادات والقوانين المنظمة للعلاقات بين الناس .

والعقليات هي العنصر الاكثر استقرارا للحضارات ، فهي تلتصق بالاشخاص وتقاوم الضغوط والانفصال . ولهذا « لا يمكن التغلب على الآخرين دون اقذاعهم »

(١) درس معهد « علم الحرب » تطور الجبهات العدوانية هذه منذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٧٤ . في الكتاب الذي صدر منه بعنوان تحدي الحرب عام ١٩٧٨ .

ومن المعروف ان روبنسون^(١) احتفظ بعقليته وهو معزول عن العالم في جزيرة خالية .

وتهدف كل « عقلية » لان تكون « كلا » متماسكا ، وهي بناء منطقي تتداخل فيه الاجزاء بعضها ببعض ، ولا يمكن فصلها الا بالتقليد او الاكراه او التلقائية . هذا مع العلم ان الاختراعات والاكتشافات التي جاءت مناقضة للمعارف السائدة احدثت خلا في توازن العقلية وادت مع الزمن الى ايجاد عقلية جديدة .

البقاء والتداخل

على الرغم من وجود عقلية عامة ، يمكن ان نلاحظ ، بين مختلف المجموعات البشرية التي تنتمي لنفس الحضارة ، اختلافات عديدة موزعة بشكل غير متساو . لذا يجب التساؤل فيما اذا كان العنصر المميز لحضارة ما يتكون من « تقنياتها المتقدمة » ام من « تقنياتها وعقليتها » الاكثر انتشارا ؟ وبمعنى آخر : من هو الانسان الاكثر تمثيلا للحضارة ؟ اهو الفرد المتوسط ام النخبة ؟ . وهذا السؤال نفسه ينطرح ايضا في مجال « علم الجمال » والايديولوجيا ، والعلوم والتقنية . وقد طرح بالفعل مؤخرا بشكل ملموس ، عندما جرى النقاش حول « دور بيوت الثقافة » . وكانت هذه البيوت ، عندما اُسست ، مخصصة لجماهير الشعب ، ولكن الكثيرين اصبحوا يميلون لجعلها مخصصة للطليعة ، وللرسم التشكيلي ، والموسيقى الحديثة (ذات الاثنا عشر صوتا) والمسرح الطليعي^(٢) ، هذا على الرغم من ان هذه الاشكال الفنية لم تختبر بعد ولا تهم الا اقلية من الاختصاصيين او ممن لديهم بعض الامام بهذه الفنون .

ومن هنا تأتي خيبة الامل عندما نلاحظ فقدان حماس الجزء الاعظم

(١) روبنسون كروزويه : عنوان قصة للكاتب دانييل دوفو (١٧١٤ م) مستوحاة من مغامرات نجار امكوسي يدعى سيلكريك ، نجا من الفرق فوجد نفسه وحيدا فوق جزيرة خالية ، واستطاع ان يقضي فيها ٢٨ عاما وان يمارس حياة سعيدة قبل ان تنقله احدى السفن ويعود الى وطنه .
(٢) هذا المسرح امريكي الاصل يتطلب اشتراك الجمهور فعليا بالتمثيل وغايته اثارة احداث تؤدي الى خلق اثر فني مرعب .

من الجمهور الذي أريد تشقيفه ، بفتح المجال امامه للاطلاع على هذه المنتجات الطبيعية الحديثة ، الفامضة بالنسبة اليه .

ان ذلك نوع من الخلط والتمثل المغلوط للتقنيات العملية والصناعية التي تفرض نفسها بسرعة على الجميع بفعاليتها القابلة للقياس ، أما انقيم الجمالية والاخلاقية التي تعود للتقاليد فتلقى اجماعا واسعا ، ولا تتبدل في الراي العام ، الا ببطء شديد . فقد كان لا بد من قرون من التبشير وصلت الى حدود الاستشهاد ، لكي تنفوس في النفوس القيم المسيحية القائمة على التسامح والحرية ، وتشكل بذلك عقلية جديدة مناقضة لعقلية القرون الوسطى . وبالمقابل ، كانت عدة سنوات كافية لكي يعترف الجميع بتفوق تقنية الخطوط الحديدية على العربات التي تجرها الجياد والعربات الفاخرة والطناير التي تجرها الثيران .

وبمعنى آخر ، يبدو لنا انه لا بد من التمييز بين التقنيات من جهة والمعتقدات والقيم من جهة اخرى ، في مجال تصنيف وتقديم الحضارات . . فبالنسبة للتقنيات يرجع الفضل في احدث التحسينات العملية ، لنخبة من البحاثة والعلماء ، وهي تفرض نفسها وتنتشر بسرعة عظيمة ، غالبا ما تتم في عهد جيل واحد . اما في مجال « القيم » فان الامر على عكس ذلك تماما ، اذ لا بد من الاخذ بعين الاعتبار العقلية المتوسطة ومدى مقاومتها للتغيير ، والشئ الطبيعي ان تكون التغييرات في هذا المجال اكثر بطءا لانها تعتبر اساسا في الشؤون العاطفية والفكرية ، اما التقاليد والعادات الجمالية العميقة فتنتقل ببطء من جيل لآخر .

اما طرق المعيشة (او ما يسمى باللغة الدارجة - الموضة) فليست سوى استثناء ظاهريا وتقليدا سطحيا ، تختفي ، في اغلب الاحبان ، بنفس السرعة التي تظهر فيها ، وهي تتوقف على المواصلات ، ومن هنا تأتي سرعة انتشار احداها واختفاء الاخرى في ايامنا الحاضرة ، وذلك بفضل وسائل الاعلام وكثافة الاختلاط بين السكان .

فروع الحضارة

ان تفاوت سرعة تبدل مختلف الاجزاء المكونة لعقلياتنا ، توضح مدى التباين او التنافر الذي تتميز بها كل حضارة . فالاشياء الحديثة - المقلدة او المخترعة - تنتشر بسرعات متفاوتة في مختلف قطاعات الراي العام .

والحالة الاكثر غرابة هي النهضة في اوربا الغربية ، فحتى ذلك الوقت كان رجل الدين والنبيل والفلاح في هذه الانظمة الحضارية الثلاثة يعتنقون نفس العقيدة ، ومع « النهضة » اصبحت الثقافة واللفه الجديدة تتم خارج التفاهم الشعبي لانها بقيت حية بعد القرون الوسطى . وقد تكرر هذا الطلاق الى حد كبير حتى ايامنا الحاضرة . وكان لا بد من بذل جهود تعليمية جماهيرية هائلة لردم هذه الهوة ، وقد تم ذلك خلال القرن التاسع عشر بفضل الانقلابات الجذرية في الحربين العالميتين والتمازج الواسع بين السكان .

ان عملية بقاء الحضارات القديمة ، تشبه تنضيد الطبقات التي تتوضع فوق بعضها البعض خلال قرون عديدة . وعندما اعيد اكتشاف هذه الحضارات مؤخرا ، لوحظ انها متواجدة في الحضارات الحديثة تقريبا رغم سباتها الطويل . ويمكن للمزايا الحضارية الرئيسية ان تظهر من جديد في الازمات الصعبة ، والمعاناة النفسية والاجتماعية المولدة للرعب والقلق . وفي هذه الحالات يمكن ان نشاهد عودة ظهور ما يسميه العالم النفساني « يونغ » (١) ب : « النماذج التاريخية المثالية » .

وفي الدول العظمى الحديثة ، يمكن العثور على جميع انواع المجتمعات البعيدة عن « الحضارة الرسمية للدولة » ، وهي ترتبط من نواحي عديدة الى هذه او تلك من الحضارات القديمة . وكذلك الامر بالنسبة للعادات والذكريات الجماعية والعقليات والحالات النفسية ، التي ترجع كلها للنماذج المثالية القديمة . وتتفجر فجأة من الذاكرة تبعا للظروف .

(١) يونغ : عالم نفسي وطبيب سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦٢) ويعتبر احد مؤسسي علم التحليل النفسي .

العصور البشرية

من الامور المتفق عليها ، قبل الحضارات التاريخية ، التمييز بين « العصور » ، وهذا النوع من التمييز غامض جدا ولكنه يتلاءم مع اوضاع انسانية بعيدة جدا لا نعرف عنها الا الاشياء التي وصلتنا مؤخرا عن طريق بعض الآثار النادرة . وقد صنفت هذه العصور على اساس « التقنية المادية السائدة » كتقنية الادوات والاسلحة . فالعصور الحجرية ، تبدو لنا بأنها تتفق مع حياة بدائية جدا . ويستثنى من ذلك حضارة الازتيك والانكا اللتان كانتا تمثلان حضارات ذات مستوى رفيع في الادب والفن رغم استعمالهما لاسلحة وسكاكين من الحجر ، كما كانتا تعرفان المعادن الثمينة .

وتأتي بعد ذلك « العصور النيوليتية » (او عصور الحجر المصقول الاخيرة) وتمتاز بسيطرة الزراعة وتدجين الحيوانات ، يليها « عصور البرونز » و « عصور الحديد » .

وقد عمد بعض المؤرخين المعاصرين الى تصنيف الحضارات بالنسبة للطاقات التي كانوا يملكونها . ومن هؤلاء المؤرخين : السيد مامفورد . وفي رايه ان الطاقة الاولى والوحيدة التي عرفت بها البشرية لفترة طويلة من الزمن كانت « طاقة الجسم البشري » وهي التي كانت تستخدم « للجبر والعمل » كما كانت « القوة العسكرية الوحيدة » ايضا ، لان المقاتل (جندي المشاة الهوليت يوناني ، والفالانج المكدونني ، والليجيون الروماني) هو الممثل الاول في المعارك البرية ، بينما كانت السفينة التي تسيرها الرياح والمجاديف تهيمن في المعارك البحرية في البحر الابيض المتوسط .

وبعد طاقة الانسان العضلية ، جاءت « طاقة الحصان » (الفصل السابع ملحمة الحصان) .

وابتداء من العصر الوسيط وعصر النهضة اضاف الانسان الى هاتين الطائفتين المذكورتين ، طاقات جديدة استمدتها من « الهواء والماء » .

بعد ان ظهرت صور الحصان على الصخور ، على شكل طريدة فحسب ،

إذا به يظهر في بلاد الاناضول واشور ومصر مروضاً يستخدمه الانسان للركوب والجر . وهكذا ابتداء « عصر الحصان » الذي استمر حوالي ثلاثة الاف عام . ومن المحتمل ان تكون « الفروسية » احدى الوسائل الرئيسية التي انشئت بواسطتها الامبراطوريات الشرقية العظمى في عصور ما قبل التاريخ . وقد اعتاد الملوك الاشوريون والفرس والفراعنة ، تمثيل انفسهم وهم يعتلون عربانهم الحربية التي تجرها الجياد . أما أباطرة الرومان فيظهرون في النقوش والتماتيل وهم يركبون عربات تجرها اربعة خيول .

وكانت آخر فصل في تاريخ الفروسية المجيد الذي عرف معارك تاريخية فاصلة فمن ادرينوبل (١) الى وفتوحات جنكيزخان ومن معركة القيلو (٢) الى رايبخشهوفن (٣) ، كان هذا الفصل المأساوي في الحملة اليائسة التي شنّها الفرسان البولونيون عام ١٩٣٩ ضد دبابات البانزر الالمانية .

ان ظهور المحرك في بداية القرن التاسع عشر ، ضاعف بشكل اعجازي القوى البشرية والحيوانية ، وبينما لم تتغير قوة الحصان الا قليلا رغم كل ما أحدث من تحسينات وتجديدات في السرج والمقود والركاب طوال الاف السنين التي تم فيها ترويض الحصان وتدريبه ، الا ان المحرك شهد تحسينات كبيرة رائعة في فترة قصيرة من الزمن . كما حدثت تغييرات هامة في القوى المحركة ، فبعد ان استعمل البخار في البداية ، اخذ الانسان يستعمل البترول ثم الكهرباء وهو يستعمل الذرة في الايام الحاضرة كوقود للمحركات .

اضطراب الحضارات

لقد ترتب على هذا الوضع الجديد زلزلة في البنى السياسية ولا ثم البنى العقلية للحضارات القديمة الامريكية والاسيوية والافريقية .

(١) ادرينوبل ا هي مدينة ادوته التركية الحالية ، التي احتلها السلطان مراد الاول عام ١٣٦٠ م اعيدت لليونان عام ١٨٢٩ ، بموجب المعاهدة التي عقدها الاتراك مع قيصر روسيا ثم استعادها الاتراك بعد الحرب العالمية الاولى عام ١٩٢٣ .

(٢) القيلو : هي مدينة روسية حالياً تسمى . حدثت فيها معركة طاحنة بين نابليون بونابرت والروس البورسين في شباط عام ١٨٠٧ م . ولكنها لم تكن حاسمة .

(٣) رايبخشهوفن : بلدة على الرين الاسفل . حدثت فيها المعركة التي التزم فيها ماكماهون اما البروسيين في ٦ اب ١٨٧٠ وشتت المعركة بالانقضاء العظيم الذي قام به الفرسان الفرنسيين على القوات البروسية .

ففي القرن الخامس عشر بدأت تتهاوى حضارات الازتيك والانتكا فور ظهور القوات الاسبانية بقيادة كوريترو ودويزار في اراضي القارة الجديدة .

وفي الصين ، كما يقول احد المؤرخين ، لم يبق هناك انسان يدعى « ابن السماء » ولا دولة تدعى « امبراطورية الاوباش » (١) .

اما اليابان فقد انضمت الى مدرسة الغرب ، بعد زيارات التهديد التي قامت بها السفن الحربية الامريكية لموانئها ، واندفعت بنفس الوقت في صناعة المدرعات والتضخم السكاني (٢) .

ومع ذلك فان الامبراطوريات (غير الاوربية) التي سعت لتقليد الحضارة الغربية ، لم تفعل ذلك بمحض ارادتها ، ولكنها تخيات ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ او استعادة قوتها ومجدها القديمين .

وقد ارادت هذه الامبراطوريات جميعها ، باستثناء الشعوب التي قهرتها روما ، الاقتصار على اخذ العلم والتقنيات الغربية ، ونبد اسلوب معيشتها وافكارها الاخرى ، او بمعنى آخر تطبيق العلوم والتقنيات على عقليات ومؤسسات قديمة بالية حرصوا على الاحتفاظ بها بكل ثمن .

كانت الامبراطورية العثمانية اسبق من اليابان في محاولتها لتقليد الحضارة الغربية ، فقد اراد صغار ضباط الجيش ، الذين تربوا على الطريقة الغربية ، المضي بالتقليد الى ابعد مدى ممكن ، وانتهى بهم الامر الى حد قلب نظام الحكم القديم .

وحدث مثل هذا الامر في دول شرقية اخرى كالصين ومصر ، ولكن محاولاتها لم تقترن بنتائج عملية دائمة .

الفرائز العدوانية

يمكن العثور في قلب جميع الحضارات على « العقد العدوانية » التي

(١) امبراطورية الاوباش : المقصود بها امبراطورية قطاع الطرق التي عرفت في الصين في القرن ١٩ .

(٢) منذ القرون الوسطى حدد اباطرة اليابان عدد سكان الارخبيل بـ (٢٥) مليون نسمة وانه لا يجوز تجاوز هذا العدد في اية حال من الاحوال ، ولكن هذه السياسة اعملت في عام ١٨٦٨ م وبدا التزايد في عدد السكان يقفز قفزات ضخمة منذ ذلك التاريخ في اليابان .

تتكون من طفرات العنف الفردية والجماعية ، ومن خصائص هذه الطفرات أنها تطفئ عند ظهورها على جميع انواع التفكير العقلاني والفكر النقاد ، وتقضي على قدرة الانسان السليم التي يمكنه بواسطتها التحكم بالهزات ، وتقييم المخاطر بشكل صحيح ، وتترك وراءها شعورا وهميا « بالحصانة » يمكن ان نطلق عليه « عقدة أخيلا » .

وفي المجتمعات المنظمة تتميز الاحداث التي تنمي الروح العدوانية ، بالقدرة على ايقاظ « المركبات العدوانية الراقدة » في اللاشعور - اي ايقاظ الافعى النائمة كما يقول المثل الدارج - . ويترتب على هذا الوضع النفسي الجديد ، انبعاث المزايا المنحدرة من الحضارات البائدة ، التي كانت بمثابة الاساسات العميقة لعقليتنا .

ان التفكير العاطفي ، واستحواذ الخوف من الخطر (او ما يسمى بمركب ديموفليس) والاختفاء التي تتكاثر عادة في حالات الذعر ، كل ذلك يدفعنا للتفتيش عن « عدو مسؤول » نلقي عليه مسؤولية مخاوفنا وخطائنا .

وهكذا تطفئ على تفكيرنا بصورة لا شعورية جميع هذه الاستدلالات الخاطئة . وتنبعث من جديد عادات الطقوس الدينية والاضاحي التي تقدم للالهة لنيل شفاعتها او للتكفير عن الخطايا ، التي كانت مستعملة في المجتمعات القديمة البائدة .

ويذكر التاريخ ان مجلس الشيوخ الروماني (السينا) أمر باحياء طقسي قديم يرجع الى شعب الايتروسك^(١) قوامه « دفن عدد من العبيد وهم احياء » ، وكذلك في الفترة التي كان فيها جيش هانيبال (القرطاجي) يهدد العاصمة روما بالدمار ...

والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها ، هو اننا لا نعرف من الحضارات الا « الواجهة » التي تتلاءم الى حد ما مع « قمة الهرم المبتورة » او بمعنى آخر ما كان يتلاءم مع الطبقات العليا الحاكمة في معظم الحضارات .

(١) الايتروسك : شعب ظهر في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد في تومبكان (شمالي ايطاليا) ، وانشأ ملعا غنية ، ومدوا سلطاتهم حتى سهل اليو . ولكن روما استطاعت اخضاعهم في الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد .

وفيما عدا ذلك ، هناك اللاشعور والظلام والتشوش ، وما تبقى من ارث الحضارات السابقة مما يذكرنا بمجدها او شقائها ، وهي اشياء مستعدة للانبعاث من جديد لاسباب يسعى « علم الحرب » لكي يحدد : الوسط او البيئة والظروف التي يستحوذ فيها الخوف والعاطفة على الناس . ففي مثل هذه الاحظاظ تسود فيها اقصى واكثف انواع الخلط والاضطراب ، وتتفجر فيها العواطف الجماعية الهوجاء .

لذا فاننا نلاحظ في اوقات الحرب ، ظهور نوع من تسارع الذعر بالافكار والاعمال حيث يختلط فيها بشحنات غير متوقعة ، وغير متكافئة ، كل ما ورثناه من الحضارات البائدة .

اما اولئك الذين ارادوا تصنيف الحروب وفق الحضارات المختلفة ، فقد اقتصروا ، في الواقع ، على وصف التقنيات المتقدمة والاسلحة المتطورة والاختراعات الحديثة ، وغاب عن اذهانهم ان وراء هذه المنجزات المادية تكمن « مواقف الاجداد المتراكمة منذ العصر الحجري » والتي تبقى قابلة للانبعاث من جديد في المحن والازمات الكبرى .

ومن المعروف ان جميع المدارس العسكرية في العالم ، تدرس النماذج والنظريات الاستراتيجية منذ اقدم العصور حتى ايامنا الحاضرة . وفي ميدان السياسة الخارجية يرجع عادة الى الحروب القديمة والخطب التي القاها ثوسيديد^(١) ، والصفحات التي كتبها ماكيافللي^(٢) ، لانها لا تزال صالحة حتى اليوم بل هي مليئة بالعبر والدروس ، وتفوق بفائدتها كتب المؤلفين المعاصرين .

ولدراسة العلاقة العضوية - التي لا تنفصم - بين الحروب والحضارات لا بد من الرجوع الى الحضارات البعيدة بما في ذلك حضارات ما قبل التاريخ ، والصعود منها الى الحضارات الحديثة القائمة .

(١) ثوسيديد : مؤرخ يوناني ولد في اثينا عام ٢٩٥ قبل الميلاد وهو مؤلف « تاريخ الحرب البيلوبونيسية » وقد اشتهر بموضعيته . ويعتبر من اعمق المؤرخين القدماء .
(٢) ماكيافللي : رجل دولة ومؤرخ ايطالي ولد في فلورنسا (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ميلادية شغل عدة مناصب سياسية ودبلوماسية في حكومة فلورنسا . اعتزل العمل السياسي ولف كتابه المشهور « الامير » والذي يوحى بأن الغاية تبرر الوسيلة في ميدان السياسة .

الفصل الثالث

جولة عبر العصور والحضارات

الاجداد : ما قبل التاريخ القبلي

الاجداد الاوائل

يذكر المؤرخ الفرنسي جان بيري ، في كتابه عن « الحرب ونظوراتها » :
« ليس لدينا سوى القليل النادر عن الصراعات التي اصطدم فيها البشر
في العصور القديمة جدا . وما من شخص يمكنه وضع نماذج الهجرات
والاضطرابات والمكائد التي اشتبكت واختلطت فيها الاقوام والقبائل والمجموعات
البشرية خلال آلاف السنين ، في اماكن عديدة ومتباعدة » .
ويعتقد المؤرخ الالماني ستيفن في كتابه حول « الحرب وطبيعتها وصفاتها
عبر القرون » :

« ان الحرب تبدو للناظر كحالة طبيعية جدا وبدائية جدا . وكان بودنا ان
نتعرف على النزاعات القديمة كما وقعت بالفعل في الازمنة الموهلة في القدم ،

ولكننا - بكل اسف - لا نملك اية معطيات تسمح لنا بتكوين فكرة صحيحة عن هذه النزاعات . لذا لا بد ان نبحث عن الكائنات البدائية والحيوانات الاكثر تنظيما لكي نستخلص العناصر الاساسية التي يمكن ان تفسر لنا ردود الفعل عند اجدادنا الاوائل ومواقفهم وتصرفاتهم الحربية » .

ان الحيوانات الثديية الضخمة ، وحتى تلك التي تعيش كجماعات مثل السعادين ، او كقطعان مثل الثور الامريكي والوعول ، لا تقدم لنا مطلقا اية معطيات مفيدة عن تصرفات الحيوانات .

فاذا كانت خلال تنقلاتها وهجراتها تدمر او تقتل كل ما يعترضها من حواجز فليس لديها الا تلك القوة العاتية العمياء . والفريزة وحدها هي التي تدفع هذه الحيوانات للهجرة والتنقل ، غير انه لا يبدو ان لديها اي مخطط مسبق او اية سلطة تدير العمليات المتفق عليها .

وفي بعض الاحيان يمكن مشاهدة بعض الحالات التي تجري فيها معارك منعزلة بين الذكور الذين يتنافسون على الاناث او يدافعون عن مرعى ما ، ولكن هذه الحالات ايضا ليس فيها اي اثر للتفكير العسكري في ابسط صورته البدائية المتخلفة .

ومع ذلك يمكن ان يلاحظ عند بعض انواع الفئران ، خضوع لتنظيم ما ، يكاد يكون واضحا .

وهذا يقودنا للتفكير بان الحرب لا ترجع جذورها العميقة للجانب الحيواني لدى الانسان ، ولكنها تكمن في طبيعة الانسان نفسها ، وفي واقع كونه يعيش في مجتمعات عاقلة ومنظمة . كما ترجع بنفس الوقت الى ما ورثه عن اسلافه منذ الولادة وما اكتسبه خلال تاريخه الطويل .

الحشرات الاجتماعية

ان الحشرات الاجتماعية هي التي تقدم لنا الامثلة الواضحة والمعطيات الدقيقة حول سلوك « المحارب » في الكائنات الحية البدائية .

فالنمل مثلاً ، يعيش في مجتمعات منظمة ، وهو يعمل ويجمع الثروات لصالح الجماعة ، حسب قواعد تبدو ثابتة ومرسومة مسبقاً (مخططة) بشكل صارم . وعلى هذا الأساس نرى ان جماعة النمل لديها شيء ما يجب الدفاع عنه ضد مطامع الجوار . وهناك جماعة اخرى من النمل تسمى ، على عكس ذلك ، للاستيلاء على ثروات الآخرين المكسبة ، واسر العمال لاستخدامهم كعبيد .

ويلاحظ عند هذه الانواع من النمل (النمل الاشقر ، والنمل الاخضر الضارب الى الزرقة ، والنمل الاحمر القاني بلون الدم) انها تشن حملات منظمة ذات طابع عسكري واضح ، اما اعداؤها او بالاحرى فرائسها ، فهي النملة العاملة السوداء الرمادية .

والنمل المحارب يهاجم الحشرات المماثلة للاستيلاء على صفارها وتسخيرهم كعبيد . وتستخدم في هذه الاعمال العدوانية اسلوباً لا بد وان يكون خاضعاً لارادة قيادية ، لان هذه العمليات تتم بدكاء وتنسيق على الشكل التالي :

تسير ارتال النمل باتجاه واحد ، ثم تقوم بالهجوم دفعة واحدة على القلعة المقصودة (او عش النمل المعادي) ، ويجري بعد ذلك تدمير المدافعين المتمركزين في الداخل ، ونهب الاغذية المخزونة ، واسر صفار النمل .

وفي بعض الاحيان يستولي الرتل المهاجم على عش النمل المعادي ، ويبدو ذلك وكأن الهجوم يطبق وفق خطة عمليات موضوعة مسبقاً وتنفذ حرفياً .

وهذا المثال الذي اوردناه عن عالم « النمل » هو تجسيد لما يمكن ان تكون عليه الحروب ذات الاهداف الاقتصادية . ليس في عالم الحيوان فحسب ، بل وفي عالم الانسان البدائي ، وهو يعطي صورة عما يمكن ان تكون عليه تصرفات المحارب في المجتمعات الانسانية البدائية في عصور ما قبل التاريخ ، وهو يشكل بداية لتطور الحروب عبر العصور .

مساهمات العرافة (او علم خصائص الشعوب)

ان الملاحظات التي وضعها علماء الاجناس حول المجتمعات البشرية البدائية

جدا والتي يصادف بعضها في هذه الايام ، تلقي بعض الاضواء حول « حروب البدائيين » . فعادات هذه الجماعات البشرية – الموجودة في افريقيا واستراليا وغينيا الجديدة – تختلف تماما عن عادات المجتمعات البشرية الاخرى على الرغم من الحضارات المجاورة لها غيرت عندها بعض الشروط البدائية . ويؤكد العلماء ان هذه المجتمعات وجدت في حالة « انعدام الحرب » الامر الذي غير سلوكهم وعاداتهم .

وفي اواسط غينيا الجديدة يوجد جماعات قريبة جدا من الحياة البدائية ، حيث تفرض التقاليد والعادات على الفتيان الشباب ان يبرهنوا على كفاءاتهم كمحاربين وذلك يفزوا جماعة اخرى ويقتل احد افرادها ويحمل رأسه الى قبيلته كرمز لقوته ورجولته وقدرته على القتال .

وهذا التقليد يحافظ عليه من جيل الى جيل كفضيلة تضافي على صاحبها مجدا خاصا وكان هذا التقليد معروفا لدى شعب الفولوا عندما يخوضون حربا منظمة ضد اعدائهم ، اما هؤلاء الفينيون المتخلفون ، فيمارسون هذا التقليد افراديا وبشكل معزول لا علاقة له بالحرب المنظمة .

وفي المغرب العربي قام بعض العلماء الفرنسيين بدراسة قبائل الاطلسي في بداية فترة الانتداب الفرنسي ، ويمكن الاعتقاد ان « المحاربين البربر » كانوا انداك بعيدين تماما عن الحياة المشابهة لحياة البدائيين في عصور ما قبل التاريخ ، لذا لا يمكن استخلاص نتائج مقبولة من الملاحظات التي اتت بها هذه الدراسة الحديثة .

وتؤكد المعلومات الموضوعية ان « المزاج العدواني » لدى الاقزام الافارقة ضعيف جدا في هذه الايام ، بينما كان هناك محاربون قساة متوحشون يمكن مصادفتهم في مختلف انحاء القارة الافريقية في زمن بعيد جدا .

وفي جزر المحيط الهادي تأخذ الحرب « شكل عملية صيد بشري » ويعتبر الانسان طريدة مخصصة للتغذية ، زد على ذلك ان « الغالب » يمكن ان يستفيد من خدمات « الطريدة المفلوبة » التي يتغذى بها عند الحاجة .

وفي افريقيا وامريكا كانت هناك بين وقت وآخر غزوات خاصة يقوم بها
الداهوميون والازتيك ، للحصول على « الاضاحي » البشرية المخصصة لآلهتهم
الجشعة .

وهكذا نصل - في دراستنا - الى حد الاعتقاد ، ان اعظم شيء بالنسبة
لعدد كبير من الحضارات البدائية ، هو « الحرب ! » . فالشباب يربون من
اجلها ، وتنمى لديهم الافكار الراسخة بأنها « الاهتمام الرئيسي الامثل
للانسان » ، وغالبا ما كانت تعطى الصفة المقدسة للمحارب وفق تطبيقات
ومعتقدات واسعة الانتشار .

وكان الهنود الحمر في امريكا الشمالية يحملون عاطفة خاصة للحروب ،
وكانت قبائلهم تمارس القتال طيلة ايام السنة ، ويمكن التاكيد بانهم لو كانوا
احسن تسليحا لاستطاعوا اباداة البيض الذين غزوه من قارة اخرى ، وهم
مرتاحو الضمير ومرتاحين لسلامة وقوة عاداتهم الخاصة .

ملاحظات معروفة

اننا نجد عند المؤرخ اليوناني تيسديد معلومات قيمة حول « اليونانيين
القدماء البدائيين » ، اقتطفها من القصص الاسطورية ، وهي تعطينا فكرة عن
سلوكهم وتصرفاتهم . يقول المؤرخ :

« لم تكن ارض اليونان في القديم مستوطنة باستمرار ، بل كانت مسرحا
للهجرات . وكان السكان الجدد يهجرون الاراضي التي احتلوها دون مقاومة ،
تحت ضغط المهاجمين الاجانب . ومن جهة اخرى كان اليونانيون كبقية جيرانهم
من البرابرة ، يمارسون القرصنة في البحار ، بقيادة رجال افذاذ ، وفي البر ،
كانوا يشنون حملات للنهب والسلب ضد البلدان المجاورة » .

ويضيف المؤرخ : « وكانت طريقة الحياة ، في اليونان القديم ، مشابهة
تماما لحياة البرابرة » وكانت الحروب تجري بين مدن متجاورة ذات حدود
مشتركة . ولم يذهب اليونان القدماء مطلقا الى بلاد بعيدة ليشنوا عليها الحرب

او ليخضعوا شعوبها . وفي معظم الحالات كانت الحروب تؤدي الى احتلال المدن المعزولة والمجاورة لبعضها البعض .

واليونانيون لا يجتمعون على شكل ائتلافات متحالفة ومتكافئة بالحقوق والواجبات ، ولم يكونوا يجتمعون تحت قيادة المدن الاكثر قوة .

ان هذا السلوك الذي يصفه المؤرخ تيسديد يشبه الى حد بعيد سلوك قبائل جزر المحيط الهادي التي كانت تتقاتل من جزيرة الى اخرى في حروب قبلية صغيرة ، تخلو من المفامرات الجماعية الكبرى .

لوحة بالعادات الحربية للقبائل السامية والاوربية

كان العبرانيون اتباع « موسى » مسالين على صورة قائدهم . ولكن عاداتهم تبدلت في عهد القائد « يوشع » الذي كان يتصرف كفاتح شرس .

وهكذا يروي التاريخ ان سكان مدينة « أريحا » ابعدوا على يد جيش يوشع ، ولم ينج منهم الا القليل الذين استطاعوا الفرار واللجوء الى الجبال متخلين عن ثرواتهم وارضيتهم ، التي وزعت على القبائل الاسرائيلية الاثني عشر .

وعندما شعرت هذه القبائل بتهديد الفلسطينيين اختارت قادة وملوكا لها مثل شاؤول وداود . وفيما بعد كانت القبائل الاسرائيلية تقاتل بقيادة « الحكماء » للمحافظة على تراثها .

وفي شبه الجزيرة العربية حافظت القبائل العربية على النظام القبلي الذي بقي على حاله في القرون الاولى من عصرنا . وتتكون القبائل العربية من الاسر التي ترتبط برابطة الدم والمسؤولية الجماعية والحق وحتى واجب الثأر تثير النزاعات الدموية بين القبائل . وحيانا تنشب الحرب بين قبيلة واخرى بدافع الرغبة بالثأر ، ولكنها غالبا ما تكون لاسباب وضرورات حيوية : كالحاجة الفدائية ، او المرعى ، او بسبب الزوجات ، او العبيد .

والحرب عند القبائل العربية الرحالة ، تكون على شكل هجمات عنيفة مفاجئة تتلوها المذابح والنهب ، وتجري هذه الغزوات باعداد محدودة من المحاربين .

وقد جرت العادة ، توقف مثل هذه الحروب الصغيرة في فترات ارتحال القبائل والبدوي محارب بالفطرة وهو معتاد على الحياة القاسية المجدبة ويتحمل التقشف وشظف العيش .

وقد اعطى الدين الاسلامي لعرب الجزيرة شكلا جديدا للحروب ، كما زودهم بادراك جديد ، عندما اقترح عليهم تحقيق « هدف سام عظيم » ، فاذا بالقبائل المتناحرة تنصاع لقيادة واحدة وتنذر نفسها لهذا الهدف بحماس صوفي فريد .

وفي اوربا الغربية اظهر النورمان والجرمان طائعتهم الحربية . فقد قام النورمان بفزوات بعيدة عندما سهلت تقنيات الملاحة وفامراتهم . وكانت مراكب « الفايكنخ » الضخمة تسير بالمجاديف والاشرعة ، وكانت اقدر على الملاحة في اعالي البحار من الزوارق الخفيفة السابقة .

يضاف الى ذلك ان النورماندين حصلوا على تفوقهم باستخدام الاسلحة التي صنعوها من الحديد السويدي . وهكذا رايناهم يركبون البحر بشجاعة ويفزون سواحل الشعوب الاوربية الآمنة التي لم تعتد مثلهم على الصراع .

وكان « الجرمان » بدورهم ، يعيشون مجتمعين على شكل قبائل رحالة مستقلة ليس لها اي ارتباط بالارض ، كما لم يكن بينها وحدة سياسية . وكان المجتمع الجرمني يحافظ على النظام الابوي ، القائم على العصبية العائلية . وكانت الاسرة منظمة بشكل صارم يوجب على افرادها الطاعة والتعاون المتبادل .

اما القبيلة الجرمانية ، فكانت تخضع لسلطة مجلس من القادة ، الذين يجري اختيارهم من قبل الجمعية القبلية . ويختص مجلس القادة ، باصدار الاحكام وتعيين الشباب المحاربين . ومن واجب هؤلاء المحاربين القيام بفارات النهب والسلب والقتال دفاعا عن القبيلة اثناء ترحالها . وتتحدث الاساطير الجرمانية ، عن الاسلحة التي كان يستخدمها المحاربون فتصفها بأنها كانت تتفوق على اسلحة بقية الشعوب ، وقد اعطتهم محسنات جعلتهم في طليعة المحاربين الاوربيين القدماء .

الهجرات

ان المصدر الوحيد للمعلومات عن انسان ما قبل التاريخ هو الاعمال التي انجزها علماء الآثار لان الوثائق المكتوبة لم تكن متوفرة في تلك العصور .

وقد لاحظ هؤلاء العلماء ان السكان تبدلوا اكثر من مرة في بعض المناطق وان حضارة اختفت لتحل محلها حضارة اخرى دون ان تعرف الاسباب بشكل اكيد ودقيق . ومن المحتمل ان يكون ذلك بسبب الانسجام الاجتماعي والتفوق بالاسلحة او لاسباب وراثية بسيطة اصبحت بعض القبائل والاقوام اقوى من غيرها ففرضت نفسها على جيرانها وتغلغلت فيهم تدريجيا خلال فترات طويلة ، او حلت محل السكان الاصليين .

وهكذا انتشرت قبائل « السلت » ، التي كانت تعيش في اواسط اوربا ، في بلاد الفول والجزر البريطانية وشمالى ايطاليا ، في منتصف « عصر الحديد » الثانى او اواسط الالف الاخيرة قبل الميلاد .

وقد استطاعت هذه الشعوب فيما بعد ازالة السكان السابقين او ازالة حضارتهم على الاقل ، وجعلت هذا الجزء من اوربا الغربية سلتيا بكامله ، دون ان تلاقي اية مقاومة ...

وفي الهند وقعت احداث مشابهة دون ان تكون هناك حروب بالمعنى الصحيح ، فقد لوحظ تبدل السكان عندما قدمت قبائل الآريا من الهضاب الواقعة شمالى الهند واكتسحت البلاد وفرضت عرقها وحضارتها عليها .

وفيما بعد طرد الاتراك سكان الاناضول البيزنطيين باتجاه المناطق الساحلية واحتلوا كامل المناطق الداخلية من شبه الجزيرة . . وبعد عدة قرون استطاعوا الاندفاع نحو البحر الاسود شمالا والبحر الابيض المتوسط غربا واكملوا احتلال جميع الاراضي وحلوا محل السكان المسيحيين اليونان (وانشأوا في بداية القرن العشرين الجمهورية التركية الحالية) .

ظواهر مماثلة حدثت في التاريخ الحديث

وفي القارة الافريقية ، طردت قبائل البوشيمان من موطنها الاول . ونحن

نعرف الآن الرسوم والنقوش التي خطها أجدادهم في المقر والتي تشهد على حضارة متقدمة عن حضارة الجماعات التي كانت تعيش على الصيد وقطف الثمار . لقد طرد شعب البوشيمان الى المناطق المعزولة من صحراء كالا هاري (١) من قبل قبائل البانتو (٢) الغزاة . وفي الزمن الحديث قدم الاوروبيون الى القارة السوداء وأكملوا عملية التدمير لهذا الشعب ، أما الشراذم المتبقية من صيادي شعب البوشيمان فلا تزال تنتقل تائهة في الصحراء وتعاني اشد انواع الفقر والشقاء ، وتعتمد في غذائها على الثمار والاعشاب البرية والتهام الجراد وديدان الاخشاب . ويبدو ان هذا الشعب الباسل في طريقه الى الزوال بسبب التدهور الشامل وعمليات الابادة غير المباشرة التي تشن ضده بمنتهى الفعالية والشراسة حتى ايامنا هذه (١) .

الانسان الطريدة

من المرجح ان الانسان البدائي الاول ، كان يقتات من الثمار والاعشاب وصيد الطرائد الصغيرة والكبيرة . ويبدو انه اقدم في بعض الظروف على اصطياد امثاله من بني البشر واستخدمهم كمادة غذائية كبقية الطرائد من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات . ولم يلبث ان استخدم الاضاحي البشرية في طقوسه الدينية لارضاء الالهة او اتقاء شرور الطبيعة العاتية .

ولعل في هذا السلوك ما يدل على ان الاقتصاد البدائي الذي لم يكن يتطلب الايدي العاملة ، وفي مثل هذا الوضع يصبح « الاسير الحي » عديم الفائدة وباهظ التكاليف ، ومن الافضل الاستفادة من لحمه في الغذاء .

(١) صحراء كالا هاري : تقع في افريقيا الجنوبية بين نهر الزامبيز ونهر الاورانج . وهي عبارة من سهل مرتفع رملي تتخللها بعض المستنقعات المالحة في الشمال وتمتد فوق معظم اراضي بوشوانا .
(٢) قبائل البانتو : مجموعة قبائل افريقية تقطن جنوب خط الاستواء في افريقيا الجنوبية .

(١) البوشيمان : شعب رحال يعيش في صحراء كالا هاري . وهو من اقدم شعوب افريقيا الجنوبية ويعتبرون من الاقزام لان قامتهم لا تزيد عن ١.٥٢ م ، وبشرتهم تميل الى الاصفرار وجبهة عريضة مربعة ، وجمجمة طويلة ، ويتميزون باحدياب في عمودهم الفقري ويتراوح تعدادهم الحالي بين ٦٥٠٠ الى ٧٠٠٠ نسمة . ويعانون من اسوأ انواع الاضطهاد العنصري من قبل الحكومة العنصرية في جنوب افريقيا . (العرب) .

ومن المحتمل ايضا « ان اشكال الحرب الاولى كانت عبارة عن عمليات صيد يقوم بها الانسان البدائي ضد اخيه الانسان ! » .

ومن العادات التي كانت مألوفة عند معظم الشعوب القديمة ، الاحتفاظ بنساء واطفال القبائل المغلوبة (والشعوب) وتسخير الرجال الاصحاء المسالمين في الاعمال الشاقة (وهذه العادة تدل على مرحلة اجتماعية متطورة واقتصاد يتطلب اليد العاملة كالزراعة ...) .

وفي بلاد ما بين النهرين كانت العبودية تحتل مكانا هاما في الزراعة والاعمال الحرفية . وهناك الكثير من الدلائل التي تشير الى انه في المجتمعات التي لا قيمة فيها للوجود البشري ، كان العبيد يعاملون معاملة وحشية لا اثر فيها للشعور الانساني والشفقة . ففي المجتمع الاشوري مثلا كان الاحرار ينظرون للعبيد نظرتهم للحيوانات ، ويحق للسادة تأجير عبيدهم .

وقد راقب اوائل المكتشفون في افريقيا الشروط المعاشية للعبيد الافريقين في بلادهم الاصلية ، فوجدوا ان الزوج الفزاة يهاجمون القوى الساحلية لاصطياد العبيد ، وحيانا يتوغلون الى الداخل عندما يندر وجود « الطرائد البشرية » . وكانت بعض القبائل الافريقية تمارس مهنة « صيد العبيد » لاستخدامها الخاص ، او لبيعهم الى الاجانب .

وهكذا وجد الاوروبيون البيض سهولة في ممارسة هذه المهنة المعروفة لدى الافارقة منذ قرون ، وطوروها واعطوها ابعادا هائلة تتناسب مع حاجتهم الماسة للايدي العاملة ، واصبحت تجارة الرقيق تدر ارباحا خيالية (١) .

ومن الجدير بالذكر ان تجارة الرقيق دمرت ثقافات الجماعات الافريقية والقوميات المجاورة ، حيث دخلت في صراعات دموية رهيبة وكانت « الصفة الانسانية » تحرم على القبائل التي تنتمي للقوميات الاخرى .

(١) تذكرنا تجارة الرقيق (او التجارة بالطاقة البشرية) بأرباح شركات البترول العالية التي تحقق ارباحا طائلة من (تجارة الطاقة النفطية) .

ومن الوقائع الثابتة ، ان بعض رؤساء القبائل لم يترددوا من بيع رجال قبيلتهم ، وخلقوا بذلك حالات أدت الى التفكك الاجتماعي وهدم الروابط المتينة التي أنشأها الاسلاف .

ولعل في مأساة « الطفل يوسف » الذي باعه أخوته لاحدى القوافل (لقاء ثمن بخس دراهم معدودات) ، ما يدل على ان القرابة لم تكن كافية عندما تتدخل اعتبارات اخرى .

وفي روما ، حدد القانون الروماني بدقة حقوق المالكين « الاسياد » على عبيدهم . ومما كتبه السيد كاركوبينو في هذا المجال : « يتميز الرجال الاحرار بانفصالهم التام وتفوق اصولهم عن جمهور العبيد ، الذين يعتبرون كالماشية بوجوه بشرية ، فلا حقوق لهم ولا ضمانات ولا شخصية اعتبارية ، وهم يخضعون كالقطيع لطاعة السيد المالك ، مثلهم في ذلك كمثل الاشياء والحيوانات التي لا علاقة لها بالبشر » .

وكان لا بد من الانتظار حتى القرن الثاني الميلادي ، لكي يصدر اول تشريع متسامح يخفف القيود عن العبيد ويضع الاسس التي تسهل تحريرهم . وهكذا كانت « الطرائد البشرية » تحتل مكانا بارزا كمصدر للطاقة رخيصة الثمن تسببت بنشوب الحروب الكلاسيكية في العصور القديمة . وقد استمرت مطاردة « العبيد الافارقة » حتى القرن التاسع عشر ، وكانت استمرارا لعادة قديمة جدا نشأت مع فجر الحضارة .

ومن الجدير بالذكر ان هناك بعض المساعي التي بذلت في بعض الحضارات كانت تهدف لحماية الفرد من التطرف وانفجار العنف . فاتخذت الجرائم والجنح كمعايير لتحديد العقوبات حسب اهمية الجنحة او الجريمة من جهة ووضع الشخص الاجتماعي الذي كان موضوعا للجريمة من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس اعتبرت جريمة قتل العبد او تشويهه اقل شدة من قتل او تشويه الرجل الحر . وللحد من عمليات الثأر وفرض النظام الذي يرضي الالهة تصورت قبائل الجرمان وبعض الشعوب البدائية الاخرى فرض فدية

مناسبة يدفعها مرتكب الجرم للضحية او لعائلته . وتناسب هذه الفدية (او ما يسمى بالدية) مع اهمية الجرم ومرتبة المجنى عليه الاجتماعية . وجرت العادة أن يساهم جميع الاعضاء في أداء الدية او ثمن الدم وفقا للقوانين الجنائية انذاك .

وهكذا نجد ان من بين واجبات القبيلة التدخل لصالح افرادها ، لكي تؤمن لهم بعض الحماية . ولكن هذه الحماية لم تكن كافية بسبب خشونة العيش وعنف العادات القبلية .

وقد ساعد استمرار النظام القبلي في افريقيا السوداء على استخلاص بعض الملاحظات الهامة ، فتبين بالمقارنة ان التنظيمات الاجتماعية ، والعلاقات العائلية ، والزعامة ، والدول ، بقيت على حالها تقريبا خلال آلاف السنين وحتى زمن الاستعمار الاوربي .

ويمكن ان نستثني من هذه القاعدة مملكتا مالي وداهومي اللتان وصلتا الى درجة متقدمة من الحضارة واصبح لهما اشعاعا واسعا . وكان لكل من هاتين الدولتين جيشا نظاميا يقوم على نظام التطوع المؤقت للمحاربين الذي يشبه نظام فرسان القرون الوسطى في اوربا . وكان المحاربون يرتدون دروع الزرد والخوذ المعدنية . . ووصلت هذه الجيوش الى درجة عالية في عمليات الحصار الطويل : ومن الامثلة البارزة على ذلك حصار مدينة جينية^(١) الذي استمر سبع سنوات .

وفي مملكة بينان كان على رأس الحضارة ملك مقدس وطاقية حقيقي ، يتمتع بحقوق الهية مطلقة ، وكان الى جانبه مجالس سرية سياسية - دينية . وفي مملكة داهومي التي اشتهرت بمقاومتها الباسلة للتغلغل الفرنسي ، كان الجيش على درجة عالية من التنظيم منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد امتاز بشكل خاص بلوائه المشهور الذي يدعى « لواء الامازون » الذي كان يخوض المعارك ضد الممالك المجاورة وفق قواعد تكتيكية دقيقة جدا .

(١) مدينة جينية : احدى مدن جمهورية مالي بالقرب من الحدود مع ساحل العاج .

وفي منطقة البحيرات الكبرى الافريقية^(١) كانت الانظمة تقوم على سلطة زعماء القبائل ونظام الرق . . وقد اشتهرت المجتمعات في هذه المنطقة بشراستها وشففها بالحروب التي تعتبرها « لحظات عامرة وكثيفة في حياة الانسان وظاهرة تأسيسية تدخل في التنظيم السياسي والاقتصادي » .

وفي الهند الصينية ، كان المحاربون في شعوب اللاووس يقومون بحملات سلب ونهب تعتمد على الوجدان الجماعي وقيمة الفرد ومباهته الشخصية ، وهي الصفات الاساسية التي يجب ان تتوفر في القادة المحاربين الذين يتم تعيينهم بالانتخاب من قبل المحاربين انفسهم .

وقد ترتب على هذا التناوب الدائم بين السلم والحرب ، واستمرار الغزوات والنزاعات وتجارة الرق ، امتزاج بين القبائل والشعوب . بل لقد نتج عن آفة تجارة الرق انتقال سكان بعض المناطق بكاملهم . ويروي المكتشفون الذين تجولوا في القارة الافريقية حوالي عام ١٨٧٠ م ان هناك قبائل اختفت تماما في عام ١٩٠٠ ، كما تشردت قبائل اخرى .

وفي نهاية القرن التاسع عشر استطاع مفامر مشهور يدعى رباح^(٢) الاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي في وسط القارة الافريقية وابدأ مئات الآلاف من السكان المحليين قبل ان يزيله الفتح الفرنسي .

القوميات الحديثة والحروب القبلية

كان من نتائج اجتماع القبائل والشعوب خلال قرون نشوء الامم ومن ثم قامت الدول والممالك والامبراطوريات التي اختزنت في ذاكرتها احداث ومجابهات اسلافها القدماء .

(١) اهم واكبر هذه البحيرات هي بحيرة فيكتوريا التي تقاسمها كل من اوغندا وتنزانيا ، وبحيرة رودلف في كينيا وبحيرة ننجاتيكا على الحدود التنزانية الكونغولية (الاطلس اونيفرسال) .
(٢) المدعو رباح مسلم واكثر الظن انه عربي من شمالي افريقيا اسس امبراطورية واسعة امتدت من بحر الفزال الى تشاد بين عام ١٨٩٢ - ١٩٠٠ حيث سقطت على يد الاستعمار الفرنسي وكان الفرنسيون يسمونها امبراطورية الرق .

ومن هنا نجد ان الاحاديث تروى عند جميع الامم ، عن الاعداء التقليديين ، حتى ولو لم يكونوا دائما نفس الاطراف . والجدير بالذكر في هذا المجال . . ان المشاكل الاقتصادية لعبت دورا هاما في الخصومات وكانت في معظم الاحيان تستغل العداوات التقليدية القديمة .

ومن المعروف ان حرب ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا كانت تحمل بشكل او بآخر طابع انبعاث الصراع القبلي القديم ، اذ لم يكن لهذه الحرب اي سبب اقتصادي ، ولم يكن ينقص سكان البلدين المجالات الحيوية الضرورية . وكانت مبررات الحرب هي مسألة وراثة العرش الاسباني ، الذي سبق ان تمت تسويته قبل نشوب هذه الحرب . ولكن العداوة بين الشعبين الفرنسي والالماني التي يرجع تاريخها لعدة قرون خلت ، بقيت على اشدها ، ودفعت الطرفين لنشوب هذا الارث القديم والدخول في صراع مسلح عنيف .

وفي اغلب الحالات ، كان مصدر النزاعات الدموية التي لا تعرف الرحمة ، يعود للاختلاف في بنية الحضارات المتجاورة . فمنذ فجر العصر الحجري الاول، كانت الجماعات الرحالة تنازع سكان الحواضر (المدن والقرى) على الثروات والاراضي . وكانت الصدامات بينهما تأخذ في البداية شكل غارات متفاوتة في حجمها وقوتها ولم تكن دائما عنيفة . ولم تكن الغلبة في مثل هذه المنازعات من نصيب طرف واحد بالذات فاحيانا كانت القبائل الرحالة تطفئ على السكان المتحضرين ، واحيانا اخرى تكون الغلبة فيها لسكان المدن والحواضر ، وذلك حسب درجة تطور الاسلحة ومستوى ونوع تنظيم القوات ومدى التصميم على المقاومة .

وقد انتهى هذا التناوب بالانتصارات ، مع ظهور الاسلحة المتطورة ، عندما اصبح سكان الحواضر يملكون وسائل صناعية اكثر اهمية واشد فعالية ، فكان لهم التفوق على البدو (القبائل الرحل) .

وفي جميع الاحوال ، كان للقبائل من الطرفين « آلهتها » التي تتدخل في نزاعاتها . وتميزت العصور القديمة بوضع « الحروب » تحت اسمى شعار يعبر عن حضارتها ، اي تحت شعار آلهتها .

الفصل الرابع

- ٤ -

حروب الآلهة

تجمع الاساطير والروايات القديمة ، على ان حروب الآلهة « كانت تجري على الارض قبل ظهور الانسان ، في العصور التي كانت فيها الفوضى تطفئ على كوكب الارض » .

وتشبه هذه الاساطير ، الحروب ، بالصراعات القبلية القديمة ، اذ نجد فيها كائنات واعراق مختلفة تقف في مواجهة بعضها لتتصارع حتى الموت .

فكانت سلالة الالهة ذات الجمال الجسماني الرائع ، تقطن في منازل جميلة فوق الجبال الشامخة المضيئة التي تخبئ الالباب ، اما سلالة الشياطين كالتنين الجبار والعمالقة الاسطوريين والمشوهين المخيفين ، فتختبئ في باطن الارض « امهم الرؤوم » .

علم الاساطير (او الميثولوجيا اليونانية)

تروي الاساطير اليونانية ان « حربا أهلية » نشبت فجأة بين أعضاء أعظم أسرة الهية ، الا وهي أسرة ملك الالهة : اورانوس . فقد ثار عليه ابنه كرونوس ، وخلعه عن العرش ، بعد ان مثل به وشوهه بشكل وحشي لكيلا يلد من جديد آلهة غيره ، ثم القاه في العلم .

ولكي لا يلاقي الاله الاعظم الجديد كرونوس نفس مصر أبيه على يد أحد
أبنائه ، عمد الى التهامهم فور ولادتهم . ولكن زوجته « الالهة رهايا » استطاعت
اخفاء أحد أبنائها ويدعى « زوس » ، وذلك بأن أطعمت زوجها حجرا مقلعا
بالقماش بدلا من طفلها . وهكذا نجا « الاله زوس » وترعرع في أماكن سرية ،
وعندما اشتد ساعده وعظمت قوته ، هاجم والده « الاله كرونوس » وخلعه
عن العرش ، وحرر أشقائه من معدة أبيه واستقر فوق قمة جبل الاولمب (في
اليونان) .

وبالرغم من هذا الانتصار العظيم ، فإن النزاعات بقيت على أشدها . ذلك
أن الاله كرونوس استعان بسلالة التنين الرهيب ، التي حررها الاله زوس ليريح
الأرض من فتن وثورات هؤلاء العمالقة الأشرار . غير أن هؤلاء العمالقة الشياطين
لم يخلدوا الى السكينة ، بل بادروا فور تحريرهم بالهجوم على « مقر الالهة »
وقذفوه بالصخور وجعلوها اكواما وكدسوا الجبال فوق الجبال ، ووضعوا
جبل بيلون فوق جبل أوساد^(١) ليصعدوا الى السماء . ولكن الاله زوس
حشد ضدهم ، عمالقة مشوهون ينتمون الى سلالة شيطانية أخرى ، وهم عبارة
عن كائنات عملاقة لكل منها مئة ذراع وخمسين رأسا . وطلب من العمالق
الاعور « سيكلوب » بأن يزوده بالصاعقة التي صنعها في قلب الأرض .

وهكذا احتدم صراع رهيب لا رحمة فيه بين التينان والعمالقة ، وكانت
القذائف التي يستخدمونها في حربهم تتساقط في البحر ، فتشكل سلاسل من
الجزر - وبذلك تكونت الجزر العديدة التي تحيط بشبه الجزيرة اليونانية - .
واستمر الصراع سجالا بين الطرفين الى تدخل فجأة الاله زوس في المعركة :
فأشرع الصاعقة التي صنعها العمالق سيكلوب ، وشارك أشقاؤه في القتال ،
وانتهت المعركة بعد ذلك بسرعة خاطفة بالانتصار الشامل للالهة . وتم سحق
أسرة التنين الأسطوريين ودفنهم تحت الصخور والجبال التي كان يقذفها
العمالقة ذوات المائة ذراع (جنود الاله زوس) .

(١) بيلون وأوسا ، جبلان متجاوران في منطقة تيساليا في اليونان يبلغ ارتفاع بيلون ١٦٥١ م ،
وتقول الأساطير أن العمالقة عندما ثاروا ضد الاله زوس وضعوها فوق بعضهما لكي يصعدوا الى
السماء .

وعندما استتب الامر للاله المنتصر زوس ، اعتلى على العرش ليهيمن على الالهة كلها وخيم السلام على الارض مما اتاح للبشر فرصة الظهور .

روايات الهند الاسطورية

من الملفت للنظر ان الملاحم الشعرية الهندية تروي هي ايضا احداث الحروب القبلية في الهند . ومن اشهر هذه القصائد الملحمية : الريغ فيدا والباغها فاتا بورانا .

وتقول هذه الملاحم : ان الاله « اندرا » كان يمتلك الصاعقة ، ولكنه يختلف عن « الاله زوس اليوناني » بأنه هو نفسه بطل الوظيفة الحربية . وتصفه الرواية الاسطورية بأنه : رجل فظ خشن عظيم القامة ، مولع بالانتصارات الحربية ، وقادر على القيام بأعظم الاعمال الباهرة .

ويعكس هذا « الاله » شعبا عدوانيا ، يختلف تمام الاختلاف عن شعب الهند الحالي ، ولكنه بدون شك صورة صادقة عن الشعب القديم الذي كان يقطن في الهند عندما وضعت هذه القصائد .

وتحكي ملحمة الـ « ريفا فيدا » مآثر الاله اندرا ، وكيف كان يهاجم المدن المحصنة وكيف يقاتل في ساحات المعارك ، فتقول : وهكذا يضرب الاله اندرا – الذي لا يغلب – يضرب اعداءه حاملا في يديه الصاعقة المميتة ضد الشيطان « فيترا » ، وكرام للقوس يمتطي اندرا العربة التي يجرها عداوان قطرتها الصلاة خصيصا اكراما للاله العظيم .

واندرا – كما تصفه الاساطير الهندية – هو الزعيم القائد لسلالة الالهة والى جانبه العواصف والرياح . اما اعداؤه فينتمون الى جنس آخر ، وقبيلة اخرى ، مؤلفة من شياطين فيترا .

اما الرياح ، فهي المحاربون الاشداء الذين يمتطون العربات .

« أيتها الالهة ما روت ، ان جيشك ينقض والنشوة تفرغ نفوس افراده ، انهم يمتطون العربات التي تجرها الوعول السود ، وتزدان مقدماتها باللون الاحمر القاني » .

وفي الملحمة الشعرية المسماة الباغا فابورنا تقدم قبيلة دوفاس المحاربين
للالة اندرا ، وهو الذي يدير العمليات متمطيا الفيل ايريفاتا . اما جيش الاعداء
فهم من قبيلة آزوراس ويقوده الشيطان فيترا :

« عندما نشب الصراع الرهيب بين ديفاس وآزوراس » . ذكرت جميع
القبائل التي اشتركت فيه ، ووصفت الاسلحة التي استخدمها المحاربون بكل
دقة : الهراوات ، والقضبان الحديدية ، والسهام ، والرماح ، والخناجر .
وكان هناك ايضا اسلحة متطورة ، شديدة الخطورة : كالاسلحة الملتهبة ،
والقذائف الممينة التي تطلق على قطعات الاله اندرا من القوة الشيطانية .
« ولكنها – اي الاسلحة الشيطانية – لم تصب الكتائب التي تحيط باندرا ،
لان الالهة كانت توقفها بيدها السريعة » .

وهكذا كانت تشتبك في هذه الحروب قبيلتان متخاصمتان احدهما
قبيلة الالهة ، والاخرى قبيلة الشياطين .

وفي اساطير هندية اخرى ، نرى ان البطل الرئيسي فيها يدعى راما ،
وهو ينحدر من اسرة الشمس .

وتقول الرواية الاسطورية ان الشيطان رافانا الذي ينحدر من اسرة القمر ،
يقوم باختطاف زوجة راما ، ولكي يسترجع هذا الاخير زوجته المخطوفة يطلب
العون من السعادين . . وهكذا تقع الحرب بين قبائل من اصول مختلفة كما
كان يتصور الانسان في العصور القديمة .

الحروب المقدسة في مجمع الالهة الجرمانية

تتميز الالهة في علم الاساطير الجرمانية بالقسوة والشفف بالحروب وتختلف
عن الالهة الحرب اليونانية المستنيرة .

فالملك الجرمانى فوتان ، مقاتل فظ ، يزج نفسه في المعارك بشراسة .
اما الاله الحرب ثور ، فهو السيد الذي يستحوذ على اعجاب الشبيبة الجرمانية
المحاربة ويعتبر مثلها الاعلى .

وفي الاساطير الجرمانية ، نجد أجناسا مختلفة ايضا تشترك في حروب الالهة : كالعمالقة الذين يقومون بالاعمال الخيالية الباهرة ، والاقزام المهرة الذين يتقنون صناعة الاسلحة بأنواعها العجيبة في باطن الارض .

وهناك أنصار البطل سيففريد^(١) وأنصار البطل سيقموند^(٢) من المحاربين الأشداء الذين يعيشون (ويقاتلون) على ضفاف نهر الرين حيث تكثر الفتيات الحسان .

ومن الجدير بالذكر ان المحاربين الجرمان ينتظروهم مصر يحسدون عليه بعد موتهم في ساحات المعارك ، حيث يدعون للاقامة في جنة الاله واتون التي يطلق عليها اسم « والهالا » . وفي هذه الجنة تتواصل المعارك والصراعات لتأمين السعادة التي تتلاءم مع رغبات وميول المحاربين ، وتتخلل هذه المعارك الحفلات والموائد الفخمة التي تشتهر بأطيب انواع الاسماك والمشروبات الروحية ، مما يضمن لهؤلاء الأبطال (انصاف الالهة) المتعة والسعادة المستمرة^(٣) .

مميزات حروب الالهة

كانت الخصومات بين الالهة اليونانية ، والالهة في الهند ، في اغلب الاحيان ترتدي طابع النزاعات بين الاسر المالكة او الاقطاعية . فالاله زوس ، يحل محل والده ويفرض سيطرته على اشقائه . والاله السيد اندرا (الهندي) يسحق الشيطان فيترا .

وفي ظل هذه الالهة تشتبك الكائنات العجيبة في معارك دموية طاحنة .

ومنذ فجر العصور الاولى عندما احتل الانسان مكانه تحت الشمس تحول الصراع بين الالهة الى صراع بين البشر انفسهم .

(١) سيففريد : بطل من ابطال الاساطير الجرمانية ، تغنى الشعراء ببطولاته ووضع الموسيقار فاغنر أروع اعماله الموسيقية الخالدة .

(٢) سيقموند : بطل آخر من ابطال الاساطير الجرمانية .

(٣) هناك بعض الشبه بين الجنة الجرمانية والجنة التي يصفها القرآن الكريم .

وأذا كان البشر قد حلموا بآلهتهم فإن الآلهة بدورها تختار محميتها من البشر ، فهي تساعدكم في المعارك وتحميهم من ضربات الأعداء الذين تدعمهم آلهة أخرى .

ويدلنا المؤرخ هومير في كتاباته على الأشياء التي تفضلها الآلهة ، كما يدلنا على أحقادها وحوافزها . فهيرا زوجة الإله زوس ، تمقت سكان طروادة ، وأفروديت (آلهة الجمال والحب اليونانية) ، تبسط حمايتها على الطرواديين . أما باريس^(١) مختطف هيلين الذي كان عليه أن يفصل بين أجمل ثلاث الهات فوق جبل الأولمب ، فاختار أفروديت رغم غضب الآلهة هيرا .

وكانت هاتان الآلهتان متواجدتين باستمرار لدى المعسكرين المتحاربين طيلة حرب طروادة ، وقد تدخلتا في هذه الحرب .

وقد أثار ميلفياس المهان ، غضب باريس المختطف ، ونشب القتال على شكل مبارزة بين فارسين على مشهد من الجيوش المحتشدة . وتقابل المحاربان ، وحمل كل منهما على الآخر محاولا البطش بفريمه ، وعندما يحتدم النزال بينهما تتدخل آلهة الجمال والحب (أفروديت) فجأة لخوفها على حبيبها ، فتختطفه وتغطيه بالسحب وتحمله الى غرفة هيلين خلف أسوار المدينة .

وفي مبارزة أخرى بين أخيلا وهكتور^(١) تقوم أبولون^(٢) بتغطية البطل الطروادي بسحبها وتخفيه عن عيون أخيلا الهائج .

ولم يكن الإغريق محرومين من الحماية الإلهية . فقد كانت آلهة هيرا التي أهانها باريس بالتوسل دون انقطاع للإله زوس لكي يسمح بتدمير طروادة .

(١) باريس : أحد أبطال الأساطير الإغريقية ، وهو الابن الثاني لبريham وهيكوب وزوج أونون . ومختطف هيلين زوجة ميليناس التي سببت حرب طروادة .

(١) أخيلا : هو ابن الملك ميرميدون أشهر أبطال هومير الشاعر والمؤرخ اليوناني والذي قتل هكتور في معركة طروادة ، ولكنه أصيب بجرح قاتل من سهم مسموم قذفه به البطل باريس . واسطوره معروفة في الباذة هوميروس التي عنوانها احتلال طروادة - وهكتور : اشجع أبطال طروادة ، والابن البكر لبريham ، وزوج أندروماك .

وكان المحاربون أنفسهم من سلالة الالهة ، فأخيلاً هو ابن الالهة تيتيس التي تزوجت برجل عادي . أما الاسرة التي تحكم طروادة فتتحدّر ايضاً من الالهة . كما كان المحاربون ديوسكوريدس وكاستور وبوللكس يعرفون باسم « جيمو » وهم أبناء الاله زوس من زوجته ليدا . وكانوا يظهرون في المعارك ويشاركون في القتال الى جانب الرومان في صراعهم ضد قبائل اللاتيوم (٢) .

وهكذا نلاحظ أن الالهة والابطال الاسطوريين يتواجدون في ساحات المعارك التي يتصارع فيها بنو البشر ، وذلك بعد أن انتهت مراحل الحروب الملحمية العظمى بين الالهة أنفسهم على جيل الاولب .

آلهة المدن

كان لكل مدينة في العصور القديمة آلهتها الخاصة . وينطبق هذا المفهوم ايضاً على العصور التوراتية العبرانية . وقد تشكلت المدن حول الاسر التي يجمعها جد مشترك وتدين بطقوس منزلية مشتركة (موحدة) . ثم ما لبثت كل عشيرة من العشائر تقدس اجدادها وتضعهم في مصاف الالهة ، وتحول هؤلاء مع الزمن الى آلهة المدينة .

وكان من واجب الالهة حماية المدينة والمشاركة في حياتها اليومية ودعمها في صراعها مع المدن الاخرى المجاورة .

ويقول الكاتب المؤرخ « فوستيل دوكلانج » : « عندما تشتبك مدينتان في حرب من الحروب ، لم يكن رجال هاتين المدينتين وحدهم الذين يتقاتلون ، وانما تأخذ آلهة كل من المدينتين دوراً اساسياً في الصراع . ويجب ألا يخالف الاذهان شيء من الظن بأن هذا الامر لم يكن سوى خيال شاعري ساذج ! لان القدماء كانوا يؤمنون ايماناً شديداً بهذه الاسطورة . وكانوا مقتنعين بأن الالهة تقاتل الى جانبهم في خضم المعارك : فهم يدافعون عن الجنود ويدافع الجنود عنهم .

وإثناء القتال ضد عدو ما ، كان كل طرف يؤمن بأنه يقاتل ضد آلهة

(٢) اللاتيوم : منطقة في ايطاليا الوسطى تقع على البحر التيرينين وتشكل من عدة مقاطعات ضمتها روما في القرن السادس ق.م .

الطرف الآخر ، او المدينة الاخرى . بل كانت تقاليد الحرب تتطلب الحقد والكراهية لآلهة الاجانب ، كما تسمح بضربهم وقتلهم واسرهم في بعض الحالات » .

وكانت الجيوش تحمل معها في تنقلاتها تماثيلها ومذابحها (هياكلها) او رموزها المقدسة كما يرافق هذه الجيوش الالهة والكهنة والسحرة والعرافون من كل طرف .

ويعتقد كل طرف ان الالهة التي تقاتل الى جانبه هي الاقوى . ولم يكن في تقاليد الحرب مكان للتسامح او الرحمة بالخصم . وكل الديانات تحرض المحاربين على البطش بالاعداء ، وهي تحلل قطع رؤوس الاسرى والاجهاز على الجرحى . فالاجانب ليس لهم نفس الالهة ولذلك فهم محرومون من كل الحقوق .

وكانت الحرب شاملة لا تقتصر على المقاتلين فحسب ، بل وتشمل السكان وثرواتهم بأنواعها ، ويحق للمنتصر تدمير المدينة المستولى عليها ، ولم يكن المنتصرون يترددون في تدمير المدن المحتلة في اغلب الاحيان . ومن الامثلة البارزة في هذا المجال المصير المأساوي الرهيب الذي لاقته مدينة قرطاجة الزاهرة .

وتمتاز المعارك والحروب التي نشبت ابان الهيمنة الاغريقية ، بالدور الاساسي الذي كان يلعبه السحرة ، والذي كان يفوق الى حد كبير ادوار كبار القادة والمهارات الحربية .

وكان الشعب اليوناني يحيط حياته وحروبه بهالة من السحر ، وقد وصف المؤرخ والشاعر العظيم هيرودوت ، هذا الوضع بأسلوب مؤثر لانه ، هو نفسه ، يؤمن بالمعجزات .

ومن اشهر المعارك التي تعطي فكرة واضحة عن هذا الواقع من النواحي الاستراتيجية والتكتيكية ، هي معركة بلاتيس^(١) .

(١) بلاتيس : مدينة يونانية قديمة تقع على المنحدر الشمالي لجبل سبتيرون ، وقد استطاع فيها القادة اليونان بوزانياس واريستيد ان يهزموا الفرس في عام ٤٧٩ ق.م .

وفي هذه المعارك احدث احترام العادات والتقاليد المقدسة معجزة حقيقية .
ويروي هيرودوت ان القائد الفارسي ماردونيوس لم يأبه لانذار الكاهن الذي
نصحه بتجنب خوض المعركة ، وهاجم الجيش اليوناني في اللحظة التي كان
يبدل مواقعه . اما القائد الاسبارطي يوزانياس الذي كان على رأس الجيش
اليوناني ، فقد سار في المعركة حسب رأي السحرة الذين حذروه من الهجوم ،
لكيلا يعرض مشاته خلال الانقضاض لخطر السهام الفارسية ، ولم يبدأ هجومه
الا بعد ان تلقى الامر من الالهة هيرا التي استدعاها لمساندته .

ومما لا شك فيه ان هذا الاجراء لم يحدث الا في اللحظة التي كانت فيها
الجبهة مهددة بالتصدع وعندما كان المقاتلين الفرس قد القوا دروعهم » .

ومن الملاحظ - استنادا لهذه الروايات - ان قادة العمليات الحربية انذاك ،
كانوا موقنين بانهم محاطون بقوى اضافية تعزز امكانياتهم المعنوية والعقلية
مما يجعلهم قادرين على اختيار اللحظة النفسانية الملائمة للعمل والحركة .

وفي ملحمة الياذة ، كما في الملاحم المماثلة الاخرى ، نجد ان الالهة تقاتل
جنباً الى جنب مع الرجال ، وتمد يد المساعدة للقادة والكهنة وتمنحهم النصائح
الثمينة . وكانت هذه التقاليد تشكل جزءاً لا يتجزأ من فن الحرب . وكان من
المستحسن ان تذكر آثار العجائب ودور الالهة عندما تقرر الاجراس لتعلن
النصر .

وهكذا فقد كان الانسان مرتبطاً بالتزامات صارمة تجاه آلهته الخاصة .
وعندما توقع معاهدات السلم ، تشهد كل مدينة آلهتها عندما تعلن القسم على
احترام هذه المعاهدات .

ويذكر فوستيل دوكلانج خطاب بلاتيوس للاسبارطيين الذي قال فيه :
« لقد عقدنا معاهدة ، وارقنا الخمر اكراما للالهة ، فاشهدنا عليكم آلهة
اجدادكم ، واشهدنا نحن الالهة التي تمثل بلادنا » .

وكان الامر دائماً على هذا المنوال اثناء الحروب التي كانت تختلط فيها
الالهة بالمقاتلين ، وكان لا بد ان يشتركوا في عقد معاهدات السلم .

أما في بلاد ما بين النهرين ، فكان الملك يقود جيش المدينة تقائد حربي ، ولكن آلهة المدن هي التي تسير للحرب ، وتحرز الانتصارات ، وتعتقد معاهدات السلم بين آلهة المدن المتحاربة .

آلهة التوراة

في زمن التوراة العبراني ، كان الاخلاص للقانون الديني هو القاعدة المطلقة للحصول على العون الالهي . وبعد وفاة « موسى » كان يهوه^(١) يتوجه الى يوشع^(٢) ويطلب اليه ان يبدأ العمل ويجتاز نهر الاردن ويستولي على البلد الذي وعده بها . ويقول له : « يجب ان يبقى هذا القانون دائما على شفتيك ، وان تفكر به في الليل والنهار ، وعندها ستكون سيدا في مفامراتك وستنال النصر ، او لم اقل لك بأن تكون قويا ، وان تصمد ، والا تخاف ولا ترتعد لان « يهوه » الهك سيكون معك في كل مكان تذهب اليه » .

هكذا خاطب الاله يهوه خادمه يوشع .

وتروي التوراة ايضا ان جدعون^(٣) تلقى ايضا اوامره من الاله يهوه ، اذ قال له : « استيقظ واتجه الى معسكر العدو لانني سأضعهم بين يديك » .

(١) يهوه : هو اسم الاله في التوراة (العهد القديم) . وهو رب العبرانيين (اليهود) الذي حباهم - كما يدعون - على العالمين ، واختارهم للاستيطان في فلسطين « ارض الميعاد » وهذا الاسم اصله من فعل (هيه) أي « هو » . والله اساسا « هو الذي كان والذي سيكون والذي يخلق » . ولا يجوز ان يلفظ هذا الاسم الا مرة واحدة في السنة من قبل الحاخام الاكبر في القدس بمناسبة عيد الغفران . ولله العبرانيين عدة اسماء منها « الله الحي » ، واصل الحياة » ، و« هبة العقيدة شخصاً من البشر باق الى الابد وهو يتكلم ويستمع ويرى ، ويشعر ، ويضطك ، ويتألم ، وله ميون ، وأيدي وآذان ، ويهوه يتميز بصفات عسكرية واضحة ، فهو : السيد البطل ، وصاعقة الحرب ، وهو اله حسود يعرض على اتباعه ان يكون حبيهم وطاعتهم له وحده . ويهوه او الالهيم ، القادر و « الشاداي » او الاله المتعالي خالق السماء والارض وسيد البلاد . وهو الاول والآخر . وآخر هو « أدوناي تشفا أوت او سيد الجيوش » . ومن صفاته الكثيرة انه « الصخرة » . وهو يبلو للاتقياء كالنار تلتهم كل ما تصادفه . (من كتاب الفكر اليهودي تميم 'نديره' شاروكي ١٩٧٥) .

(٢) يوشع : قائد اليهود بعد وفاة موسى ، وهو الذي احتل ارض كنعان ، وهو الذي قال عنه التوراة بأنه طلب من الشمس ان تتوقف في كبد السماء ويشم ينجز انتصاره . والكتاب الذي يحمل اسمه يذكر تفاصيل احتلال ارض كنعان ، وتقسيمها بين قبائل اسرائيل الاثني عشر . وآخر فهو من بين الانبياء الذين يذكرهم القرآن الكريم ، كما تذكر كتب التاريخ بأنه احتل مدينة اريحا وأباد سكانها ، ثم دمرها واشعل النار فيها (المعرب) .

(٣) جدعون : احد حكماء اسرائيل الذي انتصر على المديانيين في القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد .

ومن الممكن ايراد الكثير من الامثلة على تدخل « الاله يهوه » في تاريخ اليهود . ومن الملاحظ ان عاداتهم ومعتقداتهم ليست ارحم من عادات الشعوب القديمة الاخرى . والاله « يهوه » ليس اله للحب ولكنه « يفرض » على اتباعه « تدمير اعداء عقيدته ، بل واولئك الذين تجرؤوا على نسيانه » . فبعد هزيمة البنيامين (احدى قبائل اسرائيل الاثني عشر) « ذبح انصار اسرائيل بحد السيف ، جميع سكان المدن التي استولوا عليها ، وقتلوا الحيوانات والمواشي ، ودمروا كل ما وجد في طريقهم ، ثم اشعلوا النيران بجميع المدن التي صادفوها في منطقة بنيامين » .

وهكذا ان جميع الالهة القديمة ، « واله اسرائيل الواحد » ، صورة طبق الاصل عن البشر ، فهم قساة وسفاحون ، لا تتسرب الى قلوبهم الرحمة بالنسبة لكل من هو اجنبي ...

وكان على البشرية ان تنتظر القرون الطويلة (المليئة بالبربرية والطفيان) حتى تشهد « نبوءة المسيح » فتكتشف لأول مرة « اله عالميا » للبشر اجمعين ، شبيها بالبشر في مثل اعلى واحد .

آلهة روما

كان لروما خلال قرون طويلة ، عدد كبير من الالهة من اصول ومصادر متنوعة ، ذلك ان روح التسامح التي شاعت بين الحكام والشعب الروماني ، افسحت المجال لتتعايش هذه الالهة بسلام في جو هذه المدينة الخالدة .

وكانت روما ، في بداية تاريخها ، مغلقة ومتعصبة لارائها وتقاليدها شأنها في ذلك كشأن بقية مدن ومجتمعات العصور القديمة . وكان سكان روما يتكتمون باسم « الهم الرئيسي » لكيلا يتمكن الاعداء (الغرباء) من لفظ هذا الاسم المقدس ، لاعتقادهم بأن مجرد « التصرع » لهذا الاله قد يؤدي لانتقاله الى المعسكر الآخر .

وحدث اول انفتاح لروما نحو الخارج ، عندما قامت بتبادل الطقوس الدينية مع مدينة « لانيفيوم » المجاورة . وبهذه المناسبة ادخل اله المدينة المذكور الى معابد روما واصبح منذ ذلك الوقت في عداد الالهة الحامية لها .

وبعد ذلك ، قامت روما بعملية مماثلة مع مدينة « كايير » في منطقة « ايتروري » ، وكان ذلك بمثابة تبادل من نوع جديد . ففي فترة الغزو « الغولي » ، لجأت آلهة روما عند آلهة مدينة كايير . ولاقت هذه الالهة الاكرام والحماية والتكريم من سكان المدينة الذين عاملوها كما يعاملوا آلهتهم . ونظرا لوافق التام الذي حصل بين الالهة ، فقد ارتبطت هاتان المدينتان برباط ودي وثيق وعاشتا حليفتان ، وكان التحالف بين آلهة المدينتين سببا في اقامة تحالف ابدى بينهما .

ومنذ ذلك التاريخ اخذت روما تستقبل تدريجيا آلهة الشعوب المغلوبة كشرط اساسي لولائهم واتفاقهم جميعا داخل الامبراطورية . وكان لجميع هذه الالهة الاجنبية « حق المواطنة » في عاصمة الامبراطورية دون تمييز . ومع ذلك ، كان هناك اله واحد يحتل مكانة ممتازة بين جميع الالهة : الا وهو الامبراطور ...

ومن المعروف في معظم الحضارات القديمة ان الامبراطور (او الملك) كان مقدسا كالالهة بل كان في كثير من الحالات « الاله نفسه » . وقد عرفت « الحضارة السومرية » موقفا مماثلا حيث اكد رجال الدين ان « الملكية منزلة من السماء منذ آلاف السنين قبل حدوث الطوفان (الذي يطلق عليه اسم طوفان نوح في التقاليد العبرية والاسلاميه) » .

وفي مصر ، لم يكن « فرعون » رئيسا للدولة فحسب ، بل هو ممثل الالهة على الارض ، وهو نفسه من الالهة ، ويمارس فرعون سلطة باسم « الحق الالهي » واله مكلف بالاقامة على الارض ليضمن خصبها وازدهار قطعانها .

وفي روما ايضا اصبح من الطبيعي جدا ، انظر لـ « الامبراطور » باعتباره « الروح القدس » ، على الا يتعارض ذلك مع التسامح والاحترام لالهة الشعوب المحتلة ...

وعندما جاءت المسيحية تدعو لاله واحد عالمي (اله لكل البشر) ، ظهرت وكأنها ضد القوانين والتقاليد السائدة ، لذلك عمدت السلطات الى تحريمها واضطهاد اتباعها . ولم يستطع « دين التوحيد » في البداية ، الوصول الى

النفوس التي اعتادت خلال الاف السنين خدمة الالهة المتعددة . وعندما بدأت الامبراطورية الرومانية تواجه الازمات والمتاعب ، ظهرت المسيحية وكأنها تجسد الامل وتحمل في طياتها قوى سحرية خارقة ، تنقذ البشر من الشرور والالام .

وكان الامبراطور قسطنطين ، هو اول من اكتشف قوة الصليب (او الدين الجديد) في اللحظة التي كان يتأهب فيها لشن معركته ضد الامبراطور السابق ماكسانس (١) . فقد سمع صوتا يناديه « بهذه الشارة ستنتصر » . وحدثت المعجزة بالفعل بعد انتصار قسطنطين . خاصة بعد ان اصدر مرسومه الامبراطوري المشهور او مرسوم التسامح الذي سجل في صدوره تاريخا اساسيا في تطور الافكار الدينية في روما . ومنذ ذلك التاريخ اصبحت الحرب تعلن تحت شعار دين الدولة ، الذي يضمن تماسك الامبراطورية .

واصبح هدف الحرب - بعد ان تبنت الامبراطورية الرومانية الدين المسيحي - مطاردة الهرطقة ، وابطالهم . وبعد ذلك بفترة طويلة او بالاحرى بعد ان اتخذت الامبراطورية من مدينة القسطنطينية مقرا لها وعاصمة للدولة البيزنطية « اصبحت الحرب جهادا مقدسا ضد الكفار وضد الهرطقة من مختلف الانواع والاجناس » .

ومن الجدير بالذكر ان هذا التطور الجديد ، كان عميقا جدا وبعيدا عن روح التسامح التي عرفتتها الامبراطورية الرومانية في بداية عهدها .

آلهة العرب

قبل ان تصبح « مكة » مدينة مقدسة بنظر المسلمين في انحاء العالم كانت « مدينة للتجار » ، تحمل اليها القوافل القادمة من سورية واليمن ، البضائع المختلفة ، حيث يتم التبادل والمفايضة بين التجار من مختلف البلاد .

(١) ماكسانس (٢٨٠ - ٢١٢ م) اصبح امبراطورا لروما بين عام ٣٠٦ و ٣١٢ م . وقد هزمه الامبراطور قسطنطين في معركة بونت ميليوس عام ٣١٢ ، حيث قتل في نفس المعركة .

وهكذا كانت « مكة » مكان التقاء بين مجتمعين احدهما « حضري » مستقر والآخر « بدوي » رحال . وكان لكل من هذين المجتمعين آلهته الخاصة به ، كما هو الامر عند جميع الشعوب والقبائل في العصور القديمة . وعلى هذا الاساس ، قام في « مكة » ما يمكن تسميته بـ « مجمع الالهة » يكرم فيه جميع آلهة القبائل العربية .

وعندما جاء الاسلام ، كان من الطبيعي ان تصبح مدينة « مكة » مكانا مقدسا للدين الحنيف الجديد الذي دعا اليه الرسول محمد (صلعم) . وكان دين (محمد صلعم) دينا توحيديا ازال جميع الالهة التي كانت تعبدتها القبائل العربية وأعلن أن « لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله » .



الفصل الخامس

المجازر الجماعية والحضارات التي سبقت اكتشاف القارة الامريكية (او ما يسمى بحضارات ما قبل الكولومبية)^(١)

في هذه الازمة نفسها ، وفي الطرف الآخر من العالم ، وفي مجال جغرافي مستقل كانت الحضارات التي سبقت اكتشاف امريكا (من قبل كريستوف كولمبس) تعبد آلهة أخرى خاصة بها .

عندما توغل الاسبانيان كورتيز وبيزار في قلب القارة الامريكية في مطلع القرن السادس عشر ميلادي ، فوجئوا بوجود حضارتين عظيمتين تقعان على محور مكسيكو - ليما ، (وهو الخط الذي يصل بين عاصمة جمهورية المكسيك وعاصمة جمهورية البيرو) . وهاتان الحضارتان هما :

١ - حضارة الازتيك في المكسيك .

٢ - حضارة الانكا في البيرو .

وهما حضارتان متشابهتان في عدة نقاط - ذلك انهما حتى عصر الحجر المصقول ، لم تكونا تعرفان استخدام معدن الحديد ، ولا حيوانات الحمل ،

(١) حضارات ما قبل الكولومبية : اصطلاح وصفي يعني الحضارات التي قامت في القارة الامريكية (الشمالية والوسطى والجنوبية) قبل اكتشاف كريستوف كولومبس لهذه القارة في ١٢ تشرين الاول ١٤٩٨ م في رحلته الثانية باتجاه الغرب منطلقا من اسبانيا .

ولا استخدام العجلة - ولكنهما مختلفتان في أسلوب تنظيم المجتمع والمفاهيم الدينية . وكانت السلطة في حضارة الانكا اكثر مركزية منها عند شعوب الازتيك ، ولم تكن هذه السلطة في خدمة آلهة متعطشة للدماء .

تقد نشأت هاتان الحضارتان نتيجة تطور بطيء لثقافات تبنها غزاة حل كل منهم بدوره محل الحضارات التي سبقت وصوله . وهكذا تكون من مجموع تراكم هذه الثقافات « مركبا حضاريا » يشمل جميع المكتسبات وطرق التفكير والتصرفات .

وقد لاحظ المؤرخ جان ديسكولا^(١) في هذه الامكنة التي وطأتها اقدم الغزاة الاسبان « ان الفاتحين الهنود سبقوهم الى هذه الامكنة قبل عدة قرون » . ذلك ان البشر يقتتلون في اغلب الاحيان فوق نفس ساحات المعارك . اما الحضارات السابقة مثل حضارة المايا فقد زالت ودفنت تحت الغابات . وعندما جاء الفتح الاسباني انقطع التوازن الذي كان قائما ، ودمر قبل كل شيء ، الحضارات الاكثر تقدما ، اما الحضارات الاكثر فظاظة وخشونة ، فظهر انه من المستحيل تمثيلها .

والواقع ، ليس لدينا حتى الآن معلومات دقيقة عن الحضارات القديمة . اما المعلومات المتوفرة فتقتصر على الحضارات الاخيرة التي سبقت وصول الغزاة الاسبان للقارة الجديدة .

اما سكان المدن والقرى الاوائل الذين استقروا في المناطق الملائمة المحاطة بالجبال الشاهقة او الصحارى ، فكان عليهم انجاز اعمال جبارة لكي يستصلحوا الاراضي الزراعية ، فقد انشأوا السدود في وادي المكسيك لينظموا مياه البحيرة ، وحفروا اقنية الري في سهول الاند لارواء السهول الزراعية المتدرجة على سفوح الجبال والوديان المنخفضة . فمن اين جاء هؤلاء المزارعون المهرة ؟ هناك عدة فرضيات متناقضة وضعها العلماء والخبراء بالحضارات الامريكية القديمة .

(١) جان ديكولا : في كتابه « الغزاة » الذي نشرته مؤسسة فايارد عام ١٩٥٤ .

ففي رأي الاستاذ ريفيه ، ان ثلاث تيارات مختلفة جاءت الى هذه القارة :

- ١ - التيار الاول قدم عن طريق مضيق بهرنغ .
- ٢ - وجاء التيار الثاني من القطب الشمالي بفضل ارتفاع الحرارة في الالف الخامسة قبل الميلاد .

٣ - اما التيار الثالث فهو التيار الميلانيزي (٢) الذي استمر طوال الالف عام التالية وتطور بموجات متعاقبة ، - ومد بولينيزي (١) تتناقض مع نظرية الاستاذ ثور هايرداهل ، الذي كان يعتقد ان تيار الهجرة كان ينطلق من القارة الامريكية باتجاه الجزر البولينيزية .

ولكي يبرهن ثور هايرداهل على صحة هذه الفرضية (الاخيرة) قام باجتياز المحيط الهادي الجنوبي على متن طوافة بدائية اطلق عليها اسم «كونيكي» . وفي رأي هذا العالم ان التماثيل الضخمة الموجودة في جزيرة باك (والتي وصفها بدقة المكتشف مازير) لها نفس المميزات التي تتصف بها الاعمال الفنية في حضارات امريكا الجنوبية .

وهكذا تكون الحضارات المتعاقبة في امريكا قد تطورت في مناطق سكنية محددة تماما ، واقامت انظمتها في الامكنة التي تقام فيها الطقوس الدينية والتبادل التجاري .

اما المدن الكبرى مثل مكسيكو او كوزكو فاصبحت مع الزمن مراكز تجمع هامة ، رغم امكانيات الانتاج المحدودة بسبب تخلف التقنيات وافتقار الحضارة بشكل خاص لمعدن الحديد وحيوانات الحمل .

(٢) الميلانيزي : اصطلاح في الجغرافيا الطبيعية يعني تيار العرق الاسود .
(١) بولينيزي : وهي مجموعة الجزر المتسلسلة في المحيط الهادي ، شرقي استراليا ، وميلانيزيا ، وميكرونيزيا ، ومن بينها ارجيل بولينيزيا الفرنسي . وتيوزيلاندا وجزر ساموا وهاواي الامريكية . وجزر تونغسا ، وايليس وفونكس البريطانية . وجميع هذه الجزر استثناء نيوزيلندا ، يسكنها شعوب ذات قامات مدينة ، وبشرة فاتحة ، تعيش على زراعة جوز الهند والصيد والسياحة .

أما في الصحارى والغابات فكانت تعيش فيها جماعات رحالة لم يتجاوز تنظيمها الاجتماعي مستوى التنظيم القبلي . وكان هؤلاء السكان يعيشون على صيد الماعز البري والطرائد الصغيرة الأخرى ، ولم يعرفوا زراعة الذرة التي كانت آنذاك العنصر الأساسي لغذاء السكان المتحضرين ، واكتفوا باستهلاك نوع من العنب البري المتوحش ، وجذور النباتات ليكملوا بها غذاءهم . ولم يرتق هؤلاء السكان مطلقا إلى مستوى الحضارات ، ولم يخلفوا وراءهم أي آثار تذكر . أما أحفادهم الباقون ، فهم في طريق الانقراض ، بما في ذلك أولئك المنحدرين من العرق الأحمر ، وقد كانوا إلى عهد قريب جدا محاربين أشداء مرعبين .

حضارات المكسيك الجنوبي واليوكاتان (١) القديمة

هناك حضارات قديمة أخرى نشأت وتطورت في جنوبي المكسيك وغواتيمالا الحالية . وعندما وصل الفاتحون الأسبان إلى القارة ، كانت هذه الحضارة قد اختفت منذ زمن بعيد ، ولم يعثر منها على أي أثر . ومن الطبيعي أن تكون الحضارات التالية المعروفة قد تأثرت بها وورثت عنها .

ومن هذه الحضارات المنقرضة ، تلك المسماة بحضارة « الأوليك » على الشاطئ الجنوبي من خليج المكسيك ، وحضارة الزابوتيك ، على المنحدر المطل على المحيط الهادي ، وحضارة المايا في شبه جزيرة يوكاتان .

واقدم هذه الحضارات ، هي حضارة الأوليك الفامضة ، والتي بلغت ذروة ازدهارها في القرون الأولى بعد الميلاد . وتظهر لنا حضارة الأوليك في الرؤوس الضخمة المنحوتة من الصخور الصلبة ، والمبعثرة وسط الغابات ، كما تظهر لنا من خلال التماثيل الصغيرة المصنوعة من الأحجار الكريمة التي عثر عليها المنقبون بين الآثار القديمة . ومن أهم هذه الآثار مدينة فانتا القديمة . ويبدو أن شعب الأوليك كان يعرف نوعا من الكتابة القريبة التي لم يتم حلها

اليوكاتان : شبه جزيرة في المكسيك تقع بين خليج المكسيك وبحر الإنديز ، وتتألف من سلسلة هضاب كلسية ، مغطاة بالغابات . وهي ضئيلة السكان ، وكانت في الماضي مركزا لحضارة المايا .

وتفسيرها بكل اسف حتى يومنا هذا . ولكن رموز تقويم هذا الشعب تدلنا على تاريخ بعض الآثار بشكل دقيق .

ولدينا صورة اخرى عن حضارة ريفية لم تعرف المدن الكبرى كما لم يكن فيها دولة موحدة . وكان الكهان وحدهم هم الذين يلعبون الدور الرئيسي في ادارة هذه المجتمعات ، اما عامة الشعب فكانوا يعبدون القوى الحيوانية ، وخاصة منها « النمر الامريكي الارقط » الذي تشاهد صورة وجهه في تماثيل الانسان النمر الفريدة من نوعها .

ويبقى تاريخ الاوليك لغزا لم يتم حله حتى الآن . ويبدو ان افكارهم الدينية انتشرت بطريقة ما ، ولا تعرف فيما اذا كان انتشارها نتيجة لحملات حربية ام انه سلك طرقا سليمة .

ولكن الحضارات التي عثر عليها فيما بعد ، كانت متأثرة بشكل اكيد بالنظام الكهنوتي الاوليكى ، والتي تقوم على تقديم الاضاحي البشرية للالهة .

اما حضارة الزابوتيك ، المشابهة من عدة وجوه بحضارة الاوليك ، فتبقى غامضة ايضا . وقد كتب عنها المؤرخ الاسباني بورغوا ، في القرن التاسع عشر ما يلي : « لم استطع العثور على معلومات حول وجود هذا الشعب الذي كان كما يبدو ذو صفات اصيلة . ويدعي افراد هذا الشعب بانهم ينحدرون من النمر الامريكي (الجاغوار) ، وبعض الحيوانات الكاسرة الاخرى المشهورة بشجاعتها » .

ونعتقد انه كان لا يزال في امريكا الوسطى بقايا من العناصر التي تمثل هذه الحضارة ، في فترة الفتح الاسباني . كما ان لغتهم لا تزال مستعملة حتى ايامنا الحاضرة . ومن المؤسف انه لم يبق من آثارهم الراقية الماضية سوى الاهرامات التي تخبئ الالباب ، والمعابد الموجودة في مونت البان وبعض الاوابد الاخرى .

ويبدو انه كان لهذا الشعب حضارة من النوع الاوليكى ، غير انهم امتزجوا بالشعوب الرحالة الغازية القادمة من الشمال والمسماة بالمكستيك الذين نعرفهم

بشكل احسن ، لانهم خلفوا وراءهم مجموعة اخبار مكتوبة على جلود الوعول والايول وقد ساعدت هذه الاخبار تتبع تاريخهم منذ نهاية القرن السابع الميلادي ، مما يدل على ان تنظيمهم لم يبلغ مطلقا مستوى الدولة الحقيقية .

أما « حضارة المايا » فكانت مختفية تماما هي ايضا عن وصول الاسبان الى القارة الامريكية . لذلك لم يلاحظوا آثارها الى جانب الاوابد القائمة في الامكنة التي سبق لهذا الشعب ان استوطنها .

وقد دلت التحقيقات والمكتشفات ان شعب المايا ، كان يقطن في شبه جزيرة يوكاتا وجمهورية غواتيمالا الحالية ، حيث تشاهد الآن الآثار الرائعة التي تختفي في غابات في أعلى المرتفعات .

وتشهد المعابد في مناطق بالنيك وتيكال ، وكوبان ، على حضارة ذات مستوى رفيع ، تتألف من مدن مستقلة على شكل دول ، تديرها جماعات من الكهنة والمحاربين .

وكان هؤلاء الكهنة — المالك يتمتعون بسلطات مطلقة يستخدمونها باسم الالهة . اما كتابتهم الشبيهة بالهيروغليفية فلم تحل رموزها حتى الآن ، ولكننا نعلم بأنهم كانوا يملكون آلة حاسبة لقوانين النجوم دقيقة جدا .

وحوالي القرن العاشر الميلادي هجر شعب المايا المدن فجأة ، ولم تعرف اسباب هذه الهجرة حتى الآن .

فهل كان ذلك بسبب الثورات او الغزو ام الكوارث الطبيعية ؟ الواقع ان الامر لا يزال محاطا بالغموض الى يومنا هذا . ومن المحتمل ان هذه الحضارة انهارت بدورها في القرن الثاني عشر الميلادي . ويرجح ان انهيارها كان تحت ضربات الغزاة من الجنوب في هذه المرة . وليس هناك من الدلائل ما يؤكد ذلك بشكل قاطع .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي لم يبق اي اثر من هذه الحضارات فقد غطت الغابات كل شيء .

الحضارات المكسيكية

حضارة الأزتيك

على الرغم من كثرة الاحاديث عن امبراطورية الأزتيك ، الا ان الفاتح الاسباني « كورتيز » لم يجد امامه دولة حقيقية او امبراطورية عند وصوله الى وادي مكسيكو .

لقد كان الأزتيك من اواخر القادمين الى هذه الهضاب العالية حيث استولوا عليها وفرضوا انفسهم بالقوة والبطش . وكان الناس انذاك يكون لهم الكراهية والحقد وينعتوهم بشتى الاوصاف ، وينسبون اليهم حملات النهب والسلب ، ويطلقون عليهم اسم « المحاربين الجهلة القادمين من الشمال » .

وتدل المعلومات ان المحاربين الأزتيك كانوا يتصفون بجراة لا تضاهى في القتال . وقد ارتكبوا افعالا في منتهى الفظاعة والوحشية ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي لايمانهم الشديد بالحرب ودورها في خلاص وتوازن العالم ، (الدنيا) والمتعة والراحة في « الآخرة » وان الانسجام العالمي يتوقف على العبقرية المريضة التي لا تعود اليها القوة والنشاط الا بدماء اعظم الرجال وخاصة دماء المحاربين البواسل .

وفي احدى القصص التي اوردها الكاتب الفرنسي جاك سوستيل في كتابه ، عن « الحياة اليومية للازتيك » يمكن ان نقرأ النص التالي :

« لا شيء يفوق في اهميته خدمة الالهة ، فلكي تتمكن الشمس من اضاءة الارض بنورها ، لا بد ان تغذى بقلوب البشر ... ولتحقيق ذلك لا بد من تفجير الحروب .. لان الحرب هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح بالحصول على الدماء والقلوب البشرية ... » .

والواقع ان الديانة والحضارة الأزتيكية ، ليستا سوى مجموعة متفرقة من الافكار والاشكال والتصرفات (السلوك) المأخوذة عن الحضارات السابقة والشعوب المجاورة .

وتؤكد الشواهد والتنقيبات ، ان تواجد الانسان في وادي مكسيكو يرجع الى (٣٠٠٠ ؟ عام ق.م . ذلك ان الشعوب المنحدرة من الشمال وجدت في هذا الوادي عنى البيئة الملائمة للاقامة والعيش . فطورت زراعة الذرة ، ومارست الصيد في البر والبحر ، ولكنها غادرت هذه المنطقة حوالي نهاية الالف الثانية وبداية الالف الاخيرة قبل الميلاد . ولم يعثر على آثار هذه الحضارة ، التي بسطت نفوذها على القسم الاعظم من امريكا الوسطى ، الا في القرن الرابع الميلادي .

وتشير الآثار التي عثر عليها في مدينة تيهوتيهاوكان - التي تبعد بحوالي خمسين كيلو مترا شمال شرقي مدينة مكسيكو الحالية - ان الالهة التي كان يعبدها هذا الشعب هي : الافعى المجنحة الهة الرياح (كيتز الكواتل) ، واله المطر (تلالوك) . اما اهرامات الشمس والقمر فهي منشآت ضخمة توحى بالعظمة والجلال ، وتدل على ان (الكهنة - الملوك) هم الذين كانوا يقودون شعب الازتيك المتحضر الذي اغرقته امواج الاقوام الرحل القادمين من الشمال في القرن السابع الميلادي وهم من التولتيك .

كان القادمون الجدد الى وادي المكسيك ، من التولتيك ، وهم الذين انشأوا مدينة تولا (اوتولان) التي أعيد بناؤها حديثا . وقد اخضع التولتيك السكان الاصليين ، وضموا آلهتهم الى مجمع اربابهم ، واخذوا عنهم العادات والتقاليد ولكنهم احتفظوا لانفسهم بعادة تقديم الاضاحي البشرية للالهة ، و اضافوا لتمائيل « الافعى المجنحة ، والانسان الذي يجمع بين الطير والافعى ، اضافوا اليها تمائيل النسر والنمر الامريكي الارقط » .

وقد استمر تطور حضارة التولتيك طوال قرن ونصف ولكنها لم تصل الى درجة انشاء دولة حقيقية ، بل استمر النزاع الداخلي بين المدن بهدف الاستيلاء على الاسرى لتقديمهم كأضاحي للالهة المظفرة (الافعى المجنحة كوتيزال كواتل) . المعروفة بشراحتها وشغفها بالدم البشري . وكانت هذه العادة سببا لمجازر رهيبة ارتكبتها هؤلاء القادمون الجدد .

بقيت حضارة التولتيك الى ان قدم شعب آخر يتكلم نفس اللغة ، ولكنه اكثر خشونة واتقانا وشغفا بالحرب والقتال .

وتروي الاساطير المزوجة بالحقائق ، ان الشعب الجديد تمكن من طرد « الافعى المجنحة » ويجبرها على الهجرة . ويستدل من هذه الاساطير ان هذه الافعى المجنحة المغلوبة لم تكن « اله » بل كانت « ملكا » او « كاهنا - ملكا » اطلق على نفسه لقب الاله . وقد ظهر هذا التشويش بشكل واضح في فترة وصول القائد الاسباني دوكورتيز ، وكانت مضاعفت هامة .

وبعد سقوط مدينة « تولا » عام ١١٦٨ م ، وصل الى وادي المكسيك الاعلى شعوب شمالية نصف بربرية هي « الشيشيميك » . وحدث بعد هذه الفترة تطور واضح في المدن ، ونشبت حروب وصراعات عنيفة بين الاسر الحاكمة ، بهدف الاستيلاء على السلطة . وتمكنت احدى هذه الاسر التي انشأت عاصمتها « تينوكيتلان » (او مكسيكو الحالية) ، عام ١٣٢٥ م ، فوق جزيرة في بحيرة « تيكسكوكو » تمكنت هذه الاسرة من تزعم الرابطة الرئيسية في المنطقة .

كانت بدايات الازتيك صعبة جدا ، ولكن ملكهم « ايتزكواتل » ، الذي حكم في الفترة الواقعة بين ١٤٢٨ م و ١٤٤٠ م ، استطاع عن طريق التحالفات الدكية ، ان يصبح السيد المطلق للهضاب المكسيكية العالية . ومع ذلك لم ينشئ الازتيك دولة موحدة ، كإمبراطورية الانكا التي انشئت في نفس الفترة تقريبا .

لقد عرف عن الازتيك اتقانهم لعبة فرض الضرائب الباهظة ، وعمليات النهب والسلب ، بقساوة لا تعرف الرحمة . كما عرفت الهتهم بتعطشها لامتناسص الدماء والتهام قلوب البشر التي تنتزع من صدور القتلى المغلوبين او المستسلمين ... وكلما ازداد عدد الاضاحي كانت آلهة الازتيك تكافئ المحاربين بانتصارات جديدة واعداد كبيرة من الاسرى ، وهذا يعني مزيد من القلوب البشرية الجديدة التي تلقى كعلف للاله الطاغية الذي لا يشبع ...

وتروي بعض القصص التي كان يتداولها السكان الاصليين قبل وصول الاسبان « انه تم تضحية (١٨٠٠٠) رجل في احد الاحتفالات التي اقامها الازتيك تكريما لاله الشمس لكي يسمح لها بان تطلع في كل صباح !! » .

والحقيقة ان الارستقراطية الدينية المحاربة (ابي الكهنة والعسكريين) هي التي اشاعت الطغيان العسكري بزعامة الكاهن الاكبر . فكان على الراشدين من الرجال ، لكي يحصلوا على مرتبة او كيان اجتماعي مرموق ، ان يدخلوا في سلك الكهنة او مهنة الحرب . ويستند النظام على قواعد اقتصادية متينة . وبلغ تعداد المدينة الجزيرة (تينوكيتلان) مئات الآلاف من السكان ، وانشئت فيها المعابد والقصور الرائعة والاسواق المزدهرة التي يجري فيها تبادل الذهب والاقمشة والكاكاو الخ ... وكانت هذه المدينة عاصمة مركزية لاتحاد واسع من المدن ذات الاستقلال الذاتي ، غير انها ملزمة بدفع الضرائب للمدينة الام واتباع سياسة مشتركة ، الامر الذي تطلب وجود عدد من الموظفين لادارة وتأمين سير الاعمال في هذه الدولة الاتحادية .

وبالرغم من ان الازتيك كانوا ورثة لشعب التولتيك الا ان حضارتهم اقتطفت ايضا من جميع الحضارات السابقة والمجاورة . وتعتبر المباني والكتابات الهيروغليفية والمسمارية ، وتطور فن النحت ، الصفات البارزة المميزة لهذه الحضارة . ومع ذلك فان الديانة وحدها كانت تهيمن بعظمتها المأساوية ، على الحياة الاجتماعية والصناعية والفنية ، ولهذا السبب اعتبرها الاسبان « حضارة مجرمة » على الرغم من انها كانت من وجوه عديدة في مستوى الحضارة الاوروبية ...

ومن الغريب المؤسف ان هذه الحضارة العظيمة سرعان ما انهارت امام حفنة من المحتلين الاسبان ، الذين لم يصلوا الى حد ازالة ذكرياتها من اذهان الشعب المكسيكي الذي اخذ يستعيد امجادها ويحن اليها في هذه الايام .

حضارة الاتكا

شغلت امبراطورية الاتكا ، في أمريكا الجنوبية ، مساحة تزيد عن (٣٥٠٠) كم ، على امتداد شواطئ المحيط الهادي ، واستطاعت تمثيل وامتصاص جميع الحضارات التي سبقتها . ونجحت احدى قبائل منطقة كوزكو في البيرو ، السيطرة على هذه المساحة الشاسعة الواسعة ، وانشأت فوقها دولة حقيقية ذات وحدة ثقافية وسياسية وعسكرية .

كان على قبائل الاتكا الذين لا تتوفر المعلومات الكافية عنها في بداية ظهورها ، كان عليها ان تدخل في حروب مضنية طويلة ضد القبائل المجاورة ، استمرت طوال قرنين دون ان تقترب بنتائج ثابتة . ولكنها استطاعت بعد هذه المرحلة الشاقة ان تفرض هيمنتها بفضل العمليات العسكرية الرائعة .

ويمكن للجغرافيا الطبيعية ان تعطينا فكرة عن المصاعب الهائلة التي واجهت هذا الشعب ، وتفسر لنا عبقرية هؤلاء السكان الذين عاشوا فوق هذه الاراضي الجبلية العسيرة التي ليس من بين صفاتها الخصوبة ، فاكثرت الزراعات القديمة التي عرفت في هذه المنطقة ، نشأت حول مدينة (شافان) على ارتفاع يزيد عن (٣٠٠٠) متر فوق سطح البحر .

وكان على رأس حضارة الاتكا ، قادة من الكهنة الاذكياء ، أما شعب الاتكا ، فتتألف من المزارعين المهرة الذين اتقنوا فنون الري وزراعة السفوح العالية المدرجة ، كما اتقنوا بشكل جيد ، قطع الاحجار ونحتها وانشاء المعابد والمساكن .

أما عبادتهم فكانت مكرسة اساسا « للنمر الامريكي الارقط » ، وقد دلت الحفريات والتنقيبات الاثرية على وجود بعض الحيوانات الكاسرة الاخرى التي نقشتم صورها على الجرار والسيراميك ، مما يدل على انها كانت في عداد آلهتهم المقدسة . وتدل هذه الآثار والفنون التي خلفها شعب الاتكا بأنهم كانوا يفتقرون الى الود ودمائة الخلق ، ويميلون للمشاكسة والصراع مع الشعوب المجاورة .

وحوالي عام (٥٠٠) ق.م نشأت الوحدة الثقافية مع انتشار ديانة شعوب شافان ، ولكنها سرعان ما زالت لاسباب لا تزال مجهولة حتى يومنا هذا . وقد يكون ذلك بسبب موجة جديدة من الغزاة الا انه لا يتجاوز حدود الفرضية التي تحتاج الى تأكيد .

وهناك حضارة اخرى قريبة من البحر خلفت وراءها ابنية هائلة ، الا وهي حضارة الموشيه ، التي بنت معبد الشمس الذي تغطي قاعدته مساحة ثلاثة

هكتارات . والى جانبه معبد القمر وهو أصفر منه حجما . اما الجرار التي اكتشفت حتى الآن فتدل على أن نشاطات هذا الشعب موزعة على طبقات اجتماعية متنوعة ، وتظهر الرسوم المنقوشة على هذه الجرار بعض المحاربين المسلحين بالهراوات الثقيلة والرماح ، وبعض القادة الذين يعتمرون بخوذ مخروطية ويرتدون العباءات المزينة بالرسوم والشعارات ، كما تظهر فوقها رؤوس الاعداء المغلوبين تقدم للالهة والقادة .

وقد خضعت هذه الحضارة البائدة لنفوذ شعب الشيمو الذين يقطنون في الجبال المحيطة بمدينة (تيهواتكو) على ارتفاع يزيد على (٤٥٠٠) م فوق سطح البحر .

وتدل المعابد التي لا تزال قائمة حتى الآن ، على انها بنيت بأدوات متطورة نوعا ما ، الا ان جمعها وترتيبها المتناهي بالدقة ، يدلان على مستوى حرفي ممتاز .

اما العبادة ، فمكرسة لـ « الرجل - الاله » الذي يشبه « الاسد الامريكي بوما » وتتساقط من عينيه الدموع البشرية . ومن المؤسف اننا لا نعرف حتى الآن شيئا عن هذه الحضارة التي انمحت آثارها حوالي عام (١٠٠٠) ميلادية (القرن العاشر الميلادي) . . كما لا نعرف الى اي جهة ذهبت !... غير انها خلفت وراءها ثقافة متقدمة وقامت بعمل بناء رائد يبشر بمنجزات المستقبل .

وحوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، اخذ شعب الاتكا بالظهور ، الا انه لم يبدأ جولته الصاعدة الا في عام ١٤٣٨ م فقط ، وكان ذلك بفضل زعيم فلد يدعى « باكتاكوتيه » وبلغ هذا الشعب ذروة ازدهاره في زمن وصول الاسبان الى امريكا (اي في نهاية القرن الخامس عشر) واستمر هذا الازدهار طوال القرن السادس عشر .

استوطن السكان الاتكا في منطقة (كوزكو)^(١) واستطاعوا بفضل فن عمارة

(١) كوزكو : مدينة في جمهورية البيرو ، تقع في اواسط سهول الاند ، متوسط ارتفاعها حوالي ٣٦٥٠ عن سطح البحر وكانت مدينة كوزكو عاصمة لامبراطورية الاتكا ، ثم أصبحت من اعظم المراكز الاسبانية . وتضم عددا من الآثار الخالدة القيمة .

متقدم جدا ، خال من النقوش ، ان يكونوا الرواد الاوائل في فن التحصينات .
ومن الامثلة الرائعة على هذا الفن ، قلعة مدينة كوزكو ، التي تحميها جدران على شكل مثلث ، ويبلغ طولها حوالي (٥٤٠) م ، وتشكل من (٦٦) زاوية حادة تسمح بالرماية الجانبية .

ولا تقتصر عبقرية الانكا على ميدان الدفاع فحسب ، وانما تجلت ايضا بالمهارة الدبلوماسية الفائقة ، التي ضمنت لهم السيطرة على الشعوب المجاورة عن طريق المفاوضات في اغلب الاحيان . وهكذا استطاعت امبراطورية الانكا الوصول الى احسن النتائج بأبخص الاثمان ، وكانت الحكومة المركزية تحافظ على الزعماء المحليين في المدن والمناطق التي تستولي عليها ، وتحترم دياناتهم وتقاليدهم وتضمها الى ديانة الانكا الاصلية (٢) . .

وعندما تقتضي الظروف اعلان الحرب ، كان الانكا يستفيدون من تفوقهم الهائل في ميدان التنظيم ، وبفضل استخدامهم جمل اللاما كحيوان للحمل . ففي بلاد جبلية عسيرة المسالك ، حيث لا وجود للعربة ، فان النقلات تتم على ظهور البشر . وقد سمح استخدام اللاما بمضاعفة الاحمال المنقولة ، هذا بالاضافة الى ان هذا الحيوان زهيد الكلفة ففداؤه من نباتات المراعي ، ويمكن استهلاك لحومه لغذاء الانسان .

واذا كانت عبقرية الانكا قد برزت بوضوح في الفن والحياة الفكرية ، فانها برهنت عن كفاءة عالية في اقامة دولة اتحادية معقدة ذات طابع اشتراكي . غير ان هذا الشعب المؤلف بغالبية من الحرفيين المهرة ، لم يعرف الكتابة ، ولكنه استخدم طريقة خاصة للاحصاء والحساب ، تقوم على استخدام الخيوط التي تسمح الوانها وعقدها بتسجيل الوقائع والكميات والانواع .

كانت حياة الامبراطورية منظمة حول « الانكا » اله الشمس ، الذي يرمز اليه بها ، وتتجه نحوه جميع الادارات . اما حياة الشعب العملية فتقع برمتها على كاهل الدولة .

(٢) تذكرنا هذه الطريقة الدكية بالاسلوب الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية في مهدا الاول (العرب) .

فالارض : مقسمة الى اربعة اصناف ، وتجري زراعتها بموجب صيغ اشتراكية تحت اشراف اداريين مرتبطين مباشرة بالانكا القائد الاعلى .

وطرق المواصلات : وصلت الى مستوى عال بالتطور والتنظيم ، وبلغ طولها الاجمالي حوالي (١١٠٠٠) كم . وكان نظام هذه الطرق ، يسمح باشراف الدولة الشديد على مختلف المناطق مهما بعد عن العاصمة . وكان على جوانب الطرق جدران منخفضة تحميها في المناطق المسكونة ، ويحرم السير عليها من قبل الناس العاديين وتقدم امكانيات هائلة للسعاة الذين يتبادلون الرسائل ضمن مسافات تتراوح من (٢ - ٣) كم . مما يساعدهم على ايصال الرسائل والبرقيات الشفهية بسرعة كبيرة الى اقصى حدود الامبراطورية . وقد وصلت المسافات التي كان يقطعها السعاة خلال يوم واحد الى (٢٠٠) كم الامر الذي سمح بتوسيع الامبراطورية واحتلال مملكة الكيتو اي (الاكواتور الحالية) .

وقد اقام شعب الشيمو في الاكواتور تحصينات رائعة ، تشتمل على نظام دقيق جدا من المنعات الا انها لم تكف لحماية هذا الشعب من سيطرة الانكا ، الذين هاجموا هذه التحصينات من الخلف مستخدمين مناورات بارعة تكلت دائما بالنجاح . وترتب على هذه الهزائم قيام حالة من الشعور بالنقص عن شعب الشيمو تجاه الانكا المحتلين . ولكن الانكا كعادتهم لا يدمرون البلاد المحتلة ولا يسيئون معاملة شعبها ، ويحتفظون بالالهة المحلية وقيمون معها تعاوننا مفيدا للطرفين .

وفيما بعد ، اتجه شعب الانكا الى الجنوب ، فسيطروا على وديان التشيلي على مسافة (٢٥٠٠) كم عن العاصمة كوزكو ، وهناك وضعوا شارات حدود الامبراطورية مؤكدين قرارهم بالا يذهبوا الى مسافة ابعد من ذلك .

اما من ناحية الشرق ، فان الغابات المتوحشة خلف القمم الشاهقة حالت دون اي توسع بهذا الاتجاه .

وهكذا امتدت دولة الانكا على مجمل الشريط الساحلي (الذي يشكل سهول الاند) المطل على المحيط الهادي .

واذا كانت الحضارات السابقة قد اختفت كثقافات مستقلة الا انها كما يبدو لم تتعرض لآبادة شاملة ، واحتفظت الامبراطورية بشيء من التنوع ، وساعد انتشار لغة الكيشوا على تحقيق بعض التوحيد دون ان يصل ذلك الى درجة الانسجام الشامل . ومن الجدير بالذكر ان قصر عمر امبراطورية الانكا (١٥٠) عام لم يسمح لها بالوصول الى احسن النتائج .

ولكن المجازر البشرية لم ولن تكون الصبغة المحزنة المميزة للحضارات التي سبقت وصول كريستوف كولبس الى القارة الامريكية ، فقد شاهدنا ان هذه المجازر استمرت ولا تزال ، على مدى التاريخ ، بأشكال مختلفة مراوغة ، ولأسباب عديدة لا ترضي الالهة .

ففي القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ، امتدت الحروب الى جميع القارات بما في ذلك القارة الاوربية .

واذا كانت الحروب المحلية الحالية ، لا تشتمل الا على القليل من المعارك بسبب فقر الاطراف المتنازعة ، فهناك على العكس الكثير من الهجرات والتهجير الاجباري ، والمجاعات والابوثة التي يذهب ضحيتها سنويا الملايين من البشر . ولعل في مأساة الشعب الكمبودي ما يكفي لتجسيد المحنة التي تعاني منها البشرية .



الفصل السادس

الحتميات الجغرافية – السياسية

لقد خضعت جميع الحضارات المعروفة فوق سطح الكرة الأرضية ، الى حتميات جغرافية – سياسية (جيوبوليتيكية) ، استمرت طوال التاريخ ، بدرجات متفاوتة ، تؤكد حتميتها .

وكما اخترقت كرتنا الأرضية خطوط الصدع الجوفية العظيمة ، التي حدثت على جوانبها الهزات الأرضية والثورات البركانية ، فانها تشتمل ايضا على « خطوط تصدع » خاصة بعلم الحرب من الناحيتين العلمية والاجتماعية . وعلى جوانب هذه الخطوط نشبت الحروب ، ووقعت الاحداث الحاسمة والهجرات المسلحة ، عبر التاريخ .

ويبدو ان العامل الجغرافي البحت يغلف ويتجاوز العامل البشري والتاريخي . ويلاحظ من تتبع احداث التاريخ ان جماعات بشرية اصطدمت في نفس الامكنة ، في فترات مختلفة عبر القرون ، دون ان يكون لها شيء مشترك مع الجماعات التي سبقتها وقاتلت فوق نفس ساحات القتال هذه . وهذا يعني انه لم يكن بين هذه الجماعات انتماء عرقي او نسب قومي ، او دين مشترك حتى ولا حضارة مشتركة .

المناطق المفضلة وخطوط التصدع

عندما تكونت الدول الكبرى في المناطق المفضلة ، اخذت تنزع للاحاطة بخطوط التصدع . فهل هذا يعني ان المغامرات والغزوات والفتوحات المختلفة تأتي بين وقت وآخر حول هذه الخطوط ؟

اذا القينا نظرة فاحصة على خريطة جغرافية ، ظهرت لنا الحدود كخطوط دائمة لكثرة ما جرى فوقها من حروب في الماضي ، خاصة بين الدول المنظمة تنظيما صارما ، ولا يمكن بشكل عام تغيير هذه الحدود الا بحروب جديدة .

يوجد على سطح الكرة الارضية مناطق مفضلة برهنت على مدى العصور بانها اكثر ملائمة من غيرها لسكنى البشر وللعمال الزراعية ، اولى نشاطات الانسان الحضري (المتحضر) ، عندما توقف عن الاعتماد على قطاف الثمار والصيد . ففي هذه المناطق المعتدلة وجد الانسان افضل الشروط للعيش . اما تلك المناطق التي تقع الى الشمال من مدار السرطان فتشكل شريطا متصلا تقريبا يمتد من شواطئ الاطلسي الى شواطئ المحيط الهادي ويبلغ طوله الاف الكيلو مترات . ويمكن ان ندخل فيه الشريط الساحلي في افريقيا الشمالية ، الذي يبدأ من المغرب ، ويصل الى مصر ، ثم يتصل بالهلال الخصيب في اسيا الصغرى .

وهكذا اصبح الجزء الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط ، في الواقع ، منطقة لقاء بين الحضارات منذ اقدم عصور التاريخ بل ومنذ عصور ما قبل التاريخ .

اما ما وراء المحيط الهادي ، فان المنطقة المعتدلة تمتد حتى اواسط الامريكتين : ففي المكسيك والبيرو ، كانت مهد حضارات رائعة ، ولكن هذه الحضارات تطورت بدون احتكاك مع العالم الخارجي قبل وصول الفاتحين الاسبان . وخطوط التصدع في هذه القارة ، هي بلا شك ، اقل وضوحا من تلك الخطوط المماثلة الموجودة فوق القارات الاسيوية والاوروبية .

وفوق هاتين القارتين (اسيا واوروبا) - المتحمتين بشكل يجعل خطوط التصدع الموجودة فوقهما متصلة بدون انقطاع - بدأت الحضارات العظمى تتطور منذ الاف السنين قبل الميلاد . فالى الشمال من المنطقة المعتدلة الخصبة ، توجد منطقة من الفياقي الشاسعة ، كانت مرتعا تجوب فيه شعوب من الفرسان

الرحل تسوق قطعانها باحثة عن المراعي الخصبة ، وخاضعة لتقلبات الطقس السنوية .

وعندما يصادف هؤلاء التائهون في طريقهم ارضا مزروعة ، لا يستطيعون مقاومة مغريات ثرواتها المتراكمة ومياهاها الثرة . ارياف خصبة ومدن مزدهرة ، لذلك تراهم يباشرون ضغوطا متواصلة على ملاكي الاراضي المتحضرين ، ساعين جهدهم للتغفل بينهم والاستيلاء على اراضيهم المرغوبة ، بالطرق السلمية او بالقوة (الحرب) .

والواقع اننا لا نعلم شيئا عن المجابهات الاولى التي وقعت بين الجماعات البشرية في الفترة الاولى لظهور الانسان ، ولكننا نعلم بشكل احسن الهجرات التي حملت الشعوب من المناطق المغطاة بالضباب في اوربا الشمالية نحو السماء المشمسة في ايطاليا واليونان ومصر ، خلال الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس قبل الميلاد ، اي في ما يسمى العصر البرونزي والعصر الحديدي .

ان تفوق هذه الشعوب البربرية الرحالة بالتسليح ساعدها على تغلب الشعوب المتحضرة التي لم تكن قد بلغت نفس المستوى في صناعة المعادن !!^(١). وهكذا كان الامر بالنسبة لغزوات قبائل « السلت » فقد انطلقت الموجات الاولى التي تجاوزت نهر الرين ، في اواسط الالف الاخيرة قبل الميلاد ، من الاراضي الدانوبية ، وانتشرت غربا باتجاه فرنسا وشمالا اسبانيا والجزر البريطانية . وكان هؤلاء هم سلتي حضارة التين^(١) .

ويلاحظ فوق جميع هذه الاراضي ، رغم مرور الزمن ، تأثير السلتي القوي على السكان الاصليين ، وادخال نوع من الحضارة الريفية .

ومن المحتمل الا يكون هذا الاختراق الهجومي الذي قام به السلتي عبر

(١) التين : منطقة اثرية تعود الى عصر ما قبل التاريخ وتقع على الجانب الشرقي من بحيرة نيو ساتيل في سويسرا . وقد اعطت اسمها للحضارة التي قامت فيها واستمرت من القرن الخامس قبل الميلاد الى الفتح الروماني .

نهر الرين ، الاول من نوعه . فمنذ ذلك الزمن والاختراقات تتوالى دون توقف في جميع الاتجاهات ، مع غزوات الرومان في جرمانيا ، وغزوات الجرمان والسامبر والفندال ، والبورغونديين والفرنجة نحو الغرب ، وآخر هذه الغزوات - بعد لويس الرابع عشر ونابليون - شهدت الجيوش الانكلو - ساكسونية والفرنسية (١) تتوغل عام ١٩٤٥ في قلب المانيا .

وفي السهوب الصحراوية الشرقية الاسيوية ، كانت الشعوب الرحالة تمتلك الاعداد الهائلة من المحاربين الفرسان الخفيفي الحركة المزودين بتسليح ممتاز . . وسوف تلعب هذه الشعوب الرحالة دورا رئيسيا في تاريخ الهجرات البشرية وتشكيل الامبراطوريات ، وسيستمر هذا الدور حتى زمن قريب جدا .

مناطق الاحتكاك والصدام بين الحضارات

وهكذا اذن ، كانت هناك مناطق احتكاك ، منذ الازمنة الاولى التي استولى فيها الانسان على الارض ، وفوق هذه المناطق اصطدمت مختلف الحضارات وانطبعت كل من هذه الحضارات بسميزات خاصة ملازمة لها . وكانت اكثر الحضارات مرونة ، تلك التي نشأت على مفترق انطرق ، فقد حاولت التغفل والتسلسل الى قلب الحضارات المستقرة . وحاولت هذه الحضارات المستقرة الدفاع عن حدودها ورد الغزاة بواسطة جيوش ، كما اقامت الحواجز والموانع الاصطناعية ، كجدار الصين العظيم والجدران الدفاعية الرومانية (٢) .

ومن اهم مناطق الاحتكاك الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية هي المناطق الواقعة في حوض البحر الابيض المتوسط ، وفي شمالي الصين .

وفي التاريخ الحديث تركزت معظم المجابهات العنيفة في قلب القارة الاوربية على جوانب الدانوب والرين والادير ، التي تشكل خطوط التصدع الاكثر وضوحا في الظروف الراهنة .

(١) يبدو ان السادة الباحثين اغفلوا ذكر الامريكيين في غزو المانيا ، كما لم يتعرضوا للتوغل الالمانى نحو الشرق والغرب (العرب) .

(٢) الجدران الرومانية المسماة : لولينس ، هي موانع اقامتها الامبراطورية الرومانية في اوربا بموازة نهر الدانوب والرين من البحر الاسود الى بحر الشمال (العرب) .

وفي الالف الخامسة والرابعة قبل الميلاد ، كانت الدول البدائية التي تشكلت في حوض ما بين النهرين تنازع على السيادة . وكانت هذه المنازعات اول ظاهرة للصراع بين الساميين من جهة وغير الساميين من جهة اخرى ذلك الصراع الذي سيستمر دون انقطاع حتى ايامنا الحاضرة(١) بأشكال مختلفة متفاوتة في الوضوح . وكان التفوق السامي ممثلا بالملوك الساميين : سرجون(٢) وحمورابي(٣) . وتلا ذلك ما يمكن ان نسميه « بالتفوق الآري » ممثلا بسيروس ملك الفرس والاسكندر المكدوني .

وبعد ذلك بزمان طويل من القرن العاشر والقرن الثاني عشر الميلادي ، كانت المجابهات من الصليبيين والعرب المسلمين ، والتي يمكن اعتبارها امتدادا لهذه الخصومات .

وفي اسيا الصغرى ، اي في المنطقة المسماة بالهلال الخصيب كانت المجتمعات الزراعية التي توصلت الى الحضارة في زمن مبكر جدا ، كانت تعيش تحت التهديد الدائم من الشعوب البربرية المحيطة بها : سكان السهوب العالية ، والهضاب ، في شمال القفقاس ، والشعوب الرحالة في شبه الجزيرة العربية والرحالة في الجنوب .

الحدود وطرق الفزرو

كانت حدود مصر الاسيوية ترتدي اهمية عظمى . فنحن نعرف الهجرات التي تعاقبت في الالف الثانية ق.م . منطلقة من سيناء حاملة معها الى الدلتا القبائل السامية . وبعد ذلك بقليل كانت الاقوام القادمة من شمالي سورية هي التي اخترقت الحدود المصرية وانتشرت في الدلتا وفرضت سيطرتها على السكان

(١) كان الباحثين مقتنعون بشكل نهائي ان الصراع بين الشرق والغرب شيء ابدى حتى في مصر الليرة والفضاء ، عصر الصراع الايديولوجي ، والاستقطابات الكونية التي تجاوزت على ما يبدو خطوط التصدع (العرب) .

(٢) حمورابي : ملك بابل (١٧٣٠ - ١٦٦٥) ق.م مؤسس امبراطورية بابل الحقيقي . ويشكل قانونه المعروف باسمه اقدم مجموعة قوانين معروفة في تاريخ البشر .

(٣) سرجون : مؤسس الامبراطورية السامية الاكادية (٢٤٠٠) ق.م (سرجون الاول : ملك

أخو (٢٠٤٨ - ٢٠٣٠) ق.م .

الاصليين ، ولكن هؤلاء استسلموا مع الزمن امتصاص الغزاة واعطوهم بعض اشكالهم وتنظيمهم العسكري .

وعلى هذه الحدود نفسها ، التي تتميز الآن بقناة السويس ، يصطدم الاسرائيليون والعرب الذين ينحدرون من العرق السامي ، ولكن الذين يفرقهم . وفي هذه المنطقة التي تلتقي فيها القارات الثلاث ، افريقيا واسيا واوروبا ، لم تتوقف طوال الاف السنين الرحلات ، ذهابا وايابا ، ولم تنقطع النزاعات والحروب التي تتخللها فترات متقطعة من السلام .

وكل الجيوش في العصور القديمة تصادمت في حروب طاحنة على طول شواطئ البحر الابيض المتوسط، وعلى المحور المار من قمرقмыш^(١) ، وكاديش^(٢) ومجدو^(٣) ، هذا المحور الذي يشكل العمود الفقري الحقيقي للمناطق الواقعة شرقي البحر الابيض المتوسط (الشرق الادنى) .

ومن الجدير بالذكر ان المناطق التي تتحكم بالمرات الرئيسية لهذا المحور الاستراتيجي تتمتع بأهمية عظيمة . فقرقмыш هي المخرج من اسيا الصغرى الى نهر العاصي وانهار بلاد ما بين (دجلة والفرات) ، اما مدينتا « رفح » وبيلوز^(٤) ، فتفتحان ابواب مصر باتجاه الشرق ، ومدينة سوز^(٥) تفتح ابواب فارس .

والى الشرق ، تقع مدينة بختيار الافغانية في جنوبي بحر الارال ، وهي ممر

-
- (١) قرقميش : مدينة سورية قديمة تقع على نهر المرات . وقعت فيها المعركة الحاسمة التي هزم فيها نبوخذنصر ملك بابل ، فرعون مصر نيكاو الثاني في القرن السابع قبل الميلاد .
- (٢) كادش : مدينة سورية تقع على نهر العاصي وقعت فيها المعركة الحاسمة بين جيش الحثيين وجيش رمسيس الثاني (١٢٨٨) قبل الميلاد . وعلى اثرها وقع الطرفان معاهدة في عام ١٢٧٢ تعطي لمصر فلسطين والساحل السوري .
- (٣) مجدو : المدينة الفلسطينية التي هزم فيها الجيش السوري والمصري ، الجيش المملي في اواسط القرن الثالث عشر الميلادي .
- (٤) مدينة مصرية قديمة تقع بالقرب من بور سعيد .
- (٥) مدينة سوز : مدينة قديمة ، كانت عاصمة لمملكة هيلام ، دمرها آشور يانيبال عام (٦٤٠ ق م) . ثم اصبحت مقرا للامبراطورية الفارسية في عهد داريوس وخلفائه .

عظيم الهمية ، تستريح فيه القوافل قبل وصولها الى سمرقند ، وتقع هذه الفتحة الاستراتيجية الحيوية على طريق الحرير باتجاه الصين ، وهي نقطة الانطلاق الى الهند للقادمين من حوض البحر الابيض المتوسط .

اما في الاتجاه المعاكس ، اي من الشرق الى الغرب ، يوجد خط تصدع عظيم يحاذي الصين من الشمال ، ويسير بموازاة نهر هوانغ - هو ويلتف حول الكتل الجبلية الهندية ، ثم يمر الى الشمال من بحر الآرال وقزوين ، والبحر الاسود ، ويسير بعد ذلك بمحاذاة مجرى نهر الدانوب الى ان يصطدم بحاجز نهر الرين (١) .

هذا ويعتبر وادي الدانوب ووادي الرين خط توغل (طريق غزو) او حاجز طبيعي ، تبعا للاتجاه الذي تسلكه الغزوات او الهجرات البشرية .

وفي الشرق ، عندما فشل ضغط شعوب السهوب الاسيوية بالتغلب على مقاومات الصين ، اتجه تيار هجرتهم نحو الغرب ، وساروا مع خط التصدع الذي اصبح خطا للغزوات ، ثم حاولوا الاتجاه جنوبا نحو بلاد فارس والاناطول بين بحر قزوين والبحر الاسود . وفي الحالات التي فشلوا فيها باقتحام هذه المناطق ، رايناهم يتابعون سيرهم غربا عن طريق وادي الدانوب ، وانتشروا في شرقي القارة الاوربية قبل ان يصطدموا بالاقوام الجرمانية والسلتية .

اما الشعوب الاخرى التي ستسلك هذا الطريق فيما بعد فهم : الهون في القرن الخامس الميلادي ، والمغول في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد تركت هذه الشعوب في طريقها آثارا بارزة لهذا العبور .

ويقدم البحر الابيض المتوسط امثلة اكثر تعقيدا ، فالحضارات الاكثر لمعانا في العصور القديمة تأسست في حوضه الشرقي . وحول مياه هذا البحر استطاعت الامبراطوريات الكبرى ان تتشكل ونستمر وتزدهر . كما كانت الاحتكاكات بين الحضارات والشعوب ، عديدة جدا ومتنوعة ، ليس لها شبيه في

(١) ان هذا الخط العظيم يوضح التلاحم بين القارين الاسيوية والاوروبية ويفسر المصطلحات الجغرافية التي اطلقت على القارين اسم (اوراسيا) .

اية نقطة اخرى فوق سطح الكرة الارضية . وعلى سبيل المثال ، بقيت الصين معزولة عن العالم الخارجي طوال قرون عديدة ، واستطاعت مع ذلك تطوير حضارتها الخاصة الاصيلة .

ويشكل البحر الابيض المتوسط ، في الواقع ، « حزمة » من خطوط التصدع تشتمل على الطرق البرية الساحلية ، والطرق البحرية التي ترتسم فوق مياهه في جميع الاتجاهات . وقد شهد هذا البحر العظيم الكثير من هجرات الشعوب من الشمال الى الجنوب ، ومن غابات البلطيك المظلمة الى مناطق السماء المضيئة في اليونان وكريت واسيا الصغرى ومصر .

ونحن نعرف ان الفينيقيين واليونان ، استخدموا الطرق البحرية واسسوا المراكز التجارية النشطة على جانبيه :
فقد اقام اليونان مراكزهم في ايطاليا الجنوبية والساحل الفرنسي واسبانيا وصقلية ، واقام الفينيقيون مراكزهم في شمالي افريقيا ، واسبانيا وفرطاجه ، التي اصبحت فيما بعد منافسة للمدن الفينيقية الام وستنافس مع روما على سيادة الجزء الغربي من البحر المتوسط .

وعندما ظهر الاسكندر المكدوني رايناه يؤمن مؤخراته حول البحر المتوسط فبسط سلطته على مصر ويؤسس المدينة التي سميت باسمه قبل ان يتجه نحو الشرق لاحتلال الامبراطورية الفارسية والهند .

اما الرومان فحولوا البحر المتوسط الى « بحيرة داخلية » لامبراطوريتهم وحاولوا دون انقطاع نقل حدودهم بعيدا الى ما وراء خطوط التصدع التي اتينا على ذكرها ، ليعطوا لدولتهم المجال الحيوي اللازم ، واقاموا عليها التحصينات المنيعة التي امتدت من جدار هادريا في الجزر البريطانية ، الى جدران الاناضول وجدران افريقيا الشمالية ، مرورا ، بالموانع المتقطعة التي استخدموها لسد الثغرات من مصب الدانوب الى مصب الرين .

وفي القرن الخامس الميلادي سارت قبائل الفاندال بمحاذاة سواحل المتوسط عبر اسبانيا وافريقيا الشمالية ووصلت الى روما عن طريق البحر انطلاقا من تونس .

وفي القرن السابع ، انطلق العرب بدورهم من سورية التي احتلوها بسرعة خاطفة ، وسلكوا الطرق البرية المؤدية الى قلب اسيا ، واندفعوا بنفس الوقت غربا بمحاذاة شواطئ البحر المتوسط الجنوبية قبلفوا شواطئ المحيط الاطلسي المغربية ، وعبروا مضيق جبل طارق (الذي سمي باسم احد قادتهم) الذي يفصل بين القارتين الافريقية والاوربية ، واحتلوا اسبانيا وصعدوا شمالا حتى اواسط فرنسا .

وهكذا نرى ان هذه الطرق ، كانت هي نفسها ، عبر القرون طرقا دائمة للغزوات ، وقد يكون من المفيد اقتفاء اثر الجيوش البريطانية في تونس وليبيا ومصر عام ١٩٤٣ ، وجيوش الحلفاء التي انطلقت من افريقيا الشمالية الى شبه الجزيرة الايطالية ، لكي ندرك ان الطرق التي كانت تسلكها الغزوات في الماضي لا تزال تسلكها الجيوش الحديثة في الازمنة الحالية .

ولعل في ذلك اكبر دليل على تحكم الجغرافيا بالتاريخ البشري .

والخلاصة : لقد رأينا خلال هذا الاستعراض السريع للمجابهات البشرية عبر العصور والسنين اننا كنا دائما امام عالمين متجاهين :

العالم الداخلي الكثيف ، الذي يغطي شمالي قارتي اسيا واوربا ، اي عالم القطب او نقطة انطلاق جميع الهجرات العظمى ، والعالم الجزيري او شبه الجزيرة الاوربية والاطلسية والمتوسطية التي تمتد نحو اسياء ذات الرياح الموسمية .

وهذا العالمان كانا يلتقيان في اغلب الاحيان في نقطة الالتقاء عند فوهة الهلال الخصيب السوري - العراقي .

وفي العصور الوسطى ازدادت اهمية القارة الاوربية ، فقد اخذت الحضارة الغربية تحل محل الحضارات القديمة ، وانتقل بذلك مركز الخطر باتجاه المحيط الاطلسي .

والواقع ان « مسرح العمليات الشرقي » بالنسبة لاوربا ، يتسم باللقاءات بين قوى اوربا المسيحية وجيوش الغزاة الاسيويين ، وفي هذا المسرح هزم

الروس الجيوش المغولية في مدينة كازان عام ١٥٥٢ م ، وفي عام ١٥٧١ م ألحقت
الاسباطيل الاوربية الموحدة بقيادة دون جوان الاسباني ، الهزيمة بالاسطول
العثماني الاسلامي ، في معركة ليبانت الحاسمة ، وبعد ذلك بقرن واحد استطاع
النمساويون وضع حد نهائي لتغلغل الاسلام في اوربا ، عندما سحقوا القوات
العثمانية على ابواب مدينة فيينا .

اما المسرح الاوربي ، فهو الذي يسمح باستخلاص الدروس الدقيقة
عن الحروب . وينقسم هذا المسرح الى اربعة مناطق طبيعية كبيرة :

— اوربا الشمالية المفتحة على البحار الشمالية .

— منطقة الدانوب المتجهة من الغرب الى الشرق ، والتي ترسم خط الحدود
بين شعوب الشمال الجرمانية من جهة وحضارات البحر المتوسط من
جهة اخرى . وعندما اصبح ضغط شعوب الشرق اعظم شدة كانت هذه
المنطقة عبارة عن طريق للغزو حمل هذه الشعوب نحو الغرب باتجاه
الاطلسي ، والى الجنوب نحو البحر المتوسط .

— اوربا الغربية التي تفتتح في وقت واحد على المحيط الاطلسي والبحر
الابيض المتوسط .

— اوربا المتوسطية والبلقانية التي تفتتح على افريقيا واسيا الصغرى .

وفوق طريق الغزو هذا ترتفع بعض الحواجز الطبيعية : فنهر الفيستول
والاودير يرسمان خط الحدود بين الشعب السلافي في الشرق والجرمان في
الغرب ، اما نهر الرين ، فكان خلال زمن طويل يشكل حاجزا عظيما ، قبل ان
يصبح « وسيلة اتحاد » عندما توفرت الشروط السلمية^(١) في غربي اوربا .

(١) يشير المؤلفون الى التفاهم الذي تم بين بلدان اوربا الغربية بعد هزيمة المانيا النازية
وبشكل خاص التفاهم بين فرنسا و المانيا الغربية ، الذي ادى الى قيام منظمة السوق الاوربية
المشتركة ، واتجاه اوربا الغربية في السنوات الاخرى نحو الوحدة السياسية الذي يعبر عنها
البرلمان الاوربي المنتخب عام ١٩٧٩ (المغرب) .

ويمكن القول ان « اضراس الغول الرومانية » التي تمتد بين مصب الدانوب ومصب الرين ، مرورا بسهول الديكومات (٢) ، تفصل بين عالمين :

— عالم اوربا المطلة على البحار الشمالية .

— وعالم اوربا المتوسطة (المطلة على البحر المتوسط) .

وعلى هذا الاساس يمكن ان نذكر عددا من المناطق التي تستقطب المجابهات والمعارك وممرات الهجرات المسلحة الكبرى . وان خطوط التصدع التي تصطدم عليها الدول يمكن ان تنتقل من امكنتها بحسب توسع الدول او تقلصها . وغالبا ما يكون ذلك بسبب الاختلاف بالتنظيم والتسليح : ففي الماضي اصبح الهكسوس اسيادا لمصر بفضل تفوق عربتهم الحربية واسلحتهم الحديدية ، وافتقار المصريين لاسلحة مماثلة .

وفي العصور الحديثة كانت الاسلحة المدرعة (او الفرسان) السلاح الحاسم خلال الحرب العالمية الثانية ، وان انتصارات هتلر في المراحل الاولى من هذه الحرب ، يرجع سببها ، الى ان خصومه لم يكونوا قد تكييفوا واعتادوا على مثل هذا النوع من العمليات السريعة .

هناك نظرية مقبولة تقول : « عندما تسهل التقنيات الهجوم ، تولد الامبراطوريات » . وقد برزت هذه الظاهرة في العصور القديمة ، عندما استطاعت الامبراطوريات الاشورية والفارسية والرومانية الاستيلاء على اراض واسعة جدا .

وعلى العكس ، عندما تؤمن شروط الساحة التفوق لصالح الدفاع ، يبرز الميل نحو تضاؤل « السيادات » .

ففي المناطق الجبلية المنيعة في اليونان القديمة ، استطاعت المدن المحصنة التغلب على الجيوش المهاجمة بفضل استماتة مقاتليها البواسل بالدفاع ،

(٢) سهول الديكومات : تقع بين نهر الرين غربا ونهر الدانوب شرقا ، وقد ضمها الرومان لامبراطوريتهم في القرن الاول الميلادي .

واحتفظت بسياداتها . وعندما ازدادت امكانيات العدو الهجومية ، فقدت هذه المدن سيادتها .

وفي العصور الوسطى ، ساعدت قصور الاقطاعيين على التملص من السلطة الملكية المركزية ، وذلك بفضل جدرانها المنيعة التي صمدت لآلات الحصار المعروفة آنذاك .

وهناك عدد من الدول الصغيرة التي عاشت مستقلة تقريبا في قلب بعض الممالك الكبرى ، وقد استمر هذا الوضع الى ان اتت المدفعية لتقدم للملك الوسيلة الفعالة لاسقاط جدران قصور الاقطاعيين المحصنة وتحطم مقاومة النبلاء ، وتضم الدويلات الصغيرة المعاندة .

خطوط التقسيم

لقد رأينا ، فيما سبق ، ان المجابهاات الكبرى المسلحة والغزوات ، تقع دائما حول خطوط التصدع ، غير ان هناك انواعا اخرى من الخطوط التي تفصل بين مختلف المجموعات البشرية .

ومن بين خطوط التقسيم هذه ، تأتي الخطوط التي تفصل بين الاعراق بالمعنى البيولوجي للكلمة . ولما كانت هذه المجموعات « اجتماعية - عرقية » ، فانه يتكون في داخلها تدريجيا الانتماء لنفس الحضارة : والاشترك باللغة والثقافة ، والتعايش المستمر خلال اجيال عديدة ، بالاضافة الى جميع الاختلاطات التي تترتب على ذلك ، وينتهي ذلك عادة الى خلق كيانات اجتماعية - بيولوجية ، حقيقية .

ويمكن لخطوط التقسيم هذه ، ان تفصل كيانات سياسية وان تتركب عدة دول او تقسمها ، عن طريق الفتوحات والهجرات والتبادل .

ومن ابرز هذه الخطوط :

١ - خط شمالي افريقيا ، حيث يشكل الصحراء الكبرى حدا هائلا بين البيض والسود . ويجدر الاشارة الى ان من بين التفسيرات التي اعطيت لهذا التقسيم بالاضافة الى حاجز الصحراء ، ذلك التفسير الذي قدمه المؤرخ

ي.ف. غوتيه . ويعتقد هذا المؤرخ ان الامراض الوبائية وعلى رأسها الحمى الصفراء ، كادت تقضي على البيض في الجزء الافريقي الواقع جنوبي الصحراء .

٢ - خط تقسيم افريقي جنوبي ، ناتج عن الاحداث التاريخية ، كالهجرات الاوروبية على اثر الحروب الدينية ، والهجرات الكبرى لقبائل اليانثو في القرن التاسع عشر .

٣ - خط شمال امريكي : يفصل بنفس الوقت الاجناس الاجتماعية اللغوية ، جزئيا عن الاجناس الاخرى المختلفة . فالجزء الشمالي يحتوي على اقلية كبيرة من السود ولكن هذه الاقلية تمتص تدريجيا من النواحي الاجتماعية والقانونية والثقافية .

٤ - خط جنوبي اسيوي : يتألف من جنسيات مختلفة ، ولكنه يتحد بانتحاء بحري مشترك (المحيط الهادي) .

٥ - خط تقسيم يمر الى الشمال من الصين ويفصلها عن (الامبراطورية السوفياتية) والدول الاخرى الوسيطة مثل : منغوليا ، ومنشوريا .

٦ - ويمكن ان يضاف الى هذه الخطوط ، خطوطا اخرى ، حسب كثافة التضامن الديني ، تفصل العالم الاسلامي عن العالم المسيحي والعالم الهندي . كما يمكن رسم خطوط سياسية تفصل الاجواء الايديولوجية الرئيسية والاجواء السياسية والاقتصادية (ويمكن ان يسمى بخط الانظمة) .

٧ - خطوط تقسيم اخرى : وهذه الخطوط يمكن رسمها بين البلدان المتطورة والبلدان النامية ، وفق معايير خاصة لمستويات التصنيع والمعيشة .

٨ - واخيرا يمكن اضافة خطوط فصل بين البلدان ذات التوازن السكاني (الديمغرافي) وبين البلدان ذات التزايد السكاني السريع .

ويمكن لخطوط التقسيم هذه ان تكون متعددة الجوانب مما يزيد في تعقيد المشاكل الناتجة عنها .

وهذه الخطوط التي رسمتها الجغرافيا وعلم الاجتماع ، تشكل نقاط احتكاك لمختلف الحضارات ، كما رسمت في الماضي المواجهات بين البشر ، وعلى هذه الخطوط نفسها سيتقرر مصير الدول الكبرى الحالية .

ومن المهم أيضا متابعة نشاط وتطور جبهات العدوان الجماعي . فمنذ عام ١٩٤٥ ، بداية العصر النووي - الفضائي ، تكثفت الحروب المحلية والحروب الصغيرة ، بشكل رئيسي على عشر جبهات عدوان جماعية شملت جميع القارات . وقد تمثلت تسعة من هذه الجبهات في كتاب « تحدي الحرب » الصادر عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الوقت فتحت جبهة عاشره اجتاحت اوربا الغربية بكاملها ، وزرعت فيها الفوضى بواسطة الارهاب والاضطرابات الاقليمية .

* * *

الفصل السابع

ملحمة الحصان

لقد ناضل الانسان طوال عصور عديدة ولا يزال يناضل ضد البلادة الجغرافية . وكانت عملية « ترويض الحصان » واستخدامه من بين الوسائل التي استعملها الانسان للسيطرة على الطبيعة وتذليل العقبات الجغرافية .

كانت البداية في اسيا

لم يظهر الحصان فوق ساحات المعارك الا في الالف الثانية قبل الميلاد . ففي عصر الحجر المنحوت ، وعصر الحجر المصقول ، كان الحصان المتوحش يعيش في الطبيعة على شكل قطعان كبيرة . وتظهر لنا رسوم المغاورة - مثل مغارة لاسكو^(١) ، ومغارة التاميرا - الحصان على شكل طريدة صيد ثمينة جدا . وقد تأكد ذلك من كميات العظام الهائلة التي وجدت حول بعض الاماكن المأهولة في ذلك العصر .

وفيما بعد ، انتشر الحصان في سهوب اسيا الوسطى المنغولية ، حيث بدأ تدجينه وترويضه خلال الالف الثانية قبل الميلاد . وكانت العربات الحربية التي تجرها انواع من الحمير الاسيوية ، تظهر صورها في نقوش ذلك العصر . ويبدو ان القبائل الرحالة بدأت استخدام الحصان كحيوان للجرح قبل

(١) تقع مغارة لاسكو في فرنسا (منطقة وردونيا) . وتقع مغارة التاميرا في اسبانيا .

ان يستخدموه كحيوان للركوب . ونظرا لمهارة هؤلاء الرجل في استخدام الاسلحة، فقد استطاعوا التفوق على السكان « الحضر » القاطنين في الاحواض النهرية . وفي هذه الفترة تقريبا ، كان الحصان في الصين رمزا للقوة والنبالة . وقد استخدمه الصينيون للركوب قبل استخدامه لهذه الغاية في الغرب . ومن الملاحظ ان الحصان اصبح يدخل في المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية لبعض الحضارات . ففي الهند مثلا ، كان الاله قيشنون يتقمص على شكل حصان ابيض . وفي القرن التاسع عشر كانت تقام في شمالي سورية مهرجانات لسباق العربات التي تجرها الخيول . وكان امتلاك العربية يعزز مكانة وسمعة الزعيم ، لانه الوحيد الذي لديه الامكانيات للحصول عليها . وبالإضافة الى اهمية العربية من الناحية العسكرية ، فهي الوسيلة التي ساهمت في استقرار الامبراطوريات طيلة الالف الثانية قبل الميلاد ، لانها كانت تسمح للموظفين وممثلي السلطة المركزية بالتنقل السريع في طول البلاد وعرضها .

وفي البداية لم يكن السكان الحضر في بلاد ما بين النهرين ، يعرفون الحصان ، ولم يظهر في هذه المناطق الا مع وصول القبائل الرحل القادمين من هضاب الاناضول في بداية الالف الثانية قبل الميلاد . فالحثيون شعب من الفرسان كانوا يملكون عربات تجرها الجياد ، ويمتطيها النبالة وحملة الرماح . وكان لهم تفوق بارز على المقاتلين المشاة . وقد ظهر هذا الشعب حوالي عام ١٥٠٠ ق.م في شمالي بلاد ما بين النهرين (العراق) واسس امبراطورية تغطي المناطق الواقعة شمالي وديان الدجلة والفرات . وكان هذا الحدث التاريخي اول تدخل معروف للعربية الحربية في المعارك .

وفي هذه الفترة تقريبا توغلت قبائل الهكسوس المحاربة الشرسة ، في وادي النيل وطردت السكان الاصليين الى الوادي الاعلى . ويبدو ان هؤلاء المحاربون هم اول من ادخل الحصان الى وادي النيل ، على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الحدث .

وما لبث المصريون ان تعلموا هذه التقنيات الحديثة ، واخذ الحصان

مكانا بارزا في حياتهم الاجتماعية واحتفالاتهم الدينية ، وصيدهم وانتصاراتهم الحربية ، كما تعلمت الارستقراطية المصرية استخدام هذا السلاح الجديد اي العرب الحربية ، والتي اصبحت القاعدة الاساسية للجيش الفرعوني بعد اعاده تنظيمه ، واستخدمت بشكل خاص لشن الحملات البعيدة المدى .

وتدل الوثائق المصرية ان رمسيس الاول كان يملك في جيشه (٣٥٠٠)
عربة متنوعة .

اما الاشوريون فقد خطوا في هذا الميدان (ميدان استخدام الحصان في القتال) خطوة هامة . عندما اعطوا للمعركة الحربية ، شكل العمليات المتسلسلة ، بدلا من الشكل السابق الذي يقوم على الصدمة القصيرة . وازدادت القدرة على الحركة واعطي للسرعة اهمية كبرى ، كل ذلك بفضل العربات الحربية السريعة ، وسجل الاشوريون تطورا كبيرا في الافكار العسكرية .

وفي فارس احتل الحصان ايضا المقام الاول في الديانة والحرب . واصبح سلاح الفرسان الذي استخدمه الامبراطور سيروس كسلاح رئيسي ، اصبحت هذا السلاح اكثر تطورا وفعالية من سلاح المشاة .

وكان الفارس يهاجم الخصم بسلاحه الجاهز للرمي ، ويتجنب الالتحام الجسدي مما يسبب الانهك للخصم . ويعتبر الامبراطور سيروس اول معلم للفروسية في عصره . فهو الذي اخترع « المخفر » و « المخافر البديلة » ، وقد انشأ سلسلة من المخافر لحماية الحدود وطرق المواصلات .

وتشير الاساطير الى ان داريوس تولى العرش بفضل حصانه الذي شرفه في احدى المباريات التي جرت بين النبلاء المرشحين للعرش الملكي .

وان اقتران اسم « الجواد » باختيار الزعماء ، يظهر الاهمية التي كانت تعطى للحصان في فارس عند تأسيس الامبراطورية .

استمرار ملحمة الحصان في اوربا : في الفن ، والدين ، والمعركة

لم تكن اليونان من البلاد ذات التقاليد الفروسية . فهي بلاد جبلية

وعرة ، لا تلائم تربية الحصان . ولم يعثر أثناء الحفريات على عظام الخيول بين
آثارها ، كما لم يظهر الحصان في الفن الاغريقي الا بعد وصول القوافل الاشورية
والمصرية الى اليونان . ومنذ ذلك الوقت اخذ الحصان يظهر في الطقوس الدينية
والاساطير . وكانت افضل الخيول اليونانية تتواجد في تيساليا بلاد السنتور^(١) .

ومن المعروف ان ملوك الاغريق ذهبوا الى حرب طروادة وهم يمتطون
العربات الحربية التي تجرها الخيول ، كما ان اخيلا « سحل » جثة « هكتور »
بواسطة احد الجياد .

ومن الجدير بالذكر ايضا انه من بين المهمات التي يقوم بها هرقل تنظيف
الاسطبلات والاعتناء بالخيول التابعة للملك اوجياس^(١) . وكانت برامج الالعاب
الاولمبية تتضمن مباريات لسباق العربات . والحقيقة كان الحصان بالنسبة
للاغريق يحتل مكانا في الالعاب الرياضية والفن اهم من مكانته في الحرب .
ففي القرن الخامس ق.م لم يكن تعداد الخيالة الاغريقية تزيد عن (١٠٠٠)
جواد ، اما الاسكندر الاكبر الذي كان لحصانه المسمى بوسيفال شهرة عظيمة
في العصور القديمة ، فلم يكن يملك في معركة آربيل^(٢) عام ٣٣١ ق.م الا (٧٠٠٠)
فارس محارب مقابل (٤٠٠٠٠) مقاتل من المشاة ، بينما كان لدى خصمه
الفارسي اعدادا اكثر بكثير من الفرسان .

وفي شبه الجزيرة الايطالية ، كانت خيول شعب الايتروسك مخصصة
للأعمال المنزلية ، كما تظهر في المباريات والمهرجانات الدينية ، وكان فن المركبات
ذات العجلتين من الفنون التي تتسم بالرهافة والذوق الرفيع في مدينة
تاركينيا^(٣) .

(١) السنقور : رجل اسطوري تظهر رسومه في الرسوم والاساطير اليونانية الى جسم حصان
وراس انسان .

(١) اوجياس : ملك اسطوري تحدثت عنه الالياذة ، وكان هرقل يعتني باسطبلاته .

(٢) آربيل : مدينة اشورية وقعت فيها المعركة الفاصلة بين الاسكندر وداريوس الثالث
ملك الفرس .

(٣) تاركينيا : مدينة في وسط ايطاليا ، وكانت اكبر مدن شعب الايتروسك .

ولم يكن الرومان أيضا من الفرسان ، وكانوا يطوعون المرتزقة من النوميدي^(٤) والجرمان والغولوا ، لتعويض ضعف الخيالة في جحافلهم . ومع ذلك فان تمائيل الفرسان التي صنعت في ذلك الزمن ، كتمثال الامبراطور مارك اوريل في الكابيتول ، تظهر بوضوح مكانة الحصان المرموقة في روما .

وعلى عكس ذلك ، هناك بعض الشعوب المعروفة بفروسيتها كالعرب والمغول ، فهم فرسان منذ الولادة ، قاموا برحلات هائلة وحققوا فتوحات عظيمة كتب لبعضها الدوام .

والحصان تتردد ذكره في الاغاني الراقصة ، وفي روايات الفرسان حيث يحتل مكانا رئيسيا . ولباس الحصان يحمل معنى رمزيا ، والفارس في الحرب يعتبر شيئا واحدا مع راحلته المقاتلة ، وهو نوع من الخيول الخاصة بالقتال ، ويمتطي الفارس الحصان المخصص للاحتفالات في المهرجانات والصيد حيث ترافقه زوجته التي تمتطي عادة فرسا رهوانا (مخصصا لركوب السيدات) . اما اذا ارادا القيام برحلة طويلة ، فانه يمتطي حصانا قويا (من النوع الذي تمتطيه الشرطة ، بينما يضع امتعته على ظهر حصان الحمل .

وهذه المصطلحات المتعددة تظهر اهمية الدور الذي كان يقوم به الحصان في عصر الفروسية الاوربية .

والحصان في كل بلد وكل عصر وبالنسبة لكل حضارة صفة ومعنى خاصين ، فهو يرافق الانسان في حياته اليومية ، وفي الاحتفالات العادية والدينية ، كما يرافقه اغلب الاحيان في الحروب .

الحصان والمراتب الاجتماعية

اوجد دخول الحصان خادما للانسان في الحرب تسلسلا اجتماعيا في البلاد التي انتشر فيها .

ففي روما التي لم يكن لديها في البداية وحدات خيالة كبرى ، كان لديها

(٤) النوميدي : منطقة قديمة في افريقيا وتقع بين قرطاجة وموريتانيا وشعبها من البربر . وقد الحقها الرومان بامبراطوريتهم .

نظام للفروسية ، قام أساسا بعد أن عرفت ملكية الحصان ، التي أصبحت عنوانا للثروة والجاه . وفتح هذا النظام الباب لمهام مدنية وإدارية وعسكرية . وأصبحت هذه الفئة خلال القرن الأول الميلادي طبقة متوسطة كبرى في الامبراطورية .

وفي العهد الكارولنجي^(١) كان على كل رجل حر أن يقوم بخدمة سيده (الملك) ، وعليه أن يتحمل نفقة راحلة وتجهيزاتها والأسلحة الضرورية للقتال ، بالإضافة إلى رواحل عبيده وأسلحتهم ، وهذه الضريبة غير المباشرة باهظة جدا لا يتحملها إلا الأثرياء .

وقد ترتب على هذا النظام تحولا في البنية الاجتماعية ، فلكي يتمكن الفرسان من مواجهة النفقات التي يستلزمها الإعداد للحرب والمساهمة في خدمة المملكة ، أخذ الملك الكارولنجي يوزع عليهم الأراضي (الأقطاعات) وكانت النتيجة نشوء طبقة جديدة هي أرستقراطية الأرض (الأقطاعيين) وأصبح لقب « الفارس » عنوان نبالة دائمة . وهكذا أصبح الفرسان الذين يعبئون بهذه الطريقة القاعدة الأساسية للنظام الاقطاعي . وفي إطار هذا النظام نشأ شكل جديد من أشكال الحرب ، ألا وهو المبارزة الفردية ، التي أصبحت الأسلوب الوحيد المستخدم ، وأخذت الحرب الاقطاعية شكل المبارزات الكبرى .

أما المعارك فكانت عبارة عن لقاء بين فرسان متخاصمون يقاتلون بالنظام « المنتشر » يحاول كل فرد منهم طرح خصمه عن ظهر جواده ، ولم يكن الهدف بالضرورة القضاء على الخصم . ويتوقف مصير المعركة عادة على نتيجة المبارزة .

النبالون (رملة الاسهم) الرابكون

والفرسان المدرعون (الخيالة المدرعة)

كانت أعظم الهزائم التي كرسست نهاية الامبراطورية الرومانية ، هي تلك

(١) العهد الكارولنجي : هو عهد الأسرة التي حلت محل الأسرة الميروفانجيان (عام ٧٥١ م) . وكان أول ملوكها بيبان وهي التي أحييت الامبراطورية الغربية في عهد الامبراطور شارلمان (٨٠٠ - ٨٨٧ م) وقد استمر أحفادها يحكمون ألمانيا حتى عام ٩١١ م وفرنسا حتى عام ٩٨٧ م .

التي الحقها بها فرسان البرابرة . فالحجفل الروماني ، كان مؤلفا من وحدات مشاة اساسا ، تدعمه نسبة ضئيلة من الفرسان (الخيالة) . وقد اعتاد الرومان اللجوء لحلفائهم للحصول على الفرسان عند الضرورة ، ولكن الخيالة المعادية ، كانت تعرف في اغلب الاحيان ، كيف تفرض تفوقها على الجحافل الرومانية . ففي عام (٥٣) ق.م ، دوى صوت انذار ترددت اصداؤه في مدينة كاره عندما تغلب فرسان البارت (١) ، رماة القوس ، على الجحافل الرومانية بقيادة كراسوس . ونميزت القرون الاخيرة من عمر الامبراطورية الرومانية بالهجمات المتكررة العنيفة التي كانت تشنها على الحدود الشعوب المعروفة بفروسيته . وقد تمكنت روما من رد الهجمات التي اتت من وراء نهر الرين ، غير ان الفرس والبارث والقوط لم تفتقر عزائمهم ، ولم يكفوا عن التوغل داخل اراضي الامبراطورية . وكان من نتائج هذه الهجمات ، ان خسرت روما بلاد ارمينيا التي استولى عليها الفرس عام ٣٦٣ م . تم تلقت هزيمة ساحقة في ادرنه عام ٣٧٨ م على يد الفوط (٢) الذين استخدموا نوعا من الخيالة المدرعة . وهكذا ظهر الفوط فجأة على ابواب البلقان بفضل استيلائهم على جدار الامبراطور تراجان (٣) وفي هذه المعركة ، التي لا نعرف الا القليل عنها ، تمركز الرومان امام مدينة ادرنه ، وتكبدوا اعظم هزيمة فاصلة فتح الطريق امام تفوق « الخيالة » على « المشاة » طوال الف عام .

ويصف المؤرخ اميان مارسلان هذه المعركة التاريخية فيقول : « انقضى فرسان الفوط على الجحافل الرومانية كاتقضاض الرعد على سلاسل الجبال ،

(١) البارت : شعب من السبث ، اصبح ايرانيا ، انشأ مملكة قوية (٢٥٠ - ٢٢٤) ق.م وقد انضمت بعد ذلك الى الامبراطورية الساسانية . وقد اشتهروا بالمعركة التي هزمت فيها خيلتهم الجحافل الرومانية عندما تظاهرت بالتراجع ، وحاول الرومان مطاردتهم ، اخذ الفرسان يرشقونهم بالسهم فالحقوا بهم خسائر فادحة أدت الى هزيمتهم . ومن هنا يأتي المثل القائل : « أشبه بسهم البلرث » أي السهم المبالغ .

(٢) الفوط : شعب جرمانى كان يقطن عند مصب نهر الفيستول ثم احتل فيما بعد جنوب شرق اوربا ، اعتنقوا المسيحية على مله اريان في القرن الرابع الميلادي . ثم انهارت امبراطوريتهم تحت ضغط قبائل ليهون عام ٣٧٥ م . وعاش قسم منهم تحت سيطرة روما .

(٣) جدار تراجان : هو سلسلة من التحصينات التي اقامها الامبراطور تراجان على حدود الامبراطورية مع قبائل الجرمان .

وحملت عليها حملة خاطفة ، فكنست جميع الوحدات الرومانية بمصافة هوجاء من المجازر .

وفي ذلك الوقت كان هناك نوعان من الخيالة :

الخيالة الثقيلة : التي يقاتل فيها الفارس برشق السهام عن بعد ، ويستعمل الرمح في المصادمة المباشرة .

والخيالة الخفيفة : يكون فيها الرماة ، قل حماية ، واخف وزنا ، واكثر قدرة على المناورة وسرعة الحركة .

اما الامبراطورية البيزنطية فاستخدمت هي ايضا « الفارس المدرع » الذي يشبه فارس القرون الوسطى بخوذته الحديدية المزينة ، ودرعه المحبوك من الزرد ، وقفازاته وحدائه الفولاذي . وهناك تشابه كبير ايضا بين وسائل حماية حصان الفارس المدرع وفارس القرون الوسطى .

التجديد المغولي

يعود الفضل الاول في تطوير اساليب قتال وحدات الخيالة ، للشعب المغولي . فقد كانت هذه الوحدات تقاتل بالترتيب المنتشر تقريبا ، حتى مجيء الفاتح العظيم جنكيز خان . كما كانت هذه الوحدات تشكل في معظم الاحيان سلاحا مكملا لسلاح المشاة ، ولم تكن تعتبر سلاحا رئيسيا مستقلا .

اما بعد جنكيز خان ، فقد اصبح الجيش بكامله من الخيالة ، فيقسم الى فيالق يمكنها خوض المعارك منفصلة على مسافات بعيدة عن قاعدتها ، وتساهم بالوقت نفسه بمناورة الجيش الكبرى التي يديرها القائد العام .

ومن الجدير بالذكر ان عمليات الشعوب الرحل الحربية ، كانت تعتمد اساسا على سرعة خيولها ومهارة رماتها (النبالة) . ويحدثنا التاريخ ان الهون في القرن الخامس الميلادي ، والافار^(١) في القرن السابع ، والهنغار في القرن

(١) الافار : شعب وسط اسيا ، اجتاحت اوربا خلال ثلاثة قرون ، وقد اوقف زحفهم الامبراطور شارلمان عام ٧٩٦ م ، وضمهم الى امبراطوريته .

العاشر ، والاتراك في القرن العاشر ، قطعوا مسافات شاسعة جدا وخلفوا وراءهم الدمار ، ولكن تقنياتهم وتكتيكاتهم بقيت متخلفة ، الى ان جاء جنكيز خان في القرن الثالث عشر ، فاعطى للخيالة دفعة جديدة دفعت بها الى درجة عالية من الكمال .

وقد كتب السيد ايميري الخبير بالشؤون العسكرية معلقا على هذا الحدث التاريخي فقال :

« اذا كان ارفع ما بلغه الفن العسكري ، منذ نشوء الكتيبة المكدونية وحتى قيام الفرقة المدرعة ، عبارة عن منجنيق حي لا يفاوم ، فلا شيء اطلاقا يعادل ، في هذا الميدان ، قبل تدخل التقنيات الحديثة ، القوى الضاربة الخارقة ، والسرعة المنضبطة العظيمة للخيالة المغولية » .

لقد زرعت هذه الخيالة (المغولية) فيافي الصين حتى بلغت المحيط الهادي ، ثم انتكفت نحو الغرب بسرعة خاطفة ، فوصلت الى جبال الكاربات والبحر الادرياتيكي . ولم يتوقف اندفاع هذه القوة الرهيبة الا وفاة قائدتها . لقد حققت هذه التحركات الكبرى ، ذات التنظيم الرفيع ، نتائج غريبة . وفي رأي المؤرخ راتزل « ان الهدف الاسمي للشعوب الرحالة ليس الانتصار بل ابادة الخصم » (١) .

ويمكن القول بان الامبراطوريات التي قامت بهذه الطريقة ، سوت ما تفسخت وانهارت ، ذلك ان الاستقرار يختص بالامبراطوريات التي استتتها « المشاة » ، على ان ذلك لا ينفي مطلقا بان انتصارات الفرسان تركت بصماتها على فترات طويلة من تاريخ البشرية .

(١) رغم الجهود الملموسة التي يبذلها المؤلفون الباحثون في هذا الكعاب، للتقيد بالاصول العلمية والموضوعية ليجعلوا منه اساسا ثابتا لـ « علم الحرب » الا انهم لم يستطيعوا التحرر من تمصيصهم للحضارة الاوربية ، وقد غاب عن اذهانهم ان جميع شعوب اوربا كانت حتى القرن العاشر شعوبا بربرية رحالة ، شأنهم في ذلك كشأن بعض الشعوب التي لا تزال في هذه المرحلة الانتقالية التي في طريقها للزوال (الحرب) .

فرسان الغرب

لم تسلك « خيالة الغرب » الاوربي ، سبل خيالة الشعوب الرحالة . فقد استفادت من تطور عدة الحصان فأصبحت ثقيلة ، وذلك لحماية نفسها من اسلحة الرماية ولتعطي لعمليات الصدام قوة اعظم . ولكنها بالغت في هذه الناحية للدرجة اصبح معها الفارس والحصان مثقلان بما يزيد عن قنطار من الفولاذ ، وهكذا فقدت الخيالة الغربية كل امكانياتها على المناورة تقريبا . ومع ذلك فقد بقي الانسان الراكب مسيطرا على ساحات المعارك بصرف النظر عن خفة اسلحته أو ثقلها .

فشل الخيالة الراكبة

لم يتوقف البشر المشاة لحظة عن بذل الجهود لايجاد صيغ مستحدثة لازالة تفوق « الراكبين » ، والبحث عن الفضائل والمحسنات التي يؤمنها « العدد » . وكانت تشكيلات المشاة المتحمة في النظام المنظم ، هي التي استطاعت الصمود امام قوة اختراق الخيالة ، بفضل قدرتها العالية على امتصاص الصدمة .

ونحن نذكر في هذا المجال ، كيف استطاعت الكتائب المكدونية تحطيم هجمات الخيالة الفارسية وتردها على اعقابها بدعمها قوة صغيرة من الفرسان التي أحدثها الاسكندر وكانت المشاة المكدونية انذاك تستقبل الخيالة الفارسية ، بصفوفها المتراصة ورماحها الطويلة المحنية .

وفي القرن الثالث عشر استطاع سكان مدينة ييج (البلجيكية) ، ايقاف حملة فرسان هنري الاول (١) ، فقد تحطمت هجمات هؤلاء الفرسان على جدار من الرماح المفروزة بشكل مائل في الارض .

وهكذا ، لأول مرة منذ قرون عديدة استطاعت وحدات المشاة ان تصمد امام خيالة واثقة من تفوقها المطلق ، وتوقع بها الهزيمة في معركة بالنظام المنتشر .

(١) هنري الاول (١٢٠٤ - ١٢١٧) ملك قشتاله الاسباني .

وفي مدينة كورتريه^(٢) ، كبد الفلامانديون الخيالة الفرنسية الثقيلة ، هزيمة ساحقة ، لان هذه الخيالة لم تكن قادرة على المناورة في اراض وعرة .

والواقع ان السويسريين هم الذين اوصلوا الفن العسكري الى اوجه في القرن الثالث عشر ، وكانوا اول من احيا علم القدمات العسكري ، الذي دمرته العصور الوسطى . فقد انشا السويسريون وحدات مشاة حقيقية تشبه الكتائب المكدونية والجحافل الرومانية^(٣) ، واستخدموا في القتال اسلحة جديدة تتلاءم بشكل خاص مع المشاة فأعادوا اليها شبابها بعد ان عفا عليها النسيان طوال ألف عام تقريبا .

وبفضل هذا التجديد اصبح المرتزقة السويسريين يحصلون على أعلى الاجور ، ويتنافس في طلبهم كل ملوك اوربا . واصبح المثل الذي يتردد على كل اللسان في اوربا هو :

« ما في فلوس ، ما في سويسريين » . .

اوليس هناك مرتزقة سويسريين بدون مال .

وما ذلك الا بسبب الشهرة التي حصلوا عليها كمقاتلين لا يغلبون في ساحات المعارك » .

وهناك انتصارات اخرى حصل عليها رماة القوس ضد الخيالة ، كما حدث في معركة آزينكورت^(١) ، الا ان هذه الانتصارات كانت نتيجة لرعونة الفرسان الفرنسيين المفرطة .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من اختراع القذافة^(٢) التي تفوق بقوتها ، قوة

(٢) كورتريه : مدينة بلجيكية ، حدثت فيها موقعة تاريخية هزم فيها الفرسان الفلامان الخيالة الفرنسية الثقيلة .

(٣) اعتمدنا كلمة كتيبة كترجمة لكلمة (فلانجي) ، وكلمة جحفل كترجمة لكلمة (ليجيون) ، توخينا للسهولة وعدم الخلط بين الاصطلاحين خاصة اننا لم نعثر في العجم العسكري على تعريب لهما (العرب) .

(١) آزينكورت : منطقة البادوكاليه الفرنسية الواقعة على ساحل المانش مقابل الجور البريطانية . وقد جرت فيها المعركة التي هزم فيها الانكليز الخيالة الفرنسية في تشرين الاول ١٤١٥ م

(٢) القذافة : سلاح لقذف الاسهم الثقيلة والحجارة ، وهو اقل من القوس المبسط .

القوس البسيط ، فقد ثابر سلاح الفرسان على الظهور في ساحات المعارك ،
لي لعب دورا لا يمكن الاقلال من اهميته .

استمرت المعارك على هذا المتوال قرونا طويلة . وكان لا بد من انتظار ظهور
الاسلحة النارية وتطورها ، لكي يتبدل هذا الوضع ، وتصبح الحرب يوما بعد يوم
من اختصاص الجنود المحترفين - مثل عصابات البيكاردي ، والمرتزقة
السويسريين ، والمرتزقة الجرمان ، والمرتزقة الطليان ، وتفقد كل اثر للمثالية
والفروسية وتأخذ طابع « العلم الذي لا يعرف الرحمة » .

ومما يذكر ان معركة رافين^(٣) ، سجلت اول انتصار للمدفعية خلال
الحروب الايطالية . وبعد ذلك بثلاث سنوات (اي في عام ١٥١٥) فتحت مدفعية
فرانسوا الاول (ملك فرنسا) الثغرات في صفوف الكتائب السويسرية في معركة
مارينيان^(٤) .

هذا وقد استخدمت المدفعية في عمليات التمهيد للمجوم فدمرت القلاع
الحصينة ، وادت بذلك الى تطوير فن التحصينات .

اما « وحدات الخيالة » ، التي اظهرت عجزها في مقاومة البندقية القديمة
ذات الفتيل والقربينة^(١) فقد استعادت مميزاتا بعد ادخال الفدارة (او
المسدس) الى المعركة .

ومع ذلك لم يستطع فرسان التتار والمغول استرداد فعاليتهم والصمود
امام المدافع والاسلحة النارية الاخرى . وبذلك استطاعت الصين وروسيا
القيصرية ، التحرر من عبودية الاقوام الرحل الذين لم يتمكنوا من الحصول
على الاسلحة الحديثة المماثلة .

وعند سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م على يد الاتراك احفاد الفرسان
النبالة ، كان الفضل في انتصارهم على الرومان ، وتحطيم آخر جدار روماني

(٣) رافين : احدى المدن الايطالية الغنية في الشمال وقد دفن فيها الكاتب المشهور دانتي .

(٤) مارينيان : مدينة ايطالية بالقرب من ميلانو .

(١) القربينة : هي اول سلاح ناري قابل للحمل على كتف جندي المشاة ، استخدم في نهاية

القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر .

لمدفيعتهم الرهيبة . وسجلت هذه المعركة التاريخية الحاسمة ابتداء عصر جديد ، الا وهو عصر الاسلحة النارية وعلى رأسها المدفعية « سيدة المعركة » .

وبالرغم من هذا الحدث العظيم ، فان روح الفروسية ، وسلاح الفرسان نفسه ، حافظا على مكانتهما في الحروب ، ولم يختف الخيالة من ساحات المارك . وفي عهد نابليون الاول استعادت الخيالة رونقها - فكانت الخيالة الخفيفة - الهوسار والجواله - تقوم بمهمة البحث عن المعلومات (الاستطلاع) وتغطي فيالق المشاة ، بينما تسعى الخيالة الثقيلة المدرعة لتحقيق القرار الحاسم بالانقضاض العنيف الخاطف ، بعد ان تقوم المدفعية برمايات التمهيد .

ولم يشهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اختفاء الخيالة من ساحة المعركة ، بل على العكس فقد عرفت ازدهارا ومجدا جديدا . ولكن التقنيات لم تسمح لها بمسايرة تطور الاسلحة الحديثة وقوتها النارية ، وادى ذلك الى فقدانها المقام الاول الذي تمكنت من الاحتفاظ به خلال فترة تقارب الالف عام .

وفي القرن التاسع عشر اعطت حملات لواء الفرسان الخفيف البطولية معركة بالاكلافا (١) ، وحملات الخيالة المدرعة في معركة ريشهوفن (٢) عام ١٨٧٠ م اعطت للشعراء والرسامين الفرصة لانتاج اعمال فنية رائعة كتب لها الخلود ، ولكنها ، ويا للأسف ، كانت طافحة بمشاعر اليأس لانها لم تؤثر على نتائج المارك .

وبلاحظ استمرار الخيالة في بداية القرن العشرين واشتراكها في الحربين العالميتين الاولى والثانية . وفي هذه الفترة لم تكن وحدات الفرسان الفرنسية (المسماة دراغون) او (التنين) ، والخيالة الالمانية المسماة (اوهلان) تختلف

(١) بالاكلافا : احد موانئ الاتحاد السوفياتي ، في منطقة القرم الاوكرانية على البحر الاسود . حدثت فيها المعركة التاريخية بين الروس والانكليز عام ١٨٥٤ ، واشتهرت بالانقضاض الذي قامت فيه الخيالة الانكليزية ..

(٢) ريشهوفن : مدينة المانية على الحدود الفرنسية .

من حيث الشكل عن خيالة الاسكندر الكبير المكدوني ، برماح فرسانها وخوذهم المزينة بشعور اعراف الخيول (بالنسبة للفرسان الفرنسيين) .

وفي عام ١٩٣٩ راينا الفرسان البولونيين ينقضون بشجاعة خارقة بلغت حد الجنون ، على الدبابات الالمانية ، فتحصدتهم هذه بنيرانها وتسحقهم مع خيولهم ، وتضع نهاية مأساوية للحمة الحصان .

عصر المدرعات

تم تجهيز العربات المصفحة لأول مرة بالمحركات الانفجارية . ومنذ ذلك الوقت اخذ هذا السلاح الحديث يسيطر على ساحات المعارك (٢) كوريث بعيد جدا للعربات الحربية الاشورية والبابلية .

ولم يقتصر تراجع الحصان عن ساحات المعركة فحسب ، بل رايناه في نفس الوقت ينسحب تدريجيا امام المحرك من النشاطات السلمية المتنوعة في المدن والارياف . وهناك بعض الامثلة المعبرة عن هذا التطور في الريف الفرنسي ، ففي بعض قرى الجنوب المشهورة بزراعة الكروم التي لم يكن تعدادها في عام ١٩١٤ يزيد عن (٨٠٠) نسمة ، كانت تحتوي على ما يزيد عن (١٣٠) حصانا ، أما في عام ١٩٧٩ وبعد ان وصل تعداد سكانها الى (١٦٠٠) نسمة لم نجد فيها سوى حصان واحد .

الحصان يستعيد شبابه

على الرغم من المصائب التي حلت بالخيول بعد تطور الاسلحة النارية ، واستخدام المحركات الانفجارية ، فقد رفض الحصان بعناد الانسحاب من الساحة نهائيا لينضم الى اكاداس المخلقات التي ورثها الانسان من العصور القديمة . وها نحن نراه في عصرنا الحديث يفرض نفسه في ميادين رياضة

(٢) لم تعد سيطرة المدرعات على ساحة المعركة سيطرة مطلقة بعد تطور مختلف انواع الصواريخ والاسلحة المضادة للدروع . وقد ظهر ذلك بوضوح في حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل .

الفروسية ، ويبعث من جديد بعض المعاني الطبقية ، وصفات الجاه والنبالة
والثراء .

ففي هذه الايام اصبح ركوب الخيل بالنسبة للشباب رمزا للانتماء
الاجتماعي . وقد ازداد عدد جمعيات الفروسية ، في فرنسا) في السنوات
الاخيرة ، الى الحد الذي اصبح من الصعب احصاءها بشكل دقيق . وغدا
تجوال فرق الفروسية والمباريات ، وسباق الخيول ، من الامور العادية المعروفة
في الريف والمدن الكبرى . ويبدو ان الشباب شغفون بهذه الرياضة ، وهم
يشعرون بالسعادة والكبرياء عندما يمتطون جوادا اصيلا ، شأنهم بذلك كشان
الفتى ستندال عندما كان ضابطا برتبة ملازم في سن التاسعة عشر ، فقد تذكر
مشاعره العميقة وسعادته عندما وصف مسرح عمليات واترلو فكتب في روايته
« ديردويلرم » : لقد تملكنتني سعادة مجنونة . . . ويضيف واصفا بطل الرواية
فيقول : « لم يشعر فابريس ديل دونغو^(١) بالسعادة وهو يجد نفسه بين قوائم
حصان شرس » .

(١) فابريس ديل دونغو : بطل رواية ستاندال (ديردويلرم) وهو فتى طموح متعطش
للمجد والسعادة .

الفصل الثامن

الحروب واستبداد الشرق

لقد طبعت استبدادية الشرق ، طوال ثلاثة الاف عام ، العلاقة الوثيقة بين الحضارات والحروب ، بعرباتها وخيالتها .

تعاقب الامبراطوريات الشرقية

ان الحضارات الاولى القديمة التي نشأت في وديان الانهار الخصبة في اسيا الصغرى ومصر ، لم تعرف الحصان الا في الالف الثانية قبل الميلاد ، عندما ادخله اليها سكان السهوب والهضاب العالية .

وسرعان ما اصبح هذا الحيوان اداة توسع مخيفة ، سمحت للممالك والامبراطوريات العسكرية باختراع عربات القتال المجرورة ، كما مكنتهم من انشاء جيوش قوية سريعة الحركة .

وكان الهكسوس ، هم الذين علموا فراعنة مصر استخدام العربة الحربية ، وبفضل مدرستهم استطاع المصريون خلق جيوش قادرة على نقل الحرب خارج حدودهم .

وتروي المخطوطات التي وجدت في معبد الكرنك (مصر) ، بعض المعارك التي خاضها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ويبدو من هذه الوثائق ان تحوتمس كان يملك اعدادا كبيرة من عربات القتال ، ووحدات عسكرية سريعة الحركة قادرة على المناورة مما ساعده على ايقاع الهزيمة

بالسوريين في موقع ماجدو ، والحصول على غنائم هائلة في ساحة المعركة كان من بينها العديد من العربات الحربية .

وقد سهل الحصان تنظيم الحملات البعيدة ، فبعد معركة ماجدو ، استولى تحوتمس على فلسطين وفينيقيا ، ونقل حدود مصر من سيناء الى مملكة ميتاني^(١) وراء نهر الفرات .

وقد اتقن الاشوريون الفن العسكري وطوروا عربات القتال ، واستخدموها لحماية المشاة والوحدات الهندسية . ويفضل هذا السلاح الحديث باشر الملك تفلاتفلاصر الاول حروبه التوسعية حوالي عام (١١٠٠) ق.م ، فاندفع نحو البحر الاسود شمالا ، والبحو الابيض المتوسط غربا ، وانشأ احدى اوسع الامبراطوريات في العصور القديمة .

وفي القرن التاسع ق.م استأنف ملوك اشور الحروب التوسعية ، فنظموا حملات سنوية بعيدة المدى ، واستطاعوا تحطيم مقاومات الشعوب المجاورة . واعطى اشور بانيبال الثاني للامبراطورية الاشورية اتساعا عظيما ، وظهرت لأول مرة في التاريخ « قطعة عسكرية » استطاعت فيما بعد ان تلعب دورا حاسما في الحروب خلال مئات السنين ، وهذه القطعة هي « سلاح الفرسان » .

ومع ذلك فقد عرفت الامبراطورية الاشورية فترات من السكون والخمول لان الشعوب الخيالة تقيم احيانا امبراطوريات اقل استقرارا من شعوب المشاة .

وحوالي عام (٦٥٠) ق.م بدأت مرحلة جديدة رائعة عندما شهدت بابل فترة من الازدهار استطاعت خلالها رد الاشوريين حتى منابع انهار بلاد ما بين النهرين . ولكن الاشوريين ما لبثوا ان استعادوا الاراضي المحتلة حتى الخليج (العربي - الفارسي) واستولوا على فلسطين ، ونفوا اليهود من القدس الى بابل ، ثم تابعون سيرهم الى دلتا النيل ونقلوا حضارتهم الى (طيبة) المدينة الفرعونية اللاهوتية (في مصر العليا) .

(١) مملكة ميتاني : مملكة تقع الى الشرق من نهر الفرات (ارمينيا الحالية) انفصلت عن مملكة الحوريين في القرن السادس عشر ق.م ثم ضمها الاشوريون الى امبراطوريتهم في القرن الخامس عشر ق.م .

واستمرت الامبراطوريات العظمى تهيمن على الشرق الاوسط : فكانت الامبراطورية الفارسية في القرن الخامس ق.م في عهد سيروس العظيم . وفي القرن الرابع قبل الميلاد امتدت الامبراطورية الاغريقية ، في عهد الاسكندر المكدوني ، من الحوض الشرقي للبحر المتوسط حتى ضفاف نهر الهندوس ، حيث اصطدمت الحضارتان الاوربية والاسيوية لأول مرة في التاريخ وتداخلتا ببعضهما البعض .

واتت بعد ذلك سيطرة الامبراطورية الرومانية التي لم تشهد مطلقا هذا النوع من الحملات السريعة الكبرى التي قامت بها وحدات الخيالة ، بل كان توسعها اقل سرعة واكثر استمرارا . ذلك ان الرومان شعب من المشاة وسعوا امبراطوريتهم واقاموا بها القواعد الصلبة . ومع ذلك فقد انهارت تحت ضغط هجمات البرابرة الفرسان الذين انطلقوا من فياقي اسيا الوسطى .

وبعد انتصارات قبائل الهون في القرن الخامس الميلادي ، والفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر ، اعيدت الى الذاكرة فتوحات وانتصارات الامبراطوريات العظمى في العصور القديمة . فقد كانت الاراضي التي احتلها جنكيزخان (١) ومن بعده تيمورلنك (٢) تغطي مساحات هائلة تعادل نصف قارة آسيا .

وعرفت البشرية من خلال هذين القائدين وجيوشهما المحموة بكاملها على الخيول ، تلك الصفات التي تتميز بها الشعوب الخيالة . فاثبتت حملاتهم الخاطفة امكانياتهم العسكرية الخارقة ، كما كشفت نقاط ضعفهم البارزة ايضا : الا وهي عدم قدرتهم على الاستمرار .

(١) جنكيزخان : لقب تيموجين مؤسس اول امبراطورية مغولية (١٢٢٧ م) ، اختاره الشعب المغولي « خانا اعظم » عام (١٢٠٦ م) استولى على الصين الشمالية عام (١٢١٥ م) ثم تحول شمالا فاستولى على روسيا وافغانستان واوريا الوسطى واسس امبراطورية على الطامة العمياء والاستبداد .

(٢) تيمورلنك : ولد في كيس بالقرب من سمرقند (١٣٣٦ - ١٤٠٥ م) . اجتاحت ايران والجزء الواقع بين دلهي وبغداد . وهزم السلطان العثماني بايزيد الاول عام (١٤٠٢ م) . وتوفي أثناء حملته لاحتلال الصين .

الامبراطوريات والاستبداديات الشرقية

كانت تجمع بين الامبراطوريات القديمة قاسم مشترك رغم تنوع الاجناس واختلاف الازمنة . فما ان تنجز الفتوحات ، حتى تبرز في هذه الامبراطوريات الصفات التي تميزت بها واصبحت تعرف بـ « الاستبداديات الشرقية » . فالعاهل واسرته مؤلهون او منحدرون من الالهة . بل ان فرعون مصر لم يكن مؤلها فحسب بل هو الاله نفسه . وفي فارس كانت الالهة نفسها هي التي اختارت خليفة سيروس . وبعد خلع خليفته عن العرش رضح المرشحون للعرش ، لارادة الالهة ، التي رغبت ان يتم اختيار الامبراطور بواسطة جياد المرشحين . فالمرشح الذي يصلح حصانه قبل بقية الاحصنة ، سيكون هو الامبراطور الذي تختاره الالهة . وهكذا كان « داريوس » هو الذي نال حظوة الالهة الفارسية ولم يكتف باعتلاء العرش بل نال ايضا صفة الالهية .

وتدلنا هذه الحادثة الواقعية على المكانة المقدسة التي اعطيت للحصان في الحضارة الفارسية .

والبازيلوس^(١) او ملك الملوك الذي ينتخب بالطريقة المذكورة ، او باية طريقة اخرى ، مهما اختلف الزمان والمكان ، ليس آلهة كما هي الحال عند الفراعنة ، ولكنه عاهل يتمتع بحق الهي مقدس ، الامر الذي يسمح له بان يحكم رعيته باستبدادية مطلقة وشاملة . والملك يحيط نفسه عادة ببلاط (او حاشية) فاخر ، ونظام تشريفات شديد ينظم مراسم الاحتفالات بادق تفاصيلها . ولم يكن الملك يظهر امام الجماهير الا نادرا ، وفي الحالات التي يضطر فيها لمفادرة القصر ، لا يحق للعامة الساجدون بان يتأملوا محياه الكريم . وقد استمرت هذه التقاليد في اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ويقوم الملوك عادة في قصور تشاد غالبا في قلب المدينة . ويشتمل « حريمه » على عدد لا يحصى من الزوجات والمحظيات اللواتي يتم اختيارهن من بين

(١) بازيلوس : كلمة يونانية تعني الملك .

اجمل نشاء مقاطعات الامبراطورية ، او من الاسر المالكة التي يتم اخضاعها اثناء الغزوات على الممالك المجاورة .

و « الحريم » هي البؤرة التي تنبت فيها الفتن والمؤامرات ، وهي الساحة التي تتطاحن فيها الزوجات والمحظيات على النفوذ والسلطة ، ويحاولن بهذه الوسائل الرهيبة تنصيب ابناءهن كخلفاء للملك الذي هو زوجهن وسيدهن في وقت واحد .

ويذكر لنا التاريخ النزاعات التي نشبت بين زوجات الملك داوود حول وراثة العرش ، التي آلت اخيرا لسليمان ، ابن المدعوة بيث سايبه كما يذكر لنا ايضا الخصومات بين زوجات الرسول (محمد صلعم) بعد وفاته . وفي الامبراطوريات والممالك الشرقية ، توصل الخصيان (عبيد البلاط) ايضا الى درجة التدخل في شؤون الحكم ، ومارسوا في بعض الاحيان نفوذا كبيرا في ادارة البلاد .

والى جانب هذا البلاط (او الحاشية) الذي تضرب فيه الفوضى اطنابها وتحاك المؤامرات بالرغم من المراسيم الصارمة ، كان الملوك دائما ينظمون ادارات مركزية فعالة . فالامبراطورية الفارسية مثلا كانت مقسمة الى اقاليم ، يحكم كل اقليم منها مرزبان ، وهذا المرزبان يمارس حياة ملؤها البذخ والرفاهية . وتتصل الاقاليم فيما بينها من جهة وبالعاصمة المركزية من جهة اخرى بطرق ملكية معتنى بها . وتقام عادة على هذه الطرق الاستراحات والمخافر ، حيث يجد الرسل الرسميون ، الخيول الجاهزة ، التي تسمح لهم بقطع المسافات الطويلة بأوقات قصيرة نسبيا ، وعلى سبيل المثال : كانت مدينة سارد^(١) (الواقعة الى الشمال من الساحل السوري) تبعد حوالي (١٥٠٠) كم عن العاصمة الفارسية سوز بالقرب من الخليج العربي - الفارسي . كانت هذه المدينة تتلقى الاوامر الصادرة عن الملك خلال مدة لا تزيد عن اسبوع واحد .

(١) سارد : مدينة في اسيا الصغرى تقع على ساحل بحر ايجه ، وكانت عاصمة للمملكة ليديا ، وهي مشهورة بثرواتها .

الاستبدادية الشرقية وتعميم الحرب

كانت الامبراطوريات الاستبدادية تختار للحروب معظم مقاتليها من المرتزقة الذين ليس لهم صلات وثيقة بالمواطنين .

وفي عهد نعتيمس الثالث والفراعنة الاحدى عشر الذين اطلق عليهم اسم رمسيس ، انطبع الجيش المصري بحرب التحرير الوطني ضد الهكسوس ، ومع ذلك لم يكن الفضل في حروب هذا الجيش يعود للمجندين من المقاطعات ، لان الجيش كان مؤلفا في غالبته العظمى من وحدات الحرس الملكي والمرتزقة الذين تم تطويعهم من مصادر اجنبية .

وقد كتب المؤرخ ستيغمان ، في هذا الصدد ما يلي :

« انضم الى المرتزقة المحترفين الذين تم تطويعهم من ليبيا وبلاد النوبة ، مرتزقة مسلحون من سارد ولصوص وقراصنة ، كانوا يزرعون الفوضى على سواحل البحر المتوسط ، وكان هؤلاء شهرة معروفة كعناصر من المشاة الثقيلة . ومع هذا النوع من المقاتلين ظهر في تاريخ الحرب ما يسمى بـ « العساكر المرتزقة » ، وكان بدو شبه جزيرة سيناء وسكان وادي الاردن يقدمون كالعادة رماة القوس والمقلاع ... » . ومن هؤلاء الاجانب كانت تشكل معظم وحدات الجيش المصري .

وبهذه الطريقة نفسها كانت تشكل وحدات « النخبة الممتازة » في سلاح الفرسان وسلاح المشاة ، والفرق المشهورة في الجيش الفارسي . وكانت الفرقة في هذا الجيش تتألف من عشرة الاف مقاتل معظمهم من المواطنين الفرس ، ولكن الكتلة الكبرى في الجيش الفارسي كانت تتكون من المرتزقة اليونان . ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء المرتزقة اليونان ، كانوا يخوضون الحروب الطويلة التي اشتبكت فيها الامبراطورية الفارسية ضد ائينا .

وكان اختلاط السكان يتم احيانا عن طريق الاحتلال العسكري للمقاطعات الاجنبية . اما الحاميات فتشكل عادة من الوحدات الاجنبية الغريبة عن

البلاد ، فهي يهودية وبابلية في مصر ، واناضولية وأرمنية وسورية وعربية وحتى هندية احيانا في بابل .

ومن الملاحظ ان الاستبدادية الشرقية في عصر الممالك العسكرية كانت تقوم على الحروب المستمرة : فالملوك والطبقة الارستقراطية يحرضون على الحرب أملا في زيادة سلطتهم وثرواتهم ، ولكنها تنتهي دائما الى التبذير بالارواح البشرية والثروات المادية ، وتؤدي الى تهجير السكان الذين يتحولون عادة الى عبيد . وهذا هو المصير الذي لقيه اليهود في بابل .

وكان التهجير النموذجي لسكان البلاد المغلوبة ، يتلاءم مع سياسة الامبراطورية الاشورية المتعسكة .

ومنذ عهد قريب كان لدى الامبراطورية العثمانية مرتزقة من نوع خاص جدا ، اطلق عليهم اسم العساكر الانكشارية فبعد ان استقر الاتراك في اوربا البلقانية ، فرضوا على المقاطعات المسيحية المحتلة ضريبة عينية من الاطفال ، يخصصون لخدمة السلطان . وكان هؤلاء الفتيان ينتزعون من أسرهم عنوة ، ويطوعون في وحدات المليشيا حيث يتلقون التدريبات العسكرية والدينية . وكانت تربيتهم تخضع لرقابة شديدة تجعل منهم مسلمين متعصبين يمتازون بالطاعة والولاء الاعمى لقادتهم . وبعد انتهاء فترة التدريب ، يؤخذ هؤلاء الانكشاريين الى فيالق الفرسان ، ويخضعون لانضباط حديدي ، وكانوا يقاتلون بايمان عميق ووحشية معروفة ، من اجل مجد وعظمة السلطان (امير المؤمنين) . وقد وصل تعداد هذه الوحدات الى ما يزيد عن (١٠٠) الف رجل . وفي القرن الخامس عشر كانت اول تجربة للجيش النظامي الدائم في الامبراطورية العثمانية ، ولكنها أدت الى قيام دولة حقيقية داخل الدولة نالت شهرة واسعة رافقتها حتى زوال الامبراطورية العثمانية في بداية القرن العشرين (الحالي) .

اختلاط الاسر المالكة

عندما تكون الاسرة المالكة من اصل اجنبي ، فانها تعتمد غالبا على قوة عسكرية يتألف عناصرها من القبائل او البلد الذي تنتمي اليه . وقد تجسد

هذا الوضع في مصر حوالي القرن العاشر الميلادي عندما تولى الفاطميون زمام السلطة . والواقع انهم استولوا على مصر دون ان يلاقوا مقاومة جدية ، وبدون قتال ، بعد ان شنوا حملة دعاية بارعة شلت ارادة المواطنين .

وفي ظل هذه الاسرة (الفاطمية) اصبحت مصر دولة مستقلة وتحولت القاهرة الى عاصمة زاهرة تستهوي نفوس المعاصرين بثرواتها الطائلة .

ومن الصعب جدا تكوين فكرة اجمالية واضحة عن الجيش الفاطمي ، ذلك الجيش الذي كان تشكيله يختلف باختلاف اهواء الخلفاء ووزرائهم . ومع ذلك فقد كان جميع هؤلاء الخلفاء يتقيدون ببعض القواعد الاساسية ، المعروفة انداك ، واهم هذه القواعد الا يكون للخليفة جيش مؤلف من عناصر منسجمة تنتمي لاصل واحد ، لانهم في هذه الحالة لا يضمن ولاؤهم للخليفة ، ولا يكون عندهم الوازع اللازم للخدمة الحسنة . والى جانب هذا التنوع الواسع في الجيش كان الخليفة الفاطمي يعتمد اعتمادا قويا على القبائل التي ينتمي اليها شخصا .

ونحن نشهد مثل هذا الاسلوب في ايامنا الحالية في احدى الدول الاسلامية الحديثة (هي المملكة الاردنية الهاشمية) . فالملك حسين استطاع دائما مقاومة الضغوط الداخلية والخارجية بفضل الولاء غير المشروط لمواطنيه من ابناء القبائل البدوية المخلصة لاسرته الهاشمية منذ عدة اجيال .

لهذا يمكن القول بأن بعض القواعد التي وضعت منذ اقدم العصور لاتزال قائمة وسارية في هذه الايام .

وتؤكد المعلومات الموثوقة ان الصين شهدت في القرن الثاني عشر نفس هذه الظاهرة ، عندما استولى احد القادة من اصل منشوري على السلطة ، مستفيدا من النزاعات الداخلية التي مزقت الامبراطورية . وترجع اسباب هذا الحدث التاريخي الى ضعف واخطاء الصينيين ، اكثر مما ترجع الى تفوق خصمهم المنشوري . ويمكن تشبيه استيلاء المنشوريين على الصين بالانتصارات التي حققها المغول ، فقد هيمن هؤلاء على الصين عن طريق الاحتلال العسكري حيث تم تقسيم البلاد بكاملها الى مربعات ، يخضع كل مربع منها

الى حامية مستقلة . واعتمد المنشوريون على اسلوب في الحكم خاص بهم .
فكان ضباطهم يتعاونون مع السلطات الصينية المحلية التي احتفظوا بها واستمرت
بممارسة الادارة تحت اشرافهم .

وقد سمحت هذه السيطرة غير المباشرة للجيش المنشوري على الجهاز
الاداري الامبراطوري القديم ، سمحت للأسرة الحاكمة المنشورية بأن تنفوس بقوة
ولمدة ثلاثة قرون تقريبا في الصين ، رغم كونها غريبة عنها .

* * *

الفصل التاسع

الحروب المقدسة وعقليات الشعوب

تعتبر الحروب المقدسة ، الدينية والايديولوجية (العقائدية) الدليل المدهش ، على تفاعلات العقليات والروح الحضارية والصدمات الدموية التي كانت تتجابه فيها المدن الجشعة .

وفي جميع الحضارات التي تسيطر فيها العقلية الكهنوتية ، كانت الحروب من نواح عديدة حروبا مقدسة .

والواقع ان الصدمات الاولى التي حدثت بين بني البشر الاوائل ترجع لاسباب ذات طبيعة مادية : للسيطرة على المرات الى مناطق الصيد او الاراضي الزراعية الخصبة ، او الثروات المتراكمة في المدن ، وفي بعض الاحيان الحصول على الزوجات او العبيد . ومن الامثلة على هذه الحروب تلك التي نشبت بسبب حادث اختطاف السابينين^(١) من قبل الرومان ، وحرب طروادة التي نشبت بسبب اختطاف هيلينا ، ولكنها مع ذلك كانت تبطن اسبابا اقتصادية عميقة .

الحرب والآلهة

منذ ان اصبح الانسان « حيوانا متدينا » اخذت الحرب احيانا طبيعة خاصة : فهي تعلن باسم الدين وتدار بحماس صادق ، ويقاثل الانسان في هذا النوع من الحروب متطوعا لخدمة الهه ، او من اجل آلهة مدينته ، وهو يؤمن في

(١) السابين : هم سكان مقاطعة سابين في ايطاليا القديمة الوسطى الذين اختطفهم الرومان ليحولهم الى عبيد وهو حادث تاريخي مشهور .

كل هذه الحالات انه ينال بمساهمته الفعلية في الحروب الدينية ، الضمانات اللازمة لحياته في العالم الآخر .

فالمساهمة بالحرب على هذا الاساس انما هو واجب اخلاقي فرضته الالهة على البشر ، او بالاحرى واجب فرضه البشر على انفسهم باسم الالهة . ولهذا فالاله لا بد الا ان يكون مؤيدا للحرب التي تشن باسمه ، ولا بد الا ان تكون القضية المدافع عنها قضية عادلة .

وقد كتب بيفي في الازمنة الحديثة بهذا المعنى بمجد الاستشهاد من اجل الوطن فقال :

« طوبى لأولئك الذين يموتون في حرب عادلة وهم يدافعون عن الوطن الام » .
فما هي الحرب التي يمكن ان تكون اكثر عدلا من تلك التي تشن باسم الدين ؟ وهل في المجتمعات التي يحتل فيها الدين مكانة عظيمة ، محرك اقوى من ذلك الذي كان يدفع البشر للاقتتال من اجل مثلهم الاعلى ومعتقداتهم وآلهتهم ؟ ففي النزاعات التي كانت تنشب بين قبيلتين او مدينتين ، كان الناس يعتقدون ان آلهتهم تشتبك في القتال الى جانبهم .

حروب العبرانيين والشرق القديم

قامت جميع الحروب العبرانية على اساس ايمانهم باله واحد ، هو الاله « يهوه » . وبعد خروجهم من مصر عقد رائدهم « موسى » تحالفا مع « يهوه » يتعهد بموجبه الاله . . اهداء ارض الميعاد للشعب المختار .

والواقع ان موسى كان « رجل دولة » حليم ومتنور نجح في حكم شعبه دون الحاجة لاراقة الدماء . اما « القائد يوشع » الذي جاء بعده ، فكان محاربا شرسا ، استولى على « ارض الميعاد » بالقوة . وقام بعد ذلك « جدعون » بالانتقاض على مدينتين في يهوذا^(١) وقتل سكانهما بحد السيف .

وحوالي عام ١٢٠٠ ق.م ، شكلت قبائل اسرائيل الاثني عشر فيما بينها

(١) يهوذا : هي جزء من الضفة الغربية في فلسطين .

اتحادا يقضي بالاندماج الديني لهذه القبائل الرحل من اجل الدفاع عن مذبحهم .
وقد استند هذا « الوفاق » على الفكرة القائلة بأن جميع القبائل المعنية تنحدر
من « جد مشترك » هو « ابراهيم » ، وان لهم اله واحد هو « يهوه » ، وهو
ايضا اله آبائهم . كما نص الاتفاق على ان يقف الى جانب زعمائهم ، جماعة
من « الحكماء » مهمتهم حماية الديانة والحق المقدس . وبالرغم من « الاندماج »
المذكور وجدت القبائل نفسها في وسط عدواني ، وبين شعوب لا تعبد الاله
« يهوه » ، وكان من بين هذه الشعوب : الشعب الفلسطيني الذي يقطن على
الشواطىء الفلسطينية ، ويشكل رابطة من المدن المستقلة ذاتيا ، بموجب نظام
يشبه اتحاد المدن الاغريقية .

ولما كان الفلسطينيون تجارا اذكياء ، فقد مارسوا ضغطا شديدا على
جيرانهم الاسرائيليين . ولكي يجابه هؤلاء الضغط الفلسطيني اضطروا لانتخاب
قائد من بينهم : هو شاؤول الذي كان اول من حاز على لقب ملك بين افراد
الشعب اليهودي .

وقد لاقى شاؤول المتاعب الجمة في محاولاته لاحتواء الشعب الفلسطيني ،
الى ان وجد نفسه في النهاية مضطرا للتخلي عن السلطة لداود ، الذي نجح
— بعون من يهوه — في اخضاع القبائل الملحدة من الامونيين والموايين والايدوميين
وان يؤسس مملكة قوية (٢) .

ادرك الاسرائيليون اهمية الرابطة السياسية الصلبة بين القبائل بسبب
التهديد الفلسطيني ، وكان الايمان باله واحد هو الملاذ الفعال للاتحاد ، بين
القبائل بالاضافة للخطر الفلسطيني . لذا كانت جميع حروب اسرائيل في
جوهرها « حروبا دينية » وكان الايمان بيهوه يدعم هذا الشعب في مصائبه
وسوء حظه . وكان الشعب الاسرائيلي بأجمعه يساهم في هذه الحروب الدينية
وهو يؤمن ايمانا عميقا بعدالة قضيته وبالدعم الالهي حتى النصر النهائي .

اما في الحضارات ذات الاصول الشرقية ، كالحضارة الفينيقية والحضارة

(٢) مملكة داود .

القرطاجية بشكل خاص ، فكانت « الخصوصية الدينية » (١) توجب ابعاد الاقوام الاجنبية عن المعابد . وتمتاز آلهة المدينة في هاتين الحضارتين بأنها آلهة « غيورة ومانعة » فهي لا تمنع رعايتها الا للبشر الذين ينتمون الى عرقها ، والذين تربطهم روابط الدم والدين ، ويرفضون رعاية الاجانب .

وكان الفينيقيون يعبدون الاله مولوخ— وهذا يعني الملك — (٢) ، وهو اله مرعب يفرض ان تقدم له الاضاحي من الاطفال الصغار الذين يلقي بهم احياء في النيران الملتهبة .

وفي قرطاجة قدم السكان للالهة اثناء حصار الرومان لمدينتهم عام ١٤٦ ق.م مائتا طفل من اعرق الاسر ، كضحايا لالهتهم لكي تساعد على دحر اعدائهم . (ولكن آلهتهم لم تكن جشعة فحسب بل كانت عاجزة ايضا فلم تنجهم من بطش الرومان) .

وقد عثر في مكان المذبح الذي جرى فيه احراق جثث الاطفال على العظام المتكلسة التي تدل على هذه المجزرة الوحشية التي اعتبرها الفينيقيون ضرورة لارضاء آلهتهم ..

وفي حضارات « القارة الامريكية » التي سبقت عصر كولومبس ، فنجد عند شعب الازتيك (في المكسيك) اسلوبا من التضحيات اشد قسوة واكثر دموية ، ولكنهم يختلفون عن الفينيقيين بشيء هام ، وهو انهم يختارون « اضعائهم » من الاسرى الاجانب .

ان هذه الصفات الدينية ، كانت بارزة عند معظم شعوب العصور القديمة . فعبادة الالهة راسخة بعمق عند الاشوريين في عهد حمورابي ، ولهذا كانت قصائد الشعر الطويلة ، وملحمة خلق العالم وملحمة جلجاميش ، والاناشيد الكثيرة والصلوات ، كلها مطبوعة بهذا الطابع الديني .

(١) الخصوصية الدينية : هنا تعني نوعا من حصر الديانة على شعب او طائفة ما دون غيرها .
(٢) لاحظ هنا التقارب في لفظة مولوخ ولفظة ملك العربية .

وفي بابل ، كان الاله الاكبر « مردوخ » الها زراعيا يشبه الاله « زوس » عند الاغريق .. وتقول الاساطير ان « مردوخ » دمر العمالقة الشياطين الذين خرجوا من الفوضى ، ورافق الملوك في فتوحاتهم . اما الكهنة الذين يمثلونه على الارض فيحتلون مراكز هامة في جميع مجالس الدولة ، والمناقشات التي تجرى على اعلى مستويات السلطة .

وفي مصر كان فرعون اقرب الناس الى الاله ، بل هو نفسه منحدر من سلالة الالهة ، واله حي (على صورة البشر) هبط الى الارض ، والالهة متحدة معه ، ومتقصة فيه .

وهكذا نرى ان الاله ممثل هنا اي عند المصريين جسديا ، بينما نجده عند اليهود (العبرانيين) رمزا غير مرئي ولا ملموس ، ويستخدم « تابوت العهد القديم » كمظلة لليهود . وعلى الرغم من ان هذا الاله لا يرى على شكل انسان او اي شيء آخر ، فانه يظل دائما « اله الجيوش » الاسرائيلية يقف في وسط المحاربين ويدير عملياتهم ويقدم لهم النصائح والارشادات اثناء الالتحام بالمعارك (١) .

وقد كان الامر على هذا المنوال عند الاغريق وروما القديمة . ويقول فوستيل دو كولانج في كتابه « المدينة القديمة » :

« كان دور الدين في الحرب اعظم قوة من دوره في ايام السلم . ففي العصر الروماني ، كان في المدن الايطالية « مجالس للكهنة » تنظم وتترأس جميع الاحتفالات المقدسة ، وتسبغ عليها طابع العلاقات الدولية .

اما في المدن الاغريقية فيقوم الابطال بهذا الدور .

(١) يتضح هنا مدى عنصرية وعدوانية « اله اسرائيل » وشغفه بالحرب وسفك الدماء كما يمكن بعد ذلك فهم عقلية المتعصبين اليهود وغلرستهم واستشهادهم الدائم بالنصوص الدينية القديمة ، واطلاق اسماء معارك بني اسرائيل على عملياتهم في الايام الحاضرة ضد العرب . ويكاد لا يخلو مقال او خطاب لاحد قادة اسرائيل السياسيين والعسكريين من العبارات التي تذكره بهذا الاله وبابناء اسرائيل وحكمائهم وكلها تتسم باللهجة العدوانية .

ومن اهم الوظائف التي يقوم بها مجلس الكهنة هي : اعلان الحرب الذي يتم بصيغة لاهوتية يشهد فيها الاله على هذا القرار .

وعندما تنشب الحرب بين الشعوب التي تدين بديانة مشتركة ، يحاول كل طرف التقرب من الالهة العليا قبل الدخول في الحرب لترضى عنه وتكون الى جانبه .

وفي مطلع القرن الحالي ، كانت امتعة الجنود والتجهيزات العسكرية الالمانية ، تحمل العبارة التالية ومعناها « الاله معنا » وفي فرنسا كانت التجهيزات العسكرية تحمل عبارة معناها : « جندي الرب والحرية » .

وكانت لهذه الشعارات الدينية تأثيرا عميقا على النفوس في جميع عصور التاريخ ، لانها توحى بالتفاؤل .

وفي الحروب المقدسة ، لم يكن الملوك والقادة العسكريين دائما اصحاب السلطة العليا على الجيوش ، لانها كانت تدار من قبل الرواد الروحيين (الكهنة) الذين يتمتعون بسلطات عظيمة .

ومنذ فجر الزمان كان الكاهن يحتل مركزا مرموقا في السلم وفي الحرب ، اما في العصور فكان يتمتع بنفوذ وسمعة تفطي على نفوذ وسمعة القائد الحربي . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال ، انه في اغلب الاحيان ، وفي عدد كبير من الحضارات في اسيا الصغرى وامريكا قبل كريستوف كولومبس ، كان القائد الاعلى يجمع بين صفة الكاهن الابر والملك ، وكان يملك السلطتين الدينيية والروحية ويتمتع على هذا الاساس بنفوذ وسلطة لا حدود لهما .

وفي حروب « شعوب التوراة » فقد استطاع الحكماء والانبياء اثاره حماس الجيوش ، وان ينجحوا اكثر من الملك في توحيد الشعب الاسرائيلي للدفاع عن « يهوه » واعلاء مجده .

اما الشعوب السامية المنحدرة من شبه الجزيرة العربية ، فسوف تسير وراء الرسول العظيم محمد (صلعم) واصحابه ، الذين قادوهم لنشر الدين الاسلامي وتحقيق الفتوحات الواسعة التي امتدت من قلب اسيا شرقا الى

المحيط الاطلسي غربا ومن جبال القوقاز في الشمال الى الصحراء الكبرى في افريقيا والمحيط الهندي في الجنوب .

القبائل العربية والاسلام

تشابه الفزوات الاسلامية ، والهجرات العبرية ، فقبائل الجزيرة العربية تنتمي لنفس « العرق » الذي تنحدر منه القبائل العبرية . فقد عاشت في نفس المناطق القاحلة التي اضطرتهم للترحال الموسمي . كما دفع الجوع هذه القبائل للبحث عن اراض خصبة يقيمون فيها . ومما لا شك فيه ان الاستيلاء على الاراضي هو من احد الاسباب الهامة للحروب التي خاضها العرب الاوائل . فقد كانت هذه القبائل المتمردة بحاجة الى « منفذ » لم يتوفر لها بحدود ضيقة جدا فوق الاراضي التي اعتادت التنقل فوقها .

ويعتبر الفزو الاخير للاقوام السامية مكملا للفزوات القديمة التي سبقته ، والتي كان الدافع الرئيسي لها الحاجة والتعطش للفنائم (١) .

وبعد ظهور الاسلام ، اخذت اندفاعات القبائل العربية طبيعة جديدة ، فتحولت الى « حروب دينية » غايتها ادخال سكان البلاد المحتلة في الدين الاسلامي .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان القرآن (الكريم) يحتوي على صيغة مفصلة لتنظيم عملية توزيع الفنائم ، مما يدل على وجود هدف مادي للحروب الاسلامية على الرغم من طابعها الديني . وهكذا فان الفاتحين العرب لم يكتفوا بسعادة « الآخرة » فحسب بل كانوا يتوخون في حروبهم المقدسة الحصول على سعادة « الدنيا والآخرة » .

(١) يبرز هنا التحامل الواضح للسادة المؤلفين الذين يفترض بهم الموضوعية والحياد ، خاصة وهم يحاولون وضع الاسس الثابتة لاحد العلوم الانسانية . وليس من الصعب على القارئ المثقف اكتشاف هذا « التحيز » الذي يتناقض مع القواعد العلمية ، فالعرب مثلا ، هم من الساميين ، بل لعلم الوريثة الوحيديين للعرق السامي ، لم يتوخوا الفنائم في فتوحاتهم ، والا لما استطاعت حضارتهم وثقافتهم ان تسمد وتزدهر في القارات الثلاث حتى يومنا هذا (العرب) .

والحقيقة ان المقاتلين العرب ، كان على راسهم قادة ملهمون استطاعوا دائما السيطرة على عقول وقلوب جنودهم ، فقد اغروهم بجنات البلدان المفتوحة ووعدوهم بجنات الخلد اذا نالوا الشهادة ، وارهبوهم بنار جهنم اذا تخاذلوا .

« العدو امامكم والبحر من ورائكم » ، والواقع ان هذه الموعظة (او الشعار) برهنت بالفعل عن فعالية مدهشة ، خاصة اذا تذكرنا التوسع الهائل الذي حققه المحاربون العرب ، فشمّل البحر المتوسط حتى اسبانيا وجنوب فرنسا وبلغ فارس والهند شرقا خلال مدة لم تتجاوز عشرات السنين . ولعل احد الاسباب الرئيسية لهذا النجاح العظيم ، يعود اساسا لنوعية « الفرسان العرب » الذين تميزوا بالمرونة والبراعة بالمناورة ، فتفوقوا بذلك على خصومهم الذين اثقلتهم معداتهم بالاضافة الى افتقارهم للايمان بقضيتهم .

وبالرغم من فشل الفرسان العرب امام الفرنجة بقيادة شارل مارتل (في موقعة بواتيه) فانهم سيظلون مع الخيالة (الهون) و (المفل) من اروع التشكيلات الحربية واقدرها على العمليات الحربية السريعة .

وستأتي فيما بعد الجيوش التركية لتكمل التوسع العربي الاسلامي في الجهات الاصلية الاربعة مركزة جهدها الرئيسي ضد الامبراطورية البيزنطية واوربا البلقانية والوسطى .

الجهاد المقدس والحروب الصليبية

بدأ رد فعل الغرب المسيحي ضد التوسع الاسلامي ، منذ القرن الثامن الميلادي .

فبعد معركة « بواتيه » التي اوقفت الهجمة الجنوبية كما اوقفت معركة « السهول الكاتالونية » الهجمة الشرقية ، التي شنتها قبائل « الهون » بقيادة عطيل^(١) قبل ذلك بثلاثة قرون .

(١) السهول الكاتالونية : هي السهول الواقعة بين مدينة شالون سور مارن (شمال شرقي باريس) ومدينة تروا (جنوب شرق باريس) . حيث جرت فيها المعركة التاريخية التي هزم فيها عطيل ملك الهون ، عام ٤٥١ م ، من قبل اكتيوس (احد القادة الرومان) وميروقيه (احد ملوك الفرنجة) وتيودوريك (ملك الاستروغوت) مجتمعين .

كانت المحاولة الاولى لرد العرب بقيادة شارلمان في اسبانيا ، في نفس الوقت الذي كان يشن فيه حربا مقدسة اخرى ضد قبائل الساكسون (وهم قبائل ملحدة تقطن فيما وراء نهر الراين) .

ويرجع الفضل في هذه « الحروب الصليبية المزدوجة » الى الامبراطور شارلمان الذي اعطى لعرشه طابعا مقدسا ونال بذلك لقب « المدافع عن المسيحية » من قبل الكرسي البابوي .

لقد دعت الكنيسة المؤمنين من كل الطبقات ومن جميع الدول للتعاون من اجل الدفاع عن العقيدة المسيحية ونشرها واستعادة الاشراف على الاماكن المقدسة من المسلمين (١) .

وفي هذه الحرب المقدسة ، كانت اسبانيا اول الممالك المسيحية التي تزعمت الصراع (ضد العرب المسلمين) خلال ثمانية قرون ، الى ان حصلت على النصر النهائي الحاسم بعد احتلال غرناطة عام ١٤٩٢ م .

تحولت اسبانيا الى مسرح للحروب المقدسة التي تهدف لاستعادة شبه جزيرة ايبيريا للمسيحية .

ومنذ بداية هذه الحروب كانت غزوات القبائل البربرية مكتملة للفزو العربي . فقد انطلق الموحدون والمرابطون من المغرب يحملون راية الاسلام (الى جانب الجيش العربي) واجتازوا مضيق جبل طارق واستولوا على الجزء الاعظم من اسبانيا . وعلى اثر ذلك حكمت شبه الجزيرة الايبيرية بعض الاسر المالكة (العربية ، والبربرية) وكانت في اغلب الاحيان لامعة ومتسامحة مع المسيحيين واليهود . وبقيت بعض اجزاء صغيرة من المقاطعات الاسبانية الشمالية تحت حكم امير مسيحي مستقل . ومن هذه المناطق انطلقت « حرب التحرير » . ومن الجدير بالذكر ان الفتن والمؤامرات الداخلية التي مزقت صفوف الامراء العرب ، هي التي ساعدت على نجاح هذه الحرب .

(١) بدأ اشراف المسلمين على الاماكن المقدسة في مدينة القدس بعد احتلال العرب لفلسطين بقيادة عمرو بن العاص عام ٦٣٧ م وقد سلمت مفاتيح القدس للخليفة عمر بن الخطاب (العرب) .

ففي عام ١٢١٢ م انهارت مملكة الموحدين وعاد القسم الاعظم من اسبانيا ليصبح ارضا مسيحية عام ١٢٣٦ م ، ولم يبق سوى مملكة غرناطة التي استطاعت الصمود حتى عام ١٤٩٢ م ، حيث تمكن اتحاد الممالك المسيحية في قشتالة واراغون بزعامة فرديناند وايزابيل من طرد العرب المسلمين نهائيا من اوربا الغربية .

وفي هذه الفترة (اي بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر) حاولت اوربا الغربية استعادة الاماكن المقدسة ، وحماية المسيحيين^(١) في اسيا الصغرى التي تخضع بكاملها للمسلمين .

ان الحرب المقدسة تنبثق عادة من حركة دينية وشعبية ، وهي على النقيض من الحروب التي تقوم بها الجيوش المرتزقة في خدمة من يدفع لها ، دون ان تهتم بمبررات النزاع ، او الحروب التي يقودها الاقطاعيون لاسباب مادية واقليمية او للحصول على القوة ، فالحرب المقدسة تتطلب التزام الشعب قلبا وقالبا وموافقة المطلقة وقناعته العميقة بأن هذه الحرب ستعود عليه بمكافأة عظيمة ، الا وهي :

« غفران الخطايا واعلاء كلمة الرب » .

ولا يمكن الحصول على هذه المشاركة الشعبية الا ببلد جهود دعائية نموذجية ، تهدف لاثارة حماس الراي العام وتأمين المتطوعين اللازمين للحرب .

ففي عام ١٠٧١ م حقق الاتراك السلجوقيين نصرا عظيما على المسيحيين الشرقيين في بيزنطة واستولوا على الاناضلو والاماكن المقدسة . وعندما علم البابا غريغوار السابع^(٢) بهذه الكارثة ، قرر مساعدة المسيحيين الشرقيين

(١) اما حماية المسيحيين فلم تكن بالفعل من الاهداف الحقيقية للحروب الصليبية ، وهذا ما يؤكد معظم المؤرخون الثقات ، ويدل على ذلك سلوك الحملات الصليبية حيال المسيحية في البلقان والامبراطورية البيزنطية ، وفي انطاكية ، بل وفي القدس نفسها حيث كانت القوات الاوربية تضطهد المسيحيين الشرقيين (العرب) .

(٢) البابا غريغوار السابع : ولد في مقاطعة توسكانيا بايطاليا عام ١٠٢٠ م وتوفي عام ١٠٨٥ م وانتخب رئيسا للكنيسة (بابا) عام ١٠٧٣ م .

باعتباره ممثلاً للكرسي البابوي . وفي عام ١٠٧٤ م أعلن « الحرب المقدسة » التي تخفي وراءها أسباباً مادية أخرى . ولكنها وضعت تحت « شعار الحرب المقدسة » بهدف إثارة حماس الجماهير التي لا بد منها لخوض هذه الحرب بقيادة السادة من النبلاء الاقطاعيين . وكان لا بد من اعداد طويل وضروري لكي تستجيب النفوس لدعوة خليفة غريغوار ، البابا اوريان الثاني (١) . ففي عام ١٠٩٥ م اثناء انعقاد « المجمع المسكوني » في مدينة كليرمونت ، اصدر البابا اوريان الثاني نداءه المشهور الذي قال فيه : « ان الرب يريد ذلك » . وبالفعل استطاع الهيمنة على عقول ومشاعر الجماهير التي استمعت اليه ، وكان يساعده في هذه « الدعوة » الراهب بيير ليرميت الداعية المهووس ، الذي يرتدي الالبسة ويجوب شمالي فرنسا على ظهر حمار داعياً للتطوع في صفوف القوات الصليبية ، متكلماً عن الامل والخلاص من الخطايا . . .

وقد نجح هذا الداعية الموهوب في جلب جماهير غفيرة بائسة للمساهمة في مغامرة يائسة . وبلغت الحماسة الشعبية ذروتها ، غير ان النتيجة لم تكن سوى تكتيل حشود فوضوية غير مسلحة ، انطلقت نحو الشرق لتلاقي مصيراً مأساوياً . واكدت الوقائع فيما بعد ان « الايمان » لا يكفي وحده للتعويض عن النقص بالعتاد والسلاح .

وبعد ذلك استنجد البابا بأعظم مبشر عرف في ذلك العصر وهو المدعو برنارد كليرفو الذي يتمتع بشهرة عالية في العالم المسيحي بسبب بلافته التي لا تقاوم . وفي عام ١١٤٦ م استطاع هذا الداعية ، اقناع الدين استمعوا اليه في فناء كاتدرائية فيزيلي (٢) واثار حماسهم وخلق في نفوسهم تلك العواطف الاولى التي ولدت في قلوب الرجال التصميم على الموت في سبيل الدفاع عن « فكرة » . وقد بلغ حماس القديس برنارد اثناء مخاطبته للجماهير الشائرة ،

(١) البابا اوريان الثاني : ولد في مدينة شامبون سورمارن في فرنسا عام ١٠٤٢ م وتوفي عام

١٠٩٩ م . واصبح بابا في عام ١٠٨٨ م

(٢) تقع هذه الكنيسة في وسط فرنسا بالقرب من مدينة اوكرير .

الى درجة اخذ بعدها يمزق ثيابه ويوزع منها « الخرق » على الجماهير . ومنذ تلك اللحظة أصبحت هذه « الخرق » شعاراً مقدساً للحروب الصليبية .

وفي عام ١٢٠٢ م قام جيش من المبشرين ببناء على دعوة من البابا انوسنت الثالث (١) بآثارة حماس الجماهير المسيحية في اوروبا كلها للتطوع من اجل القيام بخدمة دينية ، ولكن الشعور السائد انذاك هو جشع الجماهير الشعبية ، وروح الاحتلال التي تطفى على النبلاء .

وفي بعض الحالات كان المبشرون يوزعون انواعاً متعددة من المناشير لآكمال الدعوة الشفهية . وكانت معظم هذه النشرات تندد بسلوك المسلمين ، كما لم تهمل الدعوة فن الحفر والرسم ، فكان بعض المبشرين يطوفون في القرى وهم يرفعون رسوما تمثل رجلاً تركياً رهيباً يدوس بقدمه الصليب .

ولما كان من الضروري ، في الحروب التي تعلن قداستها صدقاً او كذباً ، ترويض ارواح المؤمنين ، فلا بد من ان يتم التطويع في جو من الحماس البالغ ، ضد الاعداء الذين لا يدينون بنفس الدين وهم عادة : الكفرة والهرطقة ... واتباع الشيطان .

وهناك بعض الامثلة الحديثة التي تبين لنا ان الحملة النفسية التي استخدمت طوال قرون عديدة ، لا تزال فعالة حتى في حضاراتنا الحديثة .

لقد نتج عن الحروب الصليبية خلق مناصب جديدة عالية دينية وعسكرية . فمنذ عام ١١١٣ م أحدث منصب او نظام « فرسان القديس يوحنا » . ولم ينل هذا التنظيم شهرته الواسعة تحت هذا العنوان ، ولكنه اشتهر فيما بعد عندما أصبح معروفًا باسم « منظمة فرسان مالطة » الذي لا يزال قائماً حتى هذه الايام ، ويتابع عملاً رائعاً في مجال المعونات الاجتماعية بصفة شبه عسكرية .

وبعد سنوات قليلة ظهر « تنظيم فرسان المعبد » الذي اثار الحسد ضده

(١) البابا انوسنت الثالث : ولد عام ١١٦٠ وتوفي عام ١٢١٦ واصبح باباً في الفترة بين (١١٩٨ - ١٢١٦) .

بسبب الثروات الطائلة التي حصل عليها . وقد أدين من قبل ملك فرنسا ومن الكرسي البابوي واضطهد اعضاؤه ، كما أعدم بعض قادته وصودرت اموالهم اثر التهم الرهيبة التي وجهت اليهم ومنها : الالحاد ، وانتهاك الحرمات ، والشراء غير المشروع .

وفي نهاية القرن الثاني عشر (اي حوالي عام ١١٩٨ م) ظهر « تنظيم فرسان التيوتون » الذي تأسس في مدينة عكا بفلسطين للاعتناء بالمرضى ، وكان منذ البداية تنظيما عسكريا اكثر منه صحيا . وقد استطاع الحصول على ثروات مذهلة في اوربا عندما قام بشن حملات فتح عنيفة ضد شعوب الشمال . وفي عام ١٢٠٩ م اطلق على هذا التنظيم اسم « الفرسان حملة السيف » ، واصبحوا بعد ذلك جيشا دائما حقيقيا وفقدوا كل اثر للطبيعة الدينية التي اسبغت عليهم في البداية .

احتلت التنظيمات ذات الاهداف الدينية مكانا بارزا في اوربا ، حتى في الحالات التي كانت تركز نفسها للقيام بمهمات لا علاقة لها بالدين اطلاقا .

ومن خلال الحملات الصليبية استمرت اللقاءات والمجابهات بين اوربا المتوسطة والشرق الذي كان انذاك اكثر رقيا وحضارة ، وادى ذلك الى تطوير الحضارة الغربية .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت هناك حرب صليبية موجهة ضد المسيحيين انفسهم وفي فرنسا بالذات . اطلق على هذه الحرب « الحرب الصليبية ضد الالبيجوا » (١) . وكان هدف هذه الحرب ازالة البدع المانوية ولكنها مع ذلك لم تخل من الاهداف الدينيوية .

(١) الالبيجوا : طائفة دينية مسيحية ، نشأت في مدينة آلبى وهي مدينة في جنوبي فرنسا على بعد ٦٧٦ كم من باريس . وقد اعتبرتهم الكنيسة من الهرطقة . واصبح هم نفوذ كبير في جنوبي فرنسا وتعاظم عددهم . وكانت عقيدتهم تشبه عقيدة الطائفة المسماة بالفودوا واطلق على هذه الطائفة ايضا اسم « الكاثار » ، وهي قريبة من المانوية الفارسية انتشرت غربي فرنسا ، كما يطلق عليهم اسم الطمارة ووصل هؤلاء الخوارج الى حد اخذوا يهددون مع نظام الكنيسة مما دعا البابا انوسق الثالث لشن حملة صليبية ضدهم . وقد تم القضاء عليهم في مدينة تولوز عام ١٢١٨ م .

وهنا أيضا ومن خلال المجابهات والمذابح الاخوية سيولد ارتشاح متبادل
(تأثير متبادل) بين بلاد الاويل وبلاد اوكتانيا .

الخط بين الامور الدينية والامور الدنيوية

بلغت السلطة البابوية في العصور الوسطى أوج قوتها ونتج عن هذه الظاهرة
تدعيم سلطة الاحزاب السياسية التي تساندها . لذلك اصبح من الامور المهمة
جدا الحصول على « بركات المقدس الرحمان » التي تشكل ثقلا عظيما في ميزان
الصراع على السلطة . وقد حدث في بعض الاحيان ان « اصبحت البابوية قوة
دنيوية حقيقية » تتدخل لمصالحها الخاص في الحروب والنزاعات التي تنشب
بين الدول . وكانت في هذه الفترة تقف الى جانب الطرف الذي يعتبر اقل
تهديدا لمصالحها من الطرف الاخر .

وقد حدث في بعض الاحيان ان الطرف الذي يرغب بالحصول على دعم
السلطات الدينية ، يلجأ الى استخدام الحيلة بل والمكر والخداع .

فالقسم الذي اداه هارولد ، كما يقول تاريخ انكلترا ، كان في الواقع
اغتصاب من غليوم ملك نورماندي ، لانه كان يخدم مصالحه . وهذا على الاقل
ما ذكرته القصة :

« كان هناك سيدان عظيمان يحق لهما المطالبة بعرش انكلترا وهما :
هارولد دويسيكس شقيق زوجة الملك ادوارد ، وغليوم دوق نورماندي ، ابن
عمه . وخلال احدى رحلات غليوم الى انكلترا ، حصل على وعد من ادوارد
بتولي العرش بعد وفاته . وبعد ذلك جاءت مناسبة سعيدة زادت من حظه في
وراثة العرش : فقد اضطر هارولد لطلب اللجوء الى نورماندي من غليوم ، على
اثر حادثة افلاس . واستغل غليوم هذا الوضع ، فطلب من هارولد ان يقسم
بالتخلي عن الدعوة بالعرش لصالحه . وما كان من هارولد الا ان اقسم مرغما
ومعتقدا بأن قسمه لن يكون ملزما له تمام الالتزام . ولكن غليوم كان قد اخفى
تحت المائدة التي استخدمت لاداء القسم اشياء ثمينة جدا تلزم من يقسم .
وعندما تراجع هارولد عن قسمه وقبل اعتلاء العرش بعد موت ادوار ،

اتخذ البابا وقادة الكنيسة المسيحية جميعهم موقفاً مؤيداً لـغليوم ضد هارولد الذي حث باليمين .

ومن المعروف ان ذلك ان القسم بالنسبة للرجال يعتبر بمثابة العقد الملزم لهم .

وفي عام ١٥٨٨ م ، دفع ملك اسبانيا ، الكاثوليكي المتزمت فيليب الثاني أسطوله الحربي الذي لا يتغلب (الارمادا) ، لمحاربة انكلترا ، واعادة سكانها من البروتستانت المرتدين الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية الام . وكانت هذه الحرب في نظر فيليب الثاني ، « حرباً صليبية مكرسة لخدمة الكنيسة » . وقد صرح الاسبان انذاك : « اننا نذهب للقتال ضد انكلترا ونحن واثقون من حدوث المعجزة » . وكان الانكليز ايضا واثقين بأن « العناية الالهية » لن تتخلى عنهم . . وبعد هزيمة « الارمادا التي لا تغلب » بفضل العاصفة البحرية الهوجاء التي حدثت فجأة ، ادعى الانكليز : « بأن الله سبحانه وتعالى تنفس فشتت سفن الاعداء شذرا مذرا . . . » .

وحتى في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) كان الجنرالات الامريكيين في مناسبات عديدة يطلبون النجدة من « المولى رب الجيوش » .

ففي ايار ١٩٤٤ عندما بدأ هجوم القوات الحليفة من غاريغليانو لشق الطريق الى روما ، كتب الجنرال كلارك قائد الجيش الخامس الامريكي في امره اليومي للقوات ما يلي :

« بمعونة الرب ، وبوحي منه ، سوف تسرون نحو الانتصارات العظيمة الحاسمة » .

وبعد ذلك بعدة شهور ، اثناء الهجوم الالمانى في منطقة الاردن (شمالي شرقي فرنسا) ، لم تستطع القوات الامريكية استخدام القوات الجوية ضد الالمان بسبب سوء الاحوال الجوية ، فما كان من الجنرال باتون ، الا ان طلب من كبير الاساقفة في جيشه ، اقامة صلاة خاصة يطلب فيها من الرب تهدئة العاصفة واعادة الجو الملائم . وبالفعل تلا الاسقف والمقاتلون هذه الصلاة . . .

واستجاب الرب لتمنيات الجنرال باتون ونال الكاهن على هذه الصلاة وساماً حربياً عالياً ..

وهكذا نرى أن الله يبقى حافزاً في أذهان الرجال الذين يخوضون الحروب، في كل زمان ومكان ...

حروب الدين الأوروبية

اشتد الخلط بين الأمور الدنيوية والأمور الدينية أثناء الحروب الدينية التي مزقت أوروبا من القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر .

والواقع أن النزاعات الدينية التي نتجت عن حركة الإصلاح الديني ، أخذت أبعاداً كبيرة وخلفت آثاراً هائلة في القارة الأوروبية ، بدلت وجهها لعدة قرون . وفي البداية لم يكن للحركة الإصلاحية الدينية سوى هدف واحد هو إدخال بعض التعديلات في علم اللاهوت ، ولكنها سرعان ما أصبحت مصدراً لأحداث سياسية هامة تولد عنها نزاعات دينية تطورت إلى حروب وحشية لا تعرف التسامح والرحمة .

ففي عام ١٤١١ م دعا جان هوس ، لمقاومة النظام القائم في بوهيميا . ولم يكن هوس سوى فارس بسيط تزعم عصابة من الفلاحين المتحمسين لدعوته . وعندما قتل أحد هؤلاء الفلاحين يطالبون بالثأر لموته . وهكذا اشتعلت حرب أتباع هوس في بوهيميا واستمرت حتى عام ١٤٣٤ م .

وفي ألمانيا تطورت المجابهة بين حزبين لطائفتين إلى حروب دموية بلغت فيها القسوة حداً لم يعد بإمكان القادة الروحيين الذين أشعلوها ، السيطرة عليها .

ومنذ أن أخذت دعوة مارتان لوثر^(١) بالانتشار ، ظهرت في ألمانيا حركات ثورية متعددة تحت ستار من المبررات الدينية ، وأخذت تسعى لتحقيق مكاسب

(١) مارتان لوثر : عالم باللاهوت ، ومصلح ألماني ، ولد في أيسلين عام ١٤٨٣ وتوفي عام ١٥٤٦ ، وكان ابناً لأحد الفلاحين وأستاذاً للفلسفة في جامعة إيرفورت (١٥٠٥) . ثم راهباً في عام ١٥٠٧ ، وقد عارض باسم الدين القديس بولس ، مبدأ بيع وثائق الغفران . وفي عام ١٥١٧ أعلن نظريته المؤلفة من (٩٥) بنداً ، والتي طلبت على أساسها بالإصلاح الديني ، ثم عرفت بوثيقة الإصلاح . وتزوج عام ١٥٢٥ م ليقدم الدليل على معارضته لقوانين الكنيسة . وقام بترجمة التوراة إلى اللغة الألمانية .

مادية . وهكذا ثار بعض الفرسان والأمراء مطالبين ، بحرية جماعة الانجليكان ، وحاولوا من وراء هذا الشعار الاستيلاء على الكنيسة ونهب ثرواتها .

وفي عام ١٥٢٥ ، انفجرت في المانيا ثورة الفلاحين ضد الامراء وطالب الثوار بتوزيع اكثر عدالة للثروات ، وقد اختاروا لقيادة حركتهم هذه ، راهبا خلع ثوب الرهبانية من اتباع لوثر ، ويدعى توماس موتزر . ولكن الراهب الثائر تجاوز الحدود الاصلاحية التي طالب بها استاذة ، فلم يكتف بالاصلاح الديني ، بل طالب بتغيير المجتمع نفسه ، وذهب الى الحد الذي حمل ماركس وانجلز اعتبار حركته كأول عملية شيوعية حدثت في المانيا . وقد ادان لوثر تصرفات تلميذه وحركته الثورية التي انتهت الى الفشل . الا انها كانت مقدمة للنزاع الديني الكبير الذي مزق اوربا في القرن السابع عشر .

وفي المانيا تحولت الحرب الدينية ، التي اطلق عليها اسم « حرب الثلاثين عاما » تدريجيا الى نزاع سياسي عظيم . فقد بدأت الخصومات في قلب الامارات بين الامراء الكاثوليك والامراء البروتستانت ، لاسباب كانت في اغلب الاحيان مادية . وعلى اثر ذلك تدخلت الدول الاوربية ، بالطرق الدبلوماسية او بتقديم المساعدات العسكرية غير آبهة اطلاقا بالمشاعر الدينية ، لدى نرى ان الكاثوليكي المتزمت الكاردينال ريشيليو يقف الى جانب الامراء البروتستانت الالمان ضد اسرة هابسبورغ الكاثوليكية المنعصبة .

وهكذا تطلبت السياسة على الدين : وعلى الرغم من طبيعة حرب الثلاثين عاما الدينية ، الا انها حملت بصمات الخصومات السياسية الاوربية . وكانت نتيجتها النهائية ، اتفاقية تفاهم ، وهدنة واهية اعتقد الناس بانها لن تعمر طويلا ، بينما حددت معاهدات ويستفاليا تنظيم اوربا لفترة تزيد عن مائة عام ، اما بسبب الانهك الذي اصاب جميع الاطراف المتحاربة او لاسباب اخرى يصعب استنباطها .

وفي انكلترا ، انفصل الملك هنري الثامن (١) عن الكنيسة الرومانية لاسباب

(١) هنري الثامن : ولد في غريويتش عام ١٤٩١ وتوفي عام ١٥٤٧ م . وتولى عرش انكلترا عام ١٥٠٩ حتى وفاته . قطع علاقاته مع الكنيسة الكاثوليكية واصبح رئيسا للكنيسة الانكليزية عام ١٥٣٥ وتزوج بالتتابع ستة زوجات .

شخصية ، وجر انكلترا الى القطيعة النهائية مع الفاتيكان . اما الكاثوليك الذين بقوا في المملكة فقد رفضوا الاعتراف بشرعية وراثة ابنته اليزابيث للعرش ، وايدوا دعوة ماري ستيوارت لايكوسية ، لانها كاثوليكية . وادت هذه النزاعات الدينية الى تمزيق انكلترا واعدام الملك شارل الاول (٢) بالمقصلة ، نتيجة لانتصار الثوار الطهوريون ، اتباع كرومويل ، على اتباع ماري ستيوارت .

وفي فرنسا ، زلزلت الحروب الدينية البلاد خلال فترة تزيد عن المائة عام . ولم تقتصر هذه الحروب على الصراع الداخلي ، لان الطرفين المتخاصمين لم يترددا في طلب العون من الاجانب . وقد لجأ البروتستانت الفرنسيين لطلب النجدة من اخوانهم البروتستانت الانكليز ، بينما ساندت القوات الكاثوليكية الاسبانية اتباع الطائفة الكاثوليكية ، واقتصرت مساعدة الاسبان احيانا على بعض الفصائل من الطائفة الكاثوليكية الفرنسية . وانتهت الحرب الدينية في فرنسا بتسوية تمثلت في شخص الملك هنري الرابع ، وتصديق المرسوم الملكي المسمى بـ « مرسوم نانت الاصلاحى » . ولكن الحروب الدينية انهكت فرنسا ومزقتها بعد الغاء مرسوم نانت المذكور في عام ١٦٨٥ ، وثورات الكاميزار (١٧٠٢ - ١٧١٠ - (٣) .

وتجدر الاشارة في هذه المناسبة الى ان الحروب الدينية الاوربية والاضطهادات كان لها تأثير كبير على المستوطنين في امريكا الشمالية ، واصبحت المصدر الذي قامت عليه الحضارة الامريكية .

الحروب الدينية تجسيد مسبق للحروب القومية والحروب الايديولوجية

ظلت « الحروب المقدسة » فترة طويلة من الزمن ، الحروب الشعبية الوحيدة . وكان لا بد من انتظار ظهور « القوميات الحديثة » لكي نرى الشعوب

(٢) شارل الاول : ولد عام ١٦٠٠ وتوفي عام ١٦٤٩ اصبح ملك انكلترا وايكوسيا وارلندا في الفترة بين ١٦٢٥ - ١٦٤٩ وقد ثار البرلمان عليه بسبب طغيانه واستبداده بالسلطة . وقد اعدم اتباع كرومويل بعد هزيمة جيشه النظامي على يد الثوار .

(٣) الكاميزار : هم اتباع مذهب كالفان الذين حاربوا ضد جيوش لويس الرابع عشر ملك فرنسا بين عام ١٧٠٢ و ١٧١٠ م

بأجمعها تنخرط في الحروب . وحتى ذلك الوقت لم تكن الحرب تسمى أو تعني
الا جزءا ضئيلا من السكان ممن احترفوا مهنة السلاح والقتال .

ففي الامبراطورية الرومانية ، لم يكن الشعب نفسه معنيا بالحرب الا في
حدود ضيقة جدا . وكانت الجحافل الرومانية تتألف من الجنود المرتزقة
المحترفين الذين يؤدون الخدمة العسكرية لمدة طويلة ، اما القادة فكانوا عسكريين
ومدنيين في آن واحد .

وفي العصور الوسطى كانت الجيوش الاقطاعية تتألف من النبلاء واتباعهم
من الخدم والعبيد . وهؤلاء وحدهم يدعون لخدمة الملك عند الاقتضاء . وان
قيام ثورة شعبية يحمل الشعب فيها السلاح ويقاثل ، كما حدث في مقاطعة
بوفين^(١) الفرنسية نادر جدا . ولا يمكن الاستشهاد بها لانها المرة الوحيدة
التي جاءت فيها الميليشيات الشعبية لتساهم بالدفاع عن البلاد .

اما الجيوش النظامية ، فكانت دائما قليلة العدد وتتألف عادة من المرتزقة
والمليشيا الخاصة التي تخدم الملك في النزاعات والحروب التي نشبت في القرنين
السابع عشر والثامن عشر ، وكانت هذه الحروب تحمل دائما طابع النزاعات
بين الاسر المالكة ، ولم تكن الجيوش على هذا الاساس جيوشا وطنية بالمعنى
الحديث للكلمة .

وهكذا كانت جيوش لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، كجيوش
ملوك اسبانيا او انكلترا ، لا يمكن اعتبارها جيوشا وطنية . وحتى ملوك بروسيا
لم يكن لديهم جيوشا وطنية بكاملها ، على الرغم من اساليب التجنيد التي
وضعها الملك سرجان وابنه فريدريك الثاني^(١) .

(١) مقاطعة تابعة لمنطقة ليل في شمالي فرنسا . تغلبت على الامبراطور اوتون الرابع وحلفائه
بثورة شعبية ، في ٢٧ تموز ١٢١٤ م .
(١) الملك فريدريك الثاني : الملقب بالملك العظيم (١٧١٢ - ١٧٨٦) اصبح ملكا لبروسيا
بعد وفاة ابيه الملك سرجان (١٧٤٠) . وكان رجل حرب بارع واداري عظيم . وهو الذي
اسس عظمة بروسيا .

والحقيقة ان « الثورة الفرنسية » هي التي افتتحت عصر الحروب الوطنية الحقيقية (٢) .

الحروب الايديولوجية المعاصرة

هناك حروب شبه دينية معاصرة لا تزال تزرع عدم الاستقرار في مناطق متعددة من العالم الحالي ، وتقوم مبرراتها جزئيا على اعتبارات دينية وهذه الحروب هي :

١ - الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا والتي بدأت منذ عام ١٩١٦ ولا تزال قائمة حتى هذه الايام .

٢ - الحرب بين الهندوس والمسلمين في شبه القارة الهندية وقد اشتبكت هاتين الطائفتين ثلاث مرات : من ١٩٤٧ الى ١٩٤٧ ومن ١٩٦٥ الى ١٩٦٦ وآخرها عام ١٩٧١ .

٣ - الحرب العربية الاسرائيلية (٣) : وقد تكررت هذه الحرب للمرة الرابعة في اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ .

٤ - الحرب بين المسلمين في الشمال والمسيحيين في جنوبي السودان (١٩٥٥ - ١٩٧٢) .

٥ - الحرب بين قبائل الايبوس وقبائل الهاوسا في نيجيريا (١٩٦٧ - ١٩٧٠) .

٦ - الحرب الارثوذكسية ، بين الارثوذكس المسلمين والاثيوبيين المسيحيين (١٩٦٩) .

٧ - الحرب بين الطائفة التركية الاسلامية والطائفة المسيحية اليونانية في قبرص (١٩٧٤) .

(٢) قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ واستمرت حتى عام ١٨٩٩ .

(٣) الحرب الاسرائيلية العربية : ليست حربا دينية ، بل هي في الواقع حربا استعمارية ، سببها استيلاء الصهاينة على الارض العربية الفلسطينية ، بل وبعض الاراضي العربية الاخرى من الدول المحيطة بفلسطين . ولا علاقة لها بالامور الدينية او العنصرية . فالعرب لم يكونوا في تاريخهم لاساميين ولم يضطهدوا اليهود .

٨ - البقطة الاسلامية الشيعية والثورة الايرانية بزعامه اية الله الخميني في ايران (١٩٧٨ - ١٩٧٩) .

٩ - الحرب الافغانية التي بدأت عام ١٩٧٩ ولا تزال قائمة حتى الان .
وبالطبع هناك مبررات اخرى لان الحرب لم تفجرها النزاعات الدينية .
وفي هذه الايام انتقلت الصراعات الى ميدان جديد هو الايديولوجيات التي حلت محل الديانات .

ومن المعروف ان الايديولوجية الفاشستية والايديولوجية النازية (الهتلرية) اثارت حماس الجماهير بين عام ١٩٢٢ و ١٩٤٥ ، ولعبت دورا حاسما في تفجير الحرب الكونية الثانية .

وهاتان الايديولوجيتان تناهضان ايديولوجية اخرى هي « الماركسية - اللينينية » التي انتشرت بعد ثورة عام ١٩١٧ في مختلف مناطق الكرة الارضية ، وحملت معها خمرة فعالة لتطلعات وطموحات الشعوب التي لم تكن قد بلغت جميعها مستوى التطور .

وغالبا ما تكون القوميات مدعومة بدعاية بارعة جدا تثير حماس الجماهير .
و « الحروب الصليبية » الحديثة في هذه الايام يتولى الدعوة لها « المفوضون السياسيون » ، الذين بدأوا يقومون بهذه المهمة في الاتحاد السوفياتي بعد استلام السلطة من قبل السوفييت ، وكان لهم دور هام في الجيش السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية .

وفي جميع الاماكن التي تدخلت فيها الايديولوجية الشيوعية كاسبانيا والصين والهند الصينية ، كان عمل المفوضين السياسيين ، الورثة الجدد لممثلي الثورة الفرنسية ، أساسيا وفعالا .

وتجدر الإشارة ان « تجارب الدعاية المعاكسة » لم تلق النجاح الفعال الا في اسبانيا خلال الثورة الاهلية بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . والواقع ، لا بد من اللجوء الى الدعم الروحي ، او لعقيدة اخرى تمتاز بايمان قوي في مستوى الايمان

بالإيديولوجية الشيوعية لضمان الحصول على فرص للغلب على الدعوة الشيوعية .

والحرب المقدسة او الحرب الصليبية تضع جميع المقاتلين على قدم المساواة ، لان اكثر المقاتلين تواضعا في المجال الروحي يتساوى مع اعظم القادة . فكل يقاتلون دفاعا عن العقيدة ولا هم لهم سوى مرضاة الله ... ومن حقهم جميعا ان ينالوا المكافاة السامية في الآخرة ، ويجلسوا في السماء على يمين الرب .

الحروب المقدسة في الايام الحاضرة

ان الحروب الايديولوجية تدعي هي ايضا بأنها « حروب عادلة » . وكل من يؤمن بهذه الايديولوجية يجب ان يساهم في حربها وان يمنحها دمه وروحه وان يكون مستعدا لتقديم اقصى التضحيات في سبيلها عند الاقتضاء .

وهذا هو الشكل الحديث من الحرب المقدسة الذي ظهر منذ ان انتظم الانسان بمجتمع في فجر الزمان .

وهكذا نرى ان البشرية كانت ترزح باستمرار طيلة تاريخها تحت اوزاء واعباء الحروب المقدسة او بالاحرى الحروب الدنيوية التي اسبغت عليها صفة القداسة : كالحروب الدينية التي ازهقت ارواح الناس حتى القرن السابع عشر ، وحروب الامراء من القرن السابع عشر حتى القرن الثامن عشر ، والحروب القومية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، والحروب الايديولوجية في القرن العشرين .

ومنذ عام ١٩٧٨ نشهد انبعاثا للصراعات الدينية خاصة بعد يقظة الاسلام الحديثة (١) .

(١) اعتاد الكتاب السياسيون والصحفيون على ترداد تعبير « اليقظة الاسلامية الحديثة » منذ انفجار الثورة الشعبية في ايران عام ١٩٧٨ واسقاط عرش الشاه محمد رضا البهلوي ، وتسلم رجال الدين الشيعة السلطة بزعامة آية الله الخميني (المعرب) .

وبلاحظ ان جميع هذه الحروب ، بأشكالها القديمة والمعاصرة والحديثة تنصف بالخلط بين الدين والسياسة وبين القداسة والالحاد . وهي تجعل من كل ما يتعلق بالنزاع شيئاً مقدساً يستوجب التضحية الشاملة . كما تجعل من النزاع نفسه شيئاً مطلقاً بدلاً من ان يكون « نسبياً » كبقية المشاكل الانسانية حيث يمكن ايجاد المخارج والحلول للنزاعات .

وتبرهن الحروب المقدسة ايضاً على قوة الشعور الدينى الذي يكمن في ضمير الانسان . وكلما كان الدين احد العناصر الاساسية في حضارة ما ، فان هذه العناصر تؤكد العلاقات الموجودة بين الحروب والحضارات .



الفصل العاشر

ميادين التفاعلات الخمسة الاسلحة ، والتكتيكات والصناعة

الاسلحة القديمة :

اننا نلاحظ في التقنيات العسكرية والتكتيكات نفس العلاقات المتميزة بين الحضارات والحروب ، كما كان الامر بالنسبة للعقليات .

. والواقع ان التسليح لم يتطور الا في حدود ضيقة منذ فجر التاريخ وحتى ادخال المتفجرات في ترسانة المحارب . فالاسلحة الاولى التي استخدمها البشر كانت تتألف من العصي والهرافات والدبابيس ، التي حصل عليها الانسان من المواد الخام الموجودة في الطبيعة : كالخشب والحجارة والعظام ... الخ .

وعندما اتقن الانسان صناعة المعادن ، ظهرت اسلحة البرونز ثم الاسلحة الحديدية ، وأعطت هذه الاسلحة الحديثة - في ذلك الوقت - تفوقا اكيدا للشعوب التي امتلكتها .

وبقيت الاسلحة الرئيسية المستخدمة في الحروب ، خلال آلاف السنين تقتصر على السيف والرمح ، والفأس ، والنبال ، التي اخذت اشكالا مختلفة عبر القرون .

وتدلنا « ملحمة جلجاميش » على الاسلحة التي استخدمتها البطل السومري في الالف الرابعة قبل الميلاد ، فقد ورد في هذه الملحمة ما يلي :

« لقد حمل اليهم السلاح ، واعطيت لهم السيوف الضخمة في اغمارها الذهبية ، والقوس والكتانة . وامسك جليجاميش الفأس بيده وعلق الكتانة وقوس ارشان على كتفه ثم تقلد السيف في حزامه . . وبعد ذلك اصبح الجميع جاهزون للسفر » (١) .

وكان المحاربون الاغريق الذين حاصروا طروادة ، مسلحين بنفس الطريقة . وتروي احدى الاساطير الاغريقية القديمة اللقاء بين احد الابطال الاغريق مع بطل طروادة فتقول :

« تقدم احد ابطال طروادة ليلتقي مع بطل الاغريق ، وكان يحمل فوق كتفيه جلد فهد ، وقوسا معوجا ، وسيفا . وقد شهر في يده حربة ذات نصال من البرونز . . . وسرعان ما تلاقى البطلان وبدأت تصطدم دروعهما ورماحهما ، وكان شرر الغضب يتطاير من اسلحتهما البرونزية » .

اما جنود الجحافل الرومانية ، فكانوا يحملون السيف والمزراق ، وكانت الجيوش الاغريقية والفارسية مزودة بالرماح التي يبلغ طولها عدة امتار .

ومن الجدير بالذكر ، في هذه المناسبة ، ان سلاح الفرسان ، ثابر على استخدام الرمح حتى بداية القرن العشرين . وفي الحرب العالمية الاولى ، كانت الخيالة الفرنسية (الدراغون) والخيالة الالمانية (الاوهلان) تستخدم هذا النوع من الرماح .

وقد عرفت العصور القديمة والعصر الوسيط ، بعض الاسلحة التي تتصف بقوة قذف ميكانيكية ، مثل : قاذف القوس والمنجنيق والعرادة ، وكانت تستخدم هذه الادوات لقذف السهام ، وقطع القرميد ، والحجارة ، ولكن تأثيرها بقي محدودا .

عصر الاسلحة النارية

لقد ادى ظهور بارود المدافع فوق ساحات المعارك في نهاية العصر الوسيط ، الى زيادة سرعة تطور الاسلحة .

(١) من ملحمة جليجاميش التي ترجمت من العربية الى الفرنسية من قبل السيد عابد عازارية .

والواقع ان الصينيين استخدموا البارود في حدود ضيقة جدا منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وادخل العرب البارود الى اوروبا في القرن الثالث عشر ومن المرجح انهم استخدموا مدفعا بدائيا جدا . وسرعان ما اخذت الاسلحة النارية المتنوعة تحل محل السلاح الابيض لتدريبيا ، وتحولت معظم الاسلحة القديمة الى اسلحة مساعدة واختفى بعضها نهائيا من ميادين المعارك . وحلت الحربة المركبة على رأس البندقية محل الرمح ، واحتفظ الفرسان بالسيف الى جانب الرمح في بعض الاحيان ، كما سبق وذكرنا .

وكانت المدافع في طليعة الاسلحة النارية التي دخلت ساحات المعارك ، ولم يكن تأثيرها كبيرا جدا في البداية . ففي معركة كريسى^(١) التي حدثت عام (١٣٤٦) م ، كان قصف المدفعية يحدث الكثير من الضجيج فيخيف الخيول ، ولم يكن له تأثير كبير على نتيجة القتال .

وعلمت احدى الصحف الفرنسية على استخدام المدفعية اثناء حصار مدينة كاليه فقالت ما يلي :

« الحمد للرب ومريم العذراء ، ان المدفعية لم تجرح رجلا ولا امرأة ولا طفلا » .

وفي القرن الخامس عشر ازدادت اهمية المدفعية ، عندما اصبحت الوسيلة الفعالة بين الملوك لتدمير حصون اتباعهم من الفرسان الاقطاعيين المتعدين .

وفي نهاية حرب المائة عام بلغت المدفعية مستوى عاليا من الفعالية ساعد الملك شارل السابع على تحرير ما يزيد عن ستين قلعة محصنة في النورماندي ، خلال عام واحد ، كان يحتلها الانكليز .

وفي عام ١٤٥٣ م اثناء حصار القسطنطينية ، كان بحوزة السلطان محمد الثاني عددا كبيرا من المدافع : منها (١٣) مدفعا ضخما (تستخدم قذائف

(١) كريسى : مدينة فرنسية تقع على نهر السوم . وقد حدثت المعركة التي انتصر فيها جيش ملك انكلترا ادوار الثالث على جيش فيليب السادس ملك فرنسا ، في احدى غابات هذه المدينة . وكانت بداية لحرب المائة عام .

ثقيلة من الخجر يزيد وزن القذيفة على عدة مئات من الكيلو غرامات ، بالإضافة الى (٦٠٠) مدفعا من عيارات صغيرة مختلفة . وكان تأثير المدفعية الثقيلة حاسما ، لان الثغرات الواسعة التي فتحتها في اسوار المدينة لم يتمكن البيزنطيون من سدها .

وفي عام ١٤٩٢ م اجبرت المدفعية الاسبانية العرب على تسليم آخر مدينة من ممتلكاتهم في اسبانيا وهي مدينة غرناطة .

ومن الجدير بالذكر ان النتيجة الاولى الهامة التي اقترنت باستخدام المدافع في القتال هي انتهاء غزوات البرابرة ، والواقع ان الاقوام الرحل الذين اعتمدوا في عملياتهم على سرعة الحركة ، استطاعوا الحصول على التفوق الكامل في المعركة على سكان الحضار بفضل تطوير خيالتهم . وعندما امتلكت الدول المتحضرة صناعات تسمح لها بانتاج المدفعية ، استطاعت بفضل هذا السلاح شل الحركة والتغلب على الخصوم الذين يعتمدون على الخيالة ولا يملكون هذه المزية . . وحصلوا على تفوق ساحق كان من نتيجته تغيير مجرى الاحداث .

وقد استطاعت الصين بفضل بعثة من اليسوعيين الطليان انتاج السلاح الجديد (المدفع) مما ساعدها على صد غزوات قبائل الشمال البربرية ووضع حد نهائي لها . . .

اما الروس الذين كانوا ، منذ قرون ، يتعرضون لهجمات التتار مما اضطرهم للتراجع باتجاه بحر البلطيك ، فقد نجح امراؤهم في موسكو في انشاء مدفعية صالحة ، وبادروا برد التتار نحو اراضيهم الاصلية ثم اخذوا يضعون الاسس الصلبة لامبراطورية تهدف لضم جميع الشعوب السلافية .

بدأت عمليات الامراء الروس على شكل « حرب تحرير » للتخلص من سيطرة التتار . ثم استمرت هذه العمليات حتى نهاية القرن السابع عشر لطرد الاتراك من اوربا . وترتب على ذلك نشوب نزاع طويل الامد بين روسيا والباب العالي (الامبراطورية العثمانية) لم يهدأ حتى تراجع العثمانيون عن القارة الاوربية . غير ان تركيا الحديثة ، استطاعت الاحتفاظ باسطنبول وادرنه وحقت بذلك السيطرة الكاملة على المضائق .

لقد أعطى « عصر المتفجرات » التفوق الشامل للجيش الدائمة ، فظهرت الأسلحة النارية في اللحظة التي بدأت فيها « الخيالة » تتخلى عن مكانتها لوحدة المشاة والجنود المحترفين (المرتزقة السويسريين ، المرتزقة الجرمانيون ، وعصابات الكوندوتوري الطليانية) .

وفي هذه المرحلة الجديدة بدأت الحرب تفقد جانبها المثالي والفروسي ، وتتحول إلى « علم وفن » . وسجلت الحرب الإيطالية (١٤٩٤ - ١٥١٦) بداية عصر جديد هو « عصر الأسلحة الحديثة » . ففي هذه الحرب تكبدت التشكيلات المتراصة (كالتشكيلات السويسرية) خسائر فادحة من جراء قصف المدفعية . . . وفي معركة مارينيان عام ١٥١٥ م ، زجت وحدات الفرسان في الثغرات التي فتحتها المدفعية في صفوف الكتائب السويسرية .

وبئسف الوقت تطلبت الفدارة والبندقية ذات القليل استخدام الجنود المحترفين ، لان خدمة هذه الأسلحة وحسن استعمالها وصيانتها تحتاج إلى تدريب متواصل ، الامر الذي يستبعد تطويع الجنود الفوري .

وأدى استخدام المدفعية وتطورها ، إلى تعديل مخطط التحصينات : فالقلاع والمواقع المحاطة بالجدران العالية المشابهة للمواقع القديمة ، تحطمت تحت ضربات المدافع ذات القذائف الكروية الحديدية ، وحلت المدافع محل آلات الحصار القديمة .

وبما لبثت المدافع ان احتلت مكانا ممتازا في الدفاع بعد تعديل مخططات التحصينات لتتلاءم مع متطلبات هذا السلاح . وهكذا أصبح للمدفع مكانه الممتاز في الهجوم والدفاع ، كما أصبحت الأسلحة النارية الخفيفة ، السلاح المفضل لدى جميع المقاتلين من الفرسان والمشاة .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسلحة الجديدة التي تملك قوة تدميرية هائلة بالمقارنة مع الأسلحة القديمة ، أحدثت ضجة كبرى في الأوساط الدينية والفكرية ، فقد أدانها الكثيرون من رجال الفكر ورجال الكنيسة . ومما قاله

الشاعر أريوست (١) : « أيتها المخترعات الملعونة ، انك أدوات موت خبيثة » .
ووصف بليز دومونلوك ببندقية الفتيل بأنها « أداة الشيطان التي تسلمنا
للقتل » .

أما الكنيسة ، فأدانت المنجنيق الذي ظهر في فترة الحروب الصليبية
ووصفته بأنه « سلاح يمقته الرب ، وغير جدير بالإنسان المسيحي » .

ومن المعروف أن ادخال أي سلاح جديد الى ترسانة الاسلحة يرافقه
دائما ردود فعل عنيفة معارضة ، ولكنها لم تنجح في الحيلولة دون استمرار
التسابق على التسلح ، واستخدام هذه الاسلحة في الحروب . وقد تكون ردود
الفعل التي نسمعها في هذه الايام ضد الاسلحة النووية استمرارا لتلك الحملات
التي لم يكلل أي منها بنتيجة ايجابية .

وهكذا لم ينته القرن الخامس عشر ، حتى كانت جميع الاسلحة النارية
قد احتلت امكنتها في مخازن الاسلحة ، وساحات المعارك ، وبالرغم من أن بعضها
كان لا يزال على اشكال بدائية بشعة ، إلا أن خطوط التطور الرئيسية أصبحت
واضحة ، بل لقد ظهرت بالفعل جدة البندقية التي تلقم بالمغلاق الآلي .

أما البندقية القديمة ، فعلى الرغم من ثقل وزنها وصعوبة استخدامها ،
فقد لعبت دورا هاما ، فكانت الى جانب المدافع المسيحية في معركة ليبانت
البحرية (١) التي أوقفت التوسع التركي نهائيا في البحر الأبيض المتوسط .

وفيما بعد حلت ببندقية الفتيل محل البندقية القديمة (القربنية) لسهولة
استعمالها ، ومع ذلك بقيت ثقيلة نوعا ما لأنها تحتاج الى « منصب » أثناء
الرمي ، كما أنها شديدة الحساسية بسبب البطء في عملية التلقيم .

(١) أريوست : شاعر ايطالي (١٤٧٤ - ١٥٢٢) من أبرز شعراء النهضة في ايطاليا واوروبا .
(١) معركة ليبانت : سميت باسم مدينة ليبانت اليونانية ، الواقعة على مضيق ليبانت الذي
يصل بين خليج باتراس ، وخليج كورنثة . وفي هذه المعركة انتصر دون جوان النمساوي على
الاسطول التركي عام ١٥٧١ م . وأصبحت هذه المعركة من المعارك الفاصلة بين أوروبا المسيحية
والشرق الاسلامي .

وفي عام ١٥٤٠ م دخلت الفدارة ميدان المعركة ، وهي عبارة عن بندقية قصيرة ، لا تحتاج لفتيل الاشعال ، وهي مزودة بقطعة من البلاتين ذات حلقة للاطلاق ، مما حسن شروط اشعال النار . وقد سمح هذا التطور الجديد لوحدات الخيالة استخدام هذا السلاح بسبب سهولة استعماله ، واستعادة دورها الفعال في المعركة ، بعد أن كانت قد تخلت عنه لوحدات المشاة المجهزة بالبندقية القديمة (القربنية) والبندقية ذات الفتيل .

كان للتغيرات التي أحدثها استخدام الأسلحة النارية أهمية عظيمة خلال الحروب الدينية ، وتميزت حرب الثلاثين عاما بظهور عصابات المرتزقة وقطاع الطرق واللصوص ، الذين كانوا يشنون عمليات الاغتصاب والسلب ، مما سبب أعظم المآسي على السكان .

وفي القرن السابع عشر تركزت التحسينات في التقنية على عملية اشعال النار ، فأعطت للبندقية مزيدا من الامان والسرعة بالاستخدام . وادى كل ذلك الى تطور صناعة الأسلحة . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذت الحروب طبيعة خاصة بسبب القيمة « السلعية » للجندي ، التي أصبح من الضروري الاقتصاد بها لارتفاع كلفتها .

ولهذه الاسباب اتسمت الحروب الملكية في هذه الفترة بالبطء والتواضع ، فاستحقت الوصف الذي أطلقه عليها المؤرخون آنذاك حينما سموها « حروب الدانتيل » .

والحقيقة أن « رشقات الرمي » بالبنادق ، التي تتم بالإيعاز ، كما حدث في معركة فونتيناوا (١) ، قدمت في المعارك نارا كثيفة قاتلة .. وترتب عليها في بعض الاحيان خسارة فادحة بالارواح ، وادت الى حسم المعركة كما حدث في معركة كويبك (٢) عام ١٧٥٩ .

(١) فونتيناوا : بلدة بلجيكية وقعت فيها المعركة الفاصلة التي انتصر فيها المارشال دوساكر بحضور الملك لويس الخامس عشر على القوات الانكليزية والهولندية عام ١٧٤٥ م .
(٢) في هذه المعركة انتصرت القوات الانكليزية على القوات الفرنسية .

وفي بداية القرن الثامن عشر سجلت الحربة المركبة على فوهة سبطانة البندقية ، ولادة مشاة حديثة بالفعل ، وجمعت كل المحسنات الضرورية للهجوم والدفاع : كالقوة النارية ، والقدرة على الصدام ، والايقاف .

اما « الجيش الوطني الاول » الذي لم يكن يتألف بكامله من المرتزقة ، فكان الجيش البروسي فريدريك الثاني ، وكان تطويع الجنود في هذا الجيش يتم من بين سكان الكانتونات (الولايات) التي كان على كل منها تقديم عدد محدود من المجندين يتناسب مع عدد سكانها ، وكان المجندون بهذه الطريقة يخضعون لتدريب شديد : هو التدريب العسكري على الطريقة البروسية .

ويشبه نظام التدريب هذا ، النظام في الجحافل الرومانية القديمة . وقد وصلت قسوة التدريب البروسي درجة جعلت الجنود يخافون ضباطهم اكثر من اعدائهم ، وكانت صعوبة التمارين اشد من هول المعارك الامر الذي اعطى الجنود البروسيين رهبة خارقة في القتال .

وهكذا سجل فريدريك الثاني مرحلة جديدة في تطور الاسلحة التي اخذت تستحوذ على اهتمام جميع الطبقات الشعبية ، كما اصبحت بمثابة الطبيعة الدائمة الضرورية لخدمة الاسلحة التي تتطلب تدريباً طويلاً ودقيقاً .

العصر الصناعي

ولدت الصناعة الكبرى في القرن التاسع عشر بعد الحروب النابليونية ، وتطورت بسرعة كبيرة خاصة في امريكا الشمالية . وبالرغم من انه لم يطرا الكثير من التغييرات على نماذج الاسلحة الا انه امكن انتاجها بكميات هائلة ، الامر الذي سمح بتسليح جيوش كثيرة العدد .

كما ساعد ، تطور النقل بواسطة السكك الحديدية ، وتطور الاتصالات بواسطة المبرقات (التلغراف) ، على نشر القوات المقاتلة فوق مساحات واسعة .

وقد تمكنت الولايات الشمالية من الانتصار في الحرب الاهلية الامريكية

(١٨٦١ - ١٨٦٥) بسبب كثافة سكانها وقوة صناعتها ، وهزمت الولايات الجنوبية التي كانت آنذاك لا تزال في مرحلة الاقتصاد الزراعي .

وفي أغلب الأحيان كانت هذه الدول تملك جيوشا متفوقة وعلى رأسها قيادات ذات كفاءات عالية ، ولكنها مع ذلك انهزمت أمام عدو يملك موارد بشرية وطاقات إنتاج أعظم .

وعلى صعيد التكتيك ، ظهر التأثير المدمر لنيران المشاة والمدفعية وأصبحت المعارك أكثر دموية بسبب ارتفاع مدى الأسلحة وازدياد وتائر الرمي . وأخذت تشكيلات القتال تتجه نحو الانتشار لكي تكون أقل تعرضا لنيران العدو ، وبدأت تستخدم موجات الأرض للتستر واتقاء شظايا القذائف المتنوعة .

والحقيقة أن الدروس المستخلصة من هذه التفجرات التي تربت على الانتقال من الحضارة الريفية إلى الحضارة الصناعية فلم يتم ادراكها مباشرة .

وأكدت حروب البلقان التي وقعت في الفترة بين عام (١٨٧٥ و ١٨٧٨) وحروب الترانسلفاك بين عام (١٨٩٩ و ١٩٠٢) وحرب منشوريا بين عام (١٩٠٢ - ١٩٠٥) ، وحرب البلقان الثانية بين عام (١٩١٢ و ١٩١٣) ، أكدت هذه الحروب التطور الذي كرسه وضاعفته الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

وحملت نهاية القرن التاسع عشر معها ثلاثة اختراعات بدلت طبيعة ساحة المعركة : ألا وهي تعميم استخدام البارود الذي لا دخان له ، والمتفجرات المدمرة ، والرشاش .

وبفضل البارود عديم الدخان ، أصبح من الصعب تحديد أمكنة تمرکز المدفعية خاصة إذا كان ذلك خلف المرتفعات في منأى عن الرؤية المباشرة للعدو .

وأصبحت قذائف المدفعية ، بفضل المتفجرات المدمرة ، تنشط إلى شظايا قاتلة ضمن دائرة يختلف اتساعها باختلاف عيار المدافع ، وهكذا ازدادت فعالية القنابل بشكل هائل ، وأجبرت المقاتلين على الاختفاء في حنايا الأرض لاتقاء الضربات .

ومع الرشاش ورماياته الآلية ازدادت مدى وغزارة نار المشاة بنسب عالية جدا (١) .

وهناك اختراع رابع جديد احتاج استخدامه الى وقت طويل ، إلا وهو الفولاذ الذي حل محل معدن البرونز في صناعة المدافع . وفي هذا الوقت ادخلت الاحازير الى سبطانة البندقية والمدفع فزادت رماياتها دقة واعطتها مدى أبعد .

وكانت الحرب العالمية الاولى اول حرب صناعية بسبب استعمالها للمركب المعقد الذي يتكون من هذه التحسينات التقنية المختلفة ، وخاصة بعد ظهور الاسلحة الحديثة (الطيران والدبابة المقاتلة) ، وبفضل تطور امكانيات النقل البري والاتصالات اللاسلكية (المبرقات اللاسلكية) . وامتدت الحرب في الفضاء وساعدت الامكانيات الصناعية المتزايدة الدول الكبرى على تسليح وتجنيد اعداد كبيرة من المقاتلين في الخطوط الامامية بما لا يقارن اطلاقا مع الامكانيات في الماضي .

اما العمليات الحربية فأصبحت تدور فوق مسارح ذات ابعاد هائلة وادخلت تطورات كبيرة على الاسلحة الجماعية مما ادى الى تغيير جوهري في التكتيك . كما ادت التعبئة الصناعية في الدول الكبرى الى استخدام النساء للعمل في المصانع والحقول بدلا من الرجال الذين يذهبون للحرب ، وأصبحت المصانع من الكفاءة الى درجة ازدادت معها انتاجها للمدافع والذخيرة بوتائر متصاعدة ، كما أصبح تدمير اسلحة العدو فوق ساحة المعركة من الاهداف الاساسية المطلوبة . واحتلت المدفعية مكانا ممتازا في الحروب ، مما دعا الخبراء للقول بأن « المدفعية تجتاح والمشاة تحتل » ، وتطلب هذا الدور الرئيسي المزيد من استهلاك القنابل الامر الذي أصبح ممكنا بفضل فزارة الانتاج الصناعي .

والخلاصة فان اطالة مدة العمليات ، وازدياد كثافتها ، وعدم مرونة الاسلحة البرية ، ادى الى البحث عن حلول جديدة لقطع جبهات العدو . وفي هذا السياق ظهر السلاح الكيماوي البحث ، الذي عرف آنذاك بالغازات السامة .

(١) بلغ المدى المجدي لاسلحة المشاة الآلية عام ١٩٧٩ ، ألف متر ، ووصلت السرعة العملية للرمي الى حدود عدة مئات من الطلقات في الدقيقة .

الا ان هذا السلاح لم يعط نتائج حاسمة في المعارك على الرغم من مفعوله المخيف .

عصر المحرك

ان اعظم تجديد نموذجي شهدته الحروب هو دخول الطيران ودبابات القتال في ميادين العمليات . ومع ظهور هذين السلاحين الفعالين تبوأ المحرك الانفجاري مكانا بارزا في ساحات المعارك . فالدبابة التي أهملت منذ قرون ، وجدت ، بفضل المحرك ، الشروط اللازمة لاستخدامها في المعركة ، ولكنها لم تشهد مع ذلك كل أمجادها طوال الحرب العالمية الاولى .

اما الحرب العالمية الثانية فكان من اهم مميزاتها ضخامة الانتاج الصناعي : ففي هذه الحرب وضعت الولايات المتحدة الامريكية وسائلها الصناعية الهائلة في خدمة الحلفاء ، فانتجت مئات الآلاف من الطائرات والدبابات ، والآلاف السفن الحربية المختلفة ، ومن بينها مائة وعشرين حاملة طائرات . وفي هذه الفترة نفسها لم تتمكن اليابان من انتاج اكثر من عشرين حاملة طائرات ، الامر الذي يفسر بشكل واضح اسباب النصر النهائي للحلفاء على المحور .

اما المانيا النازية فقامت بمجهودات صناعية جبارة ، فبالرغم من الغارات الجوية المكثفة التي كبدت مؤسساتها الصناعية اعظم الخسائر ، الا انها استطاعت ان تنتج من العتاد في عام ١٩٤٤ اكثر مما انتجت في عام ١٩٤٠ .

وهكذا فان التقدم بالنقل على الخطوط الحديدية والطرق البرية والبحرية والاتصالات السلكية واللاسلكية ، ادى الى اتساع مسارح العمليات وأخرج للوجود ما يسمى بـ « قيادات مختلف صنوف الاسلحة » في المسارح .

تمجيد المتفجرات والصواريخ : والعصر النووي - الفضائي

ان تمجيد المتفجرات يعني الانتقال من المتفجرات الكيماوية الى المتفجرات النووية ، اما تمجيد الصواريخ او وسائل النقل : فيعني الانتقال من المدفع الى القذائف الصاروخية ثم الى الصواريخ العابرة للقارات .

فالحرب العالمية الثانية شملت جميع القارات ، وقد انتهت في المحيط الهادي بعد ثلاثة اشهر من نهايتها في اوربا ، وكان ذلك بضربة مسرحية حقيقية

أما على صعيد التكتيك ، فقد بذلت الكثير من الجهود لزيادة قوة القذائف النووية مرورا بالقنبلة A إلى القنبلة الهيدروجينية H ذات الانصهار الذي يضاعف الانفجار النووي عشرات المرات .

وإذا كان تأثير القذائف النووية قد تكيف تبعاً « لاستراتيجية الردع النووي ضد المدن » ، فإنه لم يتكيف حتى الآن بالنسبة « للاستراتيجية المضادة للقوات » في ميدان المعركة . فهذه العملية تتطلب قذائف أكثر تطوراً ، لأن تصغير القذيفة النووية يؤدي إلى إنتاج أسلحة نووية تكتيكية تختلف مواصفاتها اختلافاً جوهرياً عن مواصفات السلاح النووي الاستراتيجي .

وهكذا فإن استخدام المتفجرات النووية يستوجب تغييرات في التكتيك العسكري ، لا بد من البحث عن قواعد لها دون إمكانية القيام بالتجارب حتى على نطاق محدود كما كان الحال في الماضي بالنسبة للأسلحة الكلاسيكية . وكما جرى بالفعل في الحروب المحلية (كحرب البلقان قبل عام ١٩١٤ ، والحرب الإسبانية قبل عام ١٩٣٩) .

والواقع أن امتلاك أسلحة من هذا النوع لا يزال يقتصر في الوقت الحاضر على القوى التي بحوزتها وسائل صناعية ومالية هامة جداً .

ففي البداية كان هناك احتكار مطلق للأسلحة النووية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم تستعمله إلا ضد اليابان عام ١٩٤٥ . ثم ما لبث الاتحاد السوفياتي أن توصل لصنع الأسلحة النووية وحقق توازناً نووياً شاملاً مع أمريكا . وفيما بعد دخلت انكلترا وفرنسا والصين والهند إلى « النادي النووي » ، وتدل المؤشرات إلى أنه أصبح في مقدور بعض الدول الأخرى اقتحام هذا النادي خلال السنوات القليلة القادمة (١) .

(١) تنوثر المعلومات التي تؤكد أن إسرائيل أصبحت في عداد الدول التي تمتلك أسلحة نووية . كما تشير هذه المعلومات أيضاً إلى أن جمهورية جنوب أفريقيا فجرت قنبلتها النووية بالتعاون مع إسرائيل . وترشح المعلومات أيضاً كلا من البرازيل والباكستان والعراق ، لامتلاك الأسلحة النووية في السنوات القادمة ، كما أن الكثير من الدول الصناعية الفنية مثل اليابان وألمانيا الغربية وإيطاليا والسويد وغيرها يمكنها إذا أرادت صنع الأسلحة النووية لأنها تملك كل الوسائل اللازمة .

لم يشهد تاريخ البشرية لها مثيلاً : وكان من نتيجة هذه الضربة الجبارة تدمير مدينتين يابانيتين في آب ١٩٤٥ هما : هيروشيما وناغازاكي ...

لقد دمرت كل من هاتين المدينتين بفعل قنبلة واحدة لكل منهما ، وكانت هذه القنبلة محشوة بمتفجرات جديدة ذات قوة لم يسبق لها مثيل .
ومع الانتقال من المتفجرات الكيماوية الكلاسيكية الى المتفجرات النووية دخلت البشرية في « عصر جديد » . . ذلك ان التغيير الجديد لم يكن تغييراً بالابعاد ، ولا بقوة الانفجار ، ولكنه تغيير بطبيعة ونوع المادة المستخدمة .
ففي الماضي كان لا بد من حشد الاف المدافع لتدمير مواقع العدو ، ولا بد من استخدام مئات الطائرات لتدمير طاقات العدو الانتاجية وتخريب المدن الصناعية .

اما بعد هذا التاريخ (اي بعد هيروشيما) ، فان قنبلة واحدة تحملها طائرة واحدة للوصول الى هذه الاهداف ...

وفي ايامنا الحالية اصبح لدى القوى الكبرى ، العديد من الصواريخ العابرة للقارات التي تحمل العبوات النووية المقدرة بالمليغا طونات والتي تستطيع اصابة الاهداف بدقة على مسافات تزيد على الاف الكيلو مترات ، وان تدمير اهم المراكز الحيوية ، الامر الذي لم يعد بالامكان انقاذاً من مناطق من التدمير .

وهكذا نرى ان التغيير الجديد ليس تغييراً في تطور الاسلحة ولكنه ثورة تكنولوجية حقيقية عميقة وشاملة . وهذه الثورة ادت الى خلق بلبله بالافكار لا تزال قائمة حتى الآن ، ذلك لان الانفجار النووي لم يستخدم بعد في ميادين القتال ، واقتصر استخدامه على ضرب المدن العزلاء . لهذا فان اشياء كثيرة لا تزال مجهولة في موضوع استخدام الاسلحة النووية في المجال العسكري البحت .
لذلك نرى ان العديد من النظريات لا تزال تتكدس منذ عام ١٩٤٥ ، وحتى عام ١٩٧٩ ، ولم تحظ اي من هذه النظريات حتى الآن بفرصة الاصطفاء التجريبي . ونتيجة لهذه البلبله يجد الخبراء انفسهم امام ميدان مجهول مليء بالمفاجآت ، ولا بد من توقع أي شيء ، لان العالم لا يزال يجد نفسه امام « الذرة » وكأنه في حالة « العذرية » .

ومن الجدير بالذكر ان الدول النووية الكبرى تملك تجاه الدول الاخرى وسائل ضغط هامة ، استطاعت ان تلعب دورا حاسما في مناسبات عديدة (مثل ازمة السويس عام ١٩٥٦) . ويشهد العالم اليوم نوعا من « توازن الرعب » بين الكتل المتنافسة ، ويعتبر من العوامل المهيمنة الآن على العلاقات الدولية .

ان هذا الوضع يستدعي اعادة النظر في توسع الامم والدول التي كانت حتى الآن سببا مولدا للصدامات والخصومات بين القوى .

وان الخوف من تفجير حرب مدمرة شاملة لا يمكن التنبؤ بنتائجها ، يدفع القوى الكبرى الى المجابهة من خلال الدول الصغرى في حروب محلية ومحدودة ، في المكان والزمان ، وتقتصر على استخدام الاسلحة الكلاسيكية .

وتقوم هذه السياسة المخادعة على لعبة معقدة جدا مشحونة بالمخاطر . ومن المهم في هذه اللعبة اقناع الخصم بان كل تصرف يتجاوز حدودا معينة (الخط الاحمر) سيؤدي الى حرب شاملة ، سيكون فيها المنتصر نفسه جريحا حتى الموت ، ومعرضا لحرب اهلية ، او الى حرب تشنها قوة ثالثة ذات طبيعة حيادية وسلمية ...

وهذه اللعبة المعقدة الدكية ، تحتاج الى عقل الكتروني لتحديد مواصفات اللحظة الانية ، كما تستدعي صفات استثنائية من جانب القادة ، يشوبها احيانا القدرة على الخداع الذي يلعب دورا هاما في هذا الميدان .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان المفامرة (او ضربة البوكر) التي قام بها الرئيس كندي عام ١٩٦٢ اثناء ازمة الصواريخ السوفياتية في كوبا . وماذا كان بالامكان ان يحدث لو لم يستجب الاتحاد السوفياتي لهذا الانذار النووي ويشحب صواريخه ؟ ...

فهل تدفعنا هذه « القوة » التي لم يستطع الانسان حتى الآن ترويضها والسيطرة عليها .. هل تدفعنا بسرعة مذهلة نحو ازمة حضارية جديدة ؟ ..

ومن الملاحظ وجود هوة عميقة بين الدول الغنية التي تملك الاسلحة النووية ، والدول الفقيرة التي لا تستطيع حتى الآن الحصول عليها غير ان هذه الدول تملك تفوقا ديمغرافيا (سكانيا) واحيانا تفوقا ايدولوجيا يمكنها من تعويض ضعفها التكنولوجي والنووي .

وهكذا نرى ان الانسانية دخلت منذ عام ١٩٤٥ في عصر جديد هو « العصر النووي – الفضائي » الذي جعل الحضارات المعاصرة شديدة الهشاشة .

* * *

الفصل الحادي عشر

التحصينات : التقنيات والاحكام

تعتبر التحصينات المشادة فوق سطح الارض ، كالاساحة المتحركة في ساحات المعارك ، شواهد للحضارات تكشف لنا اسرار التقنيات القديمة وتوحي وتزيد في سرعة التقنيات الحضارية وتساعد على تطويرها وتحسينها ، فمنذ العصور الموعلة في القدم انشا الانسان البدائي الاول الملاجئ البسيطة ليحتمي بها ، وكان ذلك اول رد فعل يقوم به الانسان ليكون هو واثرواته في منجى من مطامع العدو المجهول .

وتدل المعلومات أن « روبنسون كروزديه » انشا جدراناً من القصب ليحتمي بها ، كما فعل اجدادنا في عصور ما قبل التاريخ في مغاور العصر الحجري الاول .

المعقل الاول (معقل الانسان الاول)

كان انسان العصر الحجري الاخير مسالماً ، فلم تكن القرى التي سكناها تحتوي على اية تحصينات ، كما لم يعثر في قبور هذا الانسان اية اسلحة .

وقد كشفت التنقيبات عن وجود قرى محصنة تحصينا قويا ، يعود تاريخها للفترة التي تلت العصر الحجري ، كما عثر في قبور تلك الحقبة على بعض الاسلحة .

وتدل البحوث والتنقيبات ان الحروب تضاعفت مع ظهور الاراضي المزروعة،

في اوربا الوسطى وفي معظم اجزاء الكرة الارضية ، كما أصبحت الاماكن المأهولة بالسكان ، اكثر حماية ، بفضل الوسائل والمواد التي حصل عليها الانسان .

وحوالي الالف السابعة قبل الميلاد كانت مدينة أريحا ، الواقعة في وادي الاردن ، تغطي مساحة من الارض تعادل ثلاثة هكتارات . وكان يحميها من الغارات المعادية ، خندق محفور بالصخور ، عرضه ثمانية امتار وعمقه متر ونطش ، ويلحم هذا الخندق سور من الحجارة .

وقد تطورت التحصينات عبر القرون واخذت اشكالا مختلفة تتلاءم مع ظروف الزمان والمكان وتطور الاسلحة .

الدفاع والهجوم

هناك قاعدة عامة تم استخلاصها عبر التاريخ : ففي الفترات التي كانت فيها الاسلحة واساليب التكتيك تسهل عمليات الهجوم ، لم تستطع التحصينات توفير الشروط الملائمة لاقامة الدويلات الصغيرة ، لان مثل هذه الدول لم تكن تستطيع الصمود امام الغزوات المهاجمة . وفي ظل التفوق الهجومي نشأت الممالك الواسعة والامبراطوريات .

وعلى عكس ذلك تماما ، عندما تفوقت وسائل الدفاع على وسائل الهجوم ، اي عندما أصبحت الاسوار تؤمن حماية فعالة ضد الغزاة ، توفرت الظروف والوسائل لاقامة دويلات صغيرة اقطاعية وقبلية ، وانطوى الناس على انفسهم ، واستطاعت المدن - الدول الصمود للهجمات التي يشنها الجوار ، وتمكن النبلاء من شق عصا الطاعة على الملوك وانشأوا ممالكهم الخاصة واقطاعاتهم . واصبح كل فرد ينغلق بأنانية على نفسه وراء الجدران التي يبنها سعيا وراء الاحتفاظ باستقلال ذاتي محلي ، يحول دون قيام مجموعات كبيرة .

وفي هذه الفترة كانت قلعة تيرينث في اليونان ، تتمتع بالاستقلال الذاتي ، على الرغم بأن مساحتها لا تزيد عن عشرين ألف متر مربع ، ولا تبعد عن مدينة مسين الهامة المنيعه سوى خمسة عشر كيلو مترا .

وفي الالفين الاخيرين قبل الميلاد ، انشئ في اسيا الغربية وحوض البحر الابيض المتوسط ، امبراطوريات عظيمة واسعة ، على الرغم من انشاء بعض التحصينات التي اتصفت بالمناعة في بعض الاحيان .

ان نفسية الانسان الدفاعية ، تتطلب تبعا للظروف بأن تكون التحصينات تشكل حماية للمواقع التي تستخدم كملاجئ او ساحات المناورات جيوش الميدان ، وأن تشكل حاجزا متصلا ومنيعا في وجه العدو : ومن الامثلة البارزة على هذه التحصينات التي انشاها الانسان عبر التاريخ : جدار الصين في الماضي ، وخط ماجينو وخط سيففريد في الحرب العالمية الثانية .

وهذه التحصينات تمثل مفاهيم مختلفة وتقنيات تواجدت خلال مسيرة الانسان الطويلة عبر التاريخ .

التحصين والاقتصاد والدين

منذ عصور ما قبل التاريخ لعبت التحصينات دورا هاما في صراعات البشر خلال هذه الازمنة . وظهرت التنقيبات الحديثة بعض المواقع القديمة المحصنة ، مثل مدينة انكوردول في منطقة جبال الالب البحرية (جنوب شرقي فرنسا) المطلة على خليج جوان .

وفيما بعد ، تميزت مدينة الفولواز ، بأنها عبارة عن قلعة محصنة او معقل للحماية . وفي معظم الحالات كانت الاسوار تشاد قبل انشاء المدن ، ويعتبر على هذا الاساس القاعدة للمنشآت التي اقيم من اجل حمايتها . وتبدو معظم الدول الغولية المعروفة حتى الآن مثل بيبراكت وجيرغوفي وآليزيا ، كملاجئ قديمة تعود الى عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن السكان اول الامر يلجأون الى هذه المدن الا في حالات الاستنفار ، ثم اخذ بعض اللاجئين يستقرون تدريجيا فيها لانهم وجدوا شروطا اكثر ملاءمة للعمل : ومن بين هؤلاء السكان الاوائل ، الحرفيون والسكابون والتجار . وفي مراكز هذه المدن ولدت الاعياد الدينية ، ثم انشئت اماكن العبادة .

لقد ورث الغاليون تقاليد عريقة في فن بناء الاسوار التي تختلف طبيعتها

وشكلها حسب اختلاف المواد المعروفة . وترجع أقدم الاسوار التي بناها الانسان الى العصر البرونزي ، وهي من نوع الاعمال الجبارة . وتلا ذلك بناء انواع اخرى شيدت بكثير من العناية ، واخذت تتجه نحو توفير اقصى ما يمكن من الشروط للمقاومة .

وفي الجزر البريطانية ، كانت القرى في عهد قبائل الصلت ، تقام غالبا على شكل اقرب ما يكون للملاجيء ، منه الى شكل اماكن السكن . وهذه القرى على نوعين الاول عبارة عن « قرى بحرية » تبنى في قلب البحيرات وعلى ضفاف الانهار ، والثاني قرى محصنة تبنى فوق ذرى الهضاب المشجرة . وتذكرنا قرية مايدن كاستل الواقعة بالقرب من مدينة دورشستر بقرية أليزيا المغولية .

اما في وادي دجلة ، فلم تكن مدينتا كاليش ونيينوى انذاك سوى ذكريات ، عندما اكتشف المؤرخ اليوناني كسينوفون خرائب تحصيناتها الضخمة ذات التطور الهائل . ولكن ما بقي من أسوارها القديمة يعتبر شاهدا على علم هندسي عسكري أبدعه مهندسو ذلك الزمان .

وفي جزيرة سردينيا أقامت القبائل التي قدمت اليها في الالف الاخير في م ابنىة غريبة كالنوراغ التي تعتبر من المنشآت الدفاعية الهامة ، بينما يعتقد البعض بأنها اماكن للعبادة ، ولكن عددها الكبير الذي ينوف عن ستة الاف بناء في هذه الجزيرة ، والاماكن التي تشغلها تدل على انها ليست سوى ملاجيء وقلاع شديدة المناعة اذا اخذنا بعين الاعتبار الوسائل التي كانت تتوفر في تلك الازمنة . وهذه الابنية عبارة عن ابراج مخروطية الجذوع وتتراوح سماكة جدرانها بين مترين وخمسة امتار ، وهي مبنية من الاحجار الطبيعية ، المرصفة فوق بعضها البعض دون أي ملاط أو اية مادة لاصقة . ويبلغ ارتفاع الابراج المائلة في بعض الاحيان حوالي عشرين مترا وخاصة منها تلك الابراج الموحودة شمالي مدينة كاغلياري وهي تشكل نظاما دفاعيا حقيقيا . وفي وسط هذه الابراج يقوم برج هائل تدعمه اربعة ابراج ذات زوايا مغطاة بجدران خارجية تسد احد الوديان .

وفي الجزيرة بقايا قرية ذات بيوت دائرية .

ويبدو ان السكان كانوا يلجأون الى داخل السور عند تعرضهم للخطر ، اما المدافعون المسلحون بالسهم والرمح والسيوف فيتمركزون في الابراج للمقاومة ، وكانوا يستخدمون بعض الآلات لقذف الحجارة الضخمة . وعندما أخذ القرطاجيون يستخدمون المنجنيقات لتدمير الجدران ، عمد المدافعون الى زيادة سماكتها ومتانتها . وكانت هذه المحاولات أول منشآت عسكرية من هذا النوع في حوض البحر الابيض المتوسط .

ولادة المدينة المحصنة

أخذت المدينة تتحول تدريجيا عبر العصور الى نوع من القصور الجماعية المحصنة التي تستخدم لحماية السكان من الغزاة . وقد ولدت المدينة في البداية من حاجة المجتمعات لمكان تتم فيه عمليات تبادل المنتجات ، وهكذا أصبحت المدينة مستودعا يجب توفير الحماية له . وكانت جدرانها (اسوارها) تكفي لايواء السكان الذين اعتادوا العيش وزراعة الحقول المحيطة بها . وفي حالات الخطر ، والتهديد بالغزو يتزايد عدد السكان بنسب غير عادية . ولما كانت المدينة ليست معدة في البداية لايواء جماهير عديدة فانها تصبح في معظم الاحيان بؤرة لتفشي الأوبئة القاتلة بسبب تكديس السكان وعدم توفر الشروط الصحية .

وهكذا كانت أثينا فريسة للطاعون في القرن الخامس عندما أُلْهِدِفَتْ اليها الشعوب الآتيكية^(١) باحثة فيها عن الملجأ .

وكان الكثير من المدن القديمة محاطة بالاسوار المحصنة الرائعة ومن هذه المدن « خورساباد » الحالية التي جعلها الاشوريون عاصمة لهم في القرن السادس قبل الميلاد ، فقد كانت محاطة بسور يبلغ طوله ثمانية كيلو مترات ، ويصل

(١) الآتيكية : هي الشعوب التي كانت تقطن في هضاب الآتيك وجبالها الجرداء في شبه الجزيرة اليونانية .

ارتفاعه الى ثمانية امتار . وهذا السور مبني من الحجر ، وتبألف قاعدته من الاحجار الضخمة الجافة .

اما اسوار مدينة بابل التي بناها نبوخذنصر في القرن السادس قبل الميلاد ، فتشكل تحصينا منيعا ضد المغيرين . وكان من بين هذه الاسوار مجموعة من الجدران المتوالية تحيط بالقصر الملكي ومعابد المدينة الداخلية .

وقد ورد على لسان المؤرخ اليوناني هيرودوت^(١) حول تحصينات بابل ما يعني : بان الابراج المشيدة على مسافات محددة تسمح بالقتال لانها كانت على درجة من الاتساع تساعد عريات القتال التي تجرها اربعة جياد من الصعود الى قممها والاستدارة في قممها . ومن الروايات التفصيلية الغريبة التي يرويها هيرودوت : « ان الجزء الغربي من سور بابل كان ينحدر بشكل عمودي على نهر الفرات ويشكل بذلك وقاية ضد فيضان النهر وهجمات العدو » .

وتعتبر مدينة سيراكوز^(٢) من اجمل التحصينات واكملها . وقد انجز بناؤها في القرن الرابع قبل الميلاد على يد المعماري دينيس القديم لحماية المدينة من القرطاجيين . ويعطينا جدار ديونيسوس وقصر اوريل فكرة واضحة عن اهمية هذه التحصينات ، فالواجهة الامامية محمية بثلاثة خنادق ذات جدران عمودية مخفورة في الصخور ، والقلعة ذاتها مبنية على شكل شبه منحرف وتحتوي على خمسة أبراج . اما الجزء الشرقي فليس له شكل نظامي لانه يتطابق مع تموجات الارض . وهناك نظام معقد من المنشآت المختلفة على شكل كماشة لحماية الباب الرئيسي . ويصل بين مختلف الاجزاء الداخلية لهذه التحصينات الواسعة ، انفاق جوفية مستورة . وتمتد هذه الانفاق الجوفية حتى تصل الى البرج الامامي القائم الى الشمال من مدخل المدينة .

(١) سيراكوز : احد موانئ جزيرة صقلية على الشاطئ الشرقي . وكانت مستعمرة كورنثية . اُسست عام ٧٢٤ ق.م . ثم اصبحت اول مدينة في الجزيرة وخاصة في عهد الطغاة في القرن الخامس ق.م . وقد فشل الاثينيون باحتلالها (٤١٤ - ٤١٣) ق.م . وفي العصر الروماني تحالفت مع قرطاجة ولم تسقط في يد الرومان عام (٢١٢ - ٢١٤) ق.م الا بصعوبات هائلة وخسائر فادحة تكبدتها الرومان .

وتجدر الإشارة الى أن أسوار المدن كان لها صفة القداسة عند القدمين ،
أما انشاء مدينة جديدة فيعتبر من الامور الخطيرة جدا ، لان مصر الشعوب
التي ستؤدي ايها يتوقف على اختيار الموقع الذي تشاد عليه ، والالهة وحدها
هي التي تختار وتقرر تحديد مواقع المدن .

ومن المعروف ان موقع البالاتان ، مهد مدينة روما الخالدة ، اختاره احد
كبار الكهنة بعد مراقبته لتحركات الطيور وعندما تم تحديد مكان المدينة بشكل
نهائي ، عين يوم للاحتفال بوضع الحجر الاساسي للمدينة . وفي يوم
الاحتفال بدأ الكاهن المؤسس بتطهير نفسه (حسب الطقوس الدينية المعروفة
آنذاك) ، ثم عمد الى تحديد « مركز المدينة » ثم رسم محيطها .

وقد جرى تحديد محيط مدينة روما بواسطة عربة ذات محراث نحاسي
يجرها ثور أبيض ، ويقود هذه العربة الكاهن المؤسس رومولوس الذي سمته
الالهة لهذا الغرض .

أما مداخل المدينة الرئيسية فتم تحديدها برفع المحراث عن الأرض لمسافة
معينة تدل على المكان المخصص للأبواب ، وعندما انجز رسم محيط المدينة
بكامله ، أصبح هذا الخط مقدسا ولا يجوز لاحد اجتيازه دون الوقوع في
الخطيئة الكبرى التي تستحق عقوبة الموت . ولهذا نجد ان مجرد قيام المدعو
ريموس بالقفز فوق خط المحراث المقدس ، كانت عقوبته الموت ، على الرغم
من إن ريموس هذا كان شقيق الكاهن المؤسس رومولوس .

وفيما بعد أصبح للجدران التي شيدت فوق خط المحراث صفة القداسة
ولا يمكن تجاوزها دون التعرض للعقاب الشديد .

ولما كان اجتياز هذه الجدران محرما على المواطنين ، فمن الطبيعي أن يكون
محرما على الأعداء ، ومن واجب السكان الدفاع عنها بالحماس الذي يتناسبه
مع الإيمان بالمدينة وبآلهتها .

وبمع اتساع الامبراطوريات تطورت الجدران تطورا هائلا في بعض
المناطق ، ولكنها لم تتصف ببعض المزايا التي اتصفت بها الاسوار المغلقة التي
تحمي جميع الاتجاهات ولا يمكن الالتفاف حولها .

وقد سبق أن اقيم في بابل جدران متواصلة تتجاوز ابعاد المدينة لكي
تتمكن من اغلاق ممرات مقاطعات بكاملها .

وشيد المصريون جدارا دفاعيا بمحاذاة مدينة بيلوز^(١) مقابل صحراء
سيناء ، يصد غارات البرابرة الساميين على حوض الدلتا : وكان ذلك مقدمة
للمتشآت التي اقامها الصينيون والرومان على امتداد الاف الكيلو مترات .

لقد حاولت الممالك المحاربة في الصين احتواء وصد غارات البرابرة وخاصة
المغول القادمين من الشمال . فأخذت المدن الصينية تزيد في ابعاد جدران الحماية
الا أن ضغط البرابرة المغول لم يتضاءل واستطاعوا شن الغارات على الحدود
التي تدافع عنها قوات صينية أقل مرونة وسرعة من رماة الاسهم المغول
وفرسانهم البواسل . وتمكن هؤلاء الغزاة من التسلل الى داخل دول النهر
الاصفر الصينية . وبعد محاولات غير مجدية قام بها امراء الصين لتنظيم
خيالة قادرة على مجابهة الخيالة المغول ، قرروا بناء « سور » عظيم لحماية
حوض النهر الاصفر من الشمال واغلاق جميع الطرق الرئيسية التي يستخدمها
البرابرة الشماليون عادة لغزو الصين .

وحوالي عام (٢١٠) ق.م تم وصل جميع هذه التحصينات الدفاعية
فشكلت جدارا متصلا اطلق عليه اسم « سور الصين العظيم » . ويبلغ طول
هذا السور ما يزيد على (٢٥٠٠) كم . ومع ذلك فقد اعتاد الناس على القول
بان هذا السور لم يقدم أية فائدة دفاعية للصين ، ولكنه كان يتحطم دائما تحت
الضربات العنيفة التي يوجهها الغزاة القادمين من الشمال .

والواقع ان « سور الصين العظيم » لم يعجز عن القيام بدوره الوقائي
الدفاعي الا عندما ضعفت ارادة المقاومة لدى الشعب الصيني . اما قبل ذلك
فانه استطاع ان يحول اتجاه المغيرين « المغول » عن غزو الصين الى الاندفاع

(١) مدينة بيلوز المصرية القديمة تقع بالقرب من مدينة بوسعيد الحالية .

جنوباً نحو أوروبا وآسيا الصغرى^(١) . وبالرغم من أن « الجدار العظيم » انتهى إلى الانهيار إلا أنه لعب دوراً لا يجوز لأي مؤرخ موضوعي إهماله .

وفي أوروبا الغربية طرحت مشكلة التحصينات نفسها عندما واجهت الإمبراطوريات خطر غزو البرابرة ، وبرز ذلك بوضوح في عهد الإمبراطورية الرومانية بالذات . ويؤكد التاريخ أن « الجحافل الرومانية » بسطت قواتهن الإمبراطورية من الجزر البريطانية (المعروفة ببلاد الضباب) إلى صحارى الشمس الساطعة في إفريقيا وآسيا الصغرى .

والواقع أن التحصينات المتقطعة الأولية ، لم تكن كافية لحماية ما يزيد من (٩٠٠٠) كم من الحدود الطويلة المعرضة باستمرار لهجمات القبائل البربرية، فقرر الإمبراطور فيسباسيان إنشاء حاجز متصل من نقاط المراقبة والتحصينات التي توفر حماية أشد وتشكل عنصراً وقائياً ضد الغزوات المفاجئة .

وطور القيصر تراجان هذه الاستراتيجية الدفاعية الساكنة ليقم حاجزاً فاصلاً بين الحضارة الرومانية وبين الأقوام الشمالية البربرية .

وهكذا أنشئ أول جدار دفاعي يزيد طوله على (٥٠٠) كم يستند إلى نهر الرين غرباً ، ماراً بسهولة الدوكيمات^(١) بين كوبلانس إلى رايتسبون ، إلى أن يصل مصب نهر الدانوب .

أما السور الروماني المسمى بالليم فقد حاولوا بواسطته الفصل بين عالمين مختلفين بتحصينات على جانبي الخط الواصل بين مصب نهر الرين ومصب نهر الدانوب . وشق الرومان طريقاً محيطياً يمتد بمحاذاة هذا الحاجز ويحيط به

(١) وهكذا كان من نتيجة بناء سور الصين العظيم تحول الغزو المغولي إلى مهاجمة الخلافة العربية الإسلامية ، وتوجيه أخطر ضربة قاتلة للحضارة الإسلامية العربية في بغداد ودمشق على يد هولاكو والتمورلنك في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر . وهذا يدل على شكل ملموس واضح على ترابط الأحداث وتفاعلها في كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية ومن هنا تأتي أهمية العلوم الاستراتيجية (الحرب) .

(١) كوبلانس : مدينة في ألمانيا الغربية ، وكانت العاصمة القديمة لبروسيا وتقع على نهر الرين والموزيل أما مدينة رايتسبون فهي مدينة ألمانية أيضاً في منطقة بافاريا وتقع على نهر الدانوب وبين هاتين المدينتين تمتد سهول الديكومات :

سور من الاوتاد وملغوم بخندق عميق . وأقيمت على طول هذا الطريق مخافر للرقابة والرصد ، وانشئت خلفه الثكنات التي تستخدم لحشد القوات الضرورية لنجدة المخافر والنقاط التي تتعرض للخطر .

وفي اجزر البريطانية ، والى الجنوب من ايكوسيا ، شيد الرومان الجدار الذي اطلق عليه اسم « جدار هادريان » في عام ١١٧ ق.م. ويمتد هذا الجدار من خليج سولوي الى مصب نهر التين ، ويبلغ طوله ، حوالي ١١٧ كم ، وتقدر سماكته بثلاثة امتار ، ويتراوح ارتفاعه بين ٥ - الى ٦ امتار ، ويدعمه خندق عميق . وقد اقيم بمحاذاة هذا الجدار بعض المنشآت الدفاعية كما اضيف الى هذا الحاجز بعد فترة من الزمن جدار آخر اقل اهمية في الجهة الشمالية منه .

وقد برهنت هذه الانظمة الدفاعية عن فعاليتها طوال الفترة التي كانت فيها الجحافل الرومانية على مستوى عال من الكفاءة القتالية والتصميم على المقاومة . غير ان امتداد هذه الاسوار على شكل اسيجة لم يكن يسمح بالمناورات الكبرى ، كما ان قوات المواقع التي تعبأ عادة من بين السكان المجاورين للخطوط الدفاعية ، لم تكن تملك اطلاقا الصفات القتالية المطلوبة .

وهكذا نجد ان الجدران الرومانية المذكورة لم تعد تقوم بدورها الوقائي المطلوب بعد انخفاض القيمة القتالية للجحافل الرومانية ، غير ان هذه الجدران لا تزال حتى يومنا هذا ترسم بوضوح الحد الفاصل بين اسلوبين للتفكير ، مما يميز شعوب الشمال عن الشعوب التي انطبعت بالحضارة الرومانية(١) .

وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، حاول السكان اللجوء من جديد وراء جدران ، كانت تبني في اغلب الاحيان على عجل ، واسوار « ترتجف من الرعب » كما وصفها الكاتب الالماني غوتيه عندما تكلم عن جدران تيببسا(٢) التي شيدت لمقاومة غزوات اقوام الواندال في القرن الخامس الميلادي .

(١) ان هذه الملاحظة شديدة الاهمية حتى في العصر الحالي لان هناك فرقا واضحا بين شعوب اوربا اللاتينية المطلة على البحر الابيض المتوسط (فرنسا ، اسبانيا ، ايطاليا ، يوغوسلافيا ، اليونان ، الخ ...) وبين شعوب اوربا التي تقع شمالي الحاجر الروماني المذكور والتي تشمل الشعوب الجرمانية والسكتنافية والسلافية (العرب) .

(٢) تيببسا : مدينة رومانية قديمة تقع في الجمهورية الجزائرية وقد شيدت فوقها مدينة منابة الحالية .

أما جدران القسطنطينية ، فكان لها حظا أوفى من النجاح فلم تنهار
إلا بعد ذلك بزمان طويل .

وفي القارة الأمريكية ، استخدم شعب الإنكا بعض التحصينات التي سميت
(بالشيמוש) لإغلاق السهل الممتد من المحيط الهادي إلى جبال الأنديز . وكانت
هذه الأعمال تشكل خطا متواصلا طويلا يغطي مدينة « ليما » ويحتوي على
قلاع مغلقة تشبه القواقع .

وفي عصور الاقطاع ، والعصور الحديثة ، أصبحت التحصينات غير
المتصلة ، كالقلاع ، وكانت « المواقع الحصينة » هي الحل الذي وجدته السلاطة
الاقطاعيون ودول الامارات ، لحماية اراضيهم ، واستخدامها كنقاط استناد
للمناورة جيوشهم .

وابتداء من الحروب النابليونية ، عادت التحصينات الميدانية لتجد الدور
الذي لعبته في زمن الجحافل الرومانية ، ولتكمل التحصينات الدائمة . وقد
تطورت هذه التحصينات خلال حرب الانفصال (١٨٦١ - ١٨٦٥)^(١) . والحرب
الروسية اليابانية (عام ١٩٠٥) . وحروب البلقان بين عام ١٩١٢ إلى عام
١٩١٣ وفي هذه الحروب سمحت خطوط الخنادق للمقاتلين بالاحتباء من نيران
الاسلحة ذات الفعالية الشديدة .

وفي الحرب العالمية الاولى ، حصل نوع من السكون الطويل ، على جميع
الجبهات ، واستمر طيلة شتاء عام ١٩١٤ - ١٩١٥ . وكانت خنادق الاطراف
المتنازعة تمتد بالتوازي بين بحر الشمال حتى الحدود السويسرية ، وتغطي
مؤخرات الجيوش ، والممرات الهامة في النقاط الحيوية على كلا الجانبين .
ونشكل هذه الخنادق قاعدة انطلاق هجومية محلية .

وبين الحربين العالميتين كان خط ماجينو وخط سيففريد يؤمنان استمرارية
وتشابكا في نيران الاسلحة المختلفة . وفيما بعد شيد الالمان خلال الحرب الثانية

(١) حرب الانفصال : هي الحرب التي نشبت عام ١٨٦١ في الولايات المتحدة الأمريكية ،
بسبب إلغاء الرق ، ودامت حتى عام ١٨٦٥ . وكان انتخاب ابراهام لنكولن إشارة لبداية هذه
الحرب عام ١٨٦٠ . وقد انتصرت فيها ولايات الشمال على الولايات الجنوبية التي كانت تتمسك
بالرق وتطلب الانفصال ، بينما كان الشماليون يؤيدون إلغاء الرق ويطالبون بالاتحاد .

على طول شواطئ أوروبا حصونا منيعة مكلفة بنفس المهمة التي اسندت لجدارها
دريان الروماني والحصون المقوقة في القارة الامريكية . ويشير الاسم الذي
اطلق على سلسلة هذه الحصون « جدار الاطلسي » الى الغاية المطلوبة منه .

غير ان هذه التحصينات المشهورة ، لم تشكل سدا فعالا تجاه قوة ومرونة
القوات المحمولة جوا ، شأنها في ذلك كشأن جدار الصين العظيم . . . وسلسلة
الحصون المقوقة ، وخط ماجينو وخط سيففريد . . . الخ (١) . . .

ويفكر المختصون في هذه الايام باقامة سدود من الصواريخ المضادة
للصواريخ والمخصصة لحماية الامبراطوريات الحالية المتخاصمة في عصرنا (٢)
من خطر القذائف النووية . وهذه السدود عبارة عن خطوط دفاعية مهمتها
منع تسرب القذائف الصاروخية الحديثة الى فضاء الدول التي تدافع عنها .
فهل ستلاقي هذه السدود الحديثة نفس المصير الذي لاقته الخطوط
الدفاعية التي اتينا على ذكرها منذ الامبراطورية الرومانية حتى نهاية الحرب
العالمية الثانية (٣) .

من القصور المحصنة الى المواقع المحصنة

حافظت معظم المدن في العصر الوسيط على اسوارها بعناية شديدة ، وظهر
على جانب ذلك فن عمارة عسكري ، اساسه « القلعة » التي اصبحت تقام على
مفارق الطرق وبالقرب من القرى التي تحميها .

وتبنى « القلعة » بشكل عام على مرتفع طبيعي يصعب الوصول اليه ،
كما تقام احيانا فوق تبة اصطناعية . ويرتفع في وسط القلعة عادة ، البرج
الرئيسي . وهذا البرج دفاعي بحت ، يحاط بأبنية ذات جدران سميكة تُشكل
بمجموعها سورا متصلا . ويحيط بالقلعة عادة خندق عميق وعريض يملأ في

(١) لعل من الجدير بالذكر ان نضيف الى هذه الخطوط ، خط بارليف ، على قنال السويس
وخط مرتفعات الجولان الذي يمتد بين برج مراقبة جبل الشيخ ووادي الحمة (العرب) .
(٢) ويقصد المؤلفون بهذه الامبراطوريات ، كلا من الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد
السوفييتي (العرب) .
(٣) بل وحتى حرب تشرين التحريرية التي شهدت سقوط خط بارليف وخط الجولان (العرب) .

اغلب الاحيان بالمياه لمنع وصول المهاجمين للجدران . اما مدخل القلعة الرئيسي فيحوى بواسطة جسر متحرك يرفع في حالة الخطر ويسمح بعزل القصر تماما ، وبذلك تتمكن حامية القلعة من مقاومة الحصار لمدة طويلة دون ان يتمكن المهاجمون من الوصول الى جدرانها او الدخول اليها .

وتضم القلعة بالاضافة الى القوات المدافعة والاحتياط ، جميع السكان الذين يلجأون اليها من القرى المجاورة للاحتماء من الاعداء .

ويعتبر القصر المحصن منيعا ضد وسائل الحصار التي كانت تستخدم في ذلك الزمان . لذلك كانت الوسيلة الفعالة لاسقاطه والاستيلاء عليه هي المجاعة او الحيلة او الخيانة .

وكان قصر غايارد(١) احد اروع الاعمال الفنية في عصر الاقطاع ، وهو من القصور التي لا يمكن الاستيلاء عليها ، ولم يسقط الا في عام ١٢٠٤ م بعد حصار استمر ثمانية اشهر .

وفي مدينة فوجير يمكن ملاحظة حالة غريبة حيث تتداخل القلعة مع اسوار المدينة لكي تستطيع حماية النقطة الاكثر حساسية فيها .

وفي سيفوفي تتداخل الكاتدرائية المحصنة نفسها مع الاسوار التي تدعمها . وتجدر الاشارة الى ان اوربا بكاملها مغطاة بالقصور المحصنة . وقد اقام الصليبيون بعض القلاع الهامة في الشرق وتعتبر « قلعة الحصن » الشهيرة (في سورية) شاهدا رائعا على ذلك .

وتلعب القصور المحصنة دورا من الدرجة الاولى في تطور الفن العسكري الدفاعي ، غير ان تطور آلات الحصار افقد هذه القصور جزءا كبيرا من تفوقها . ومع ظهور اسلحة المدفعية تم القضاء نهائيا على القصور المحصنة ،

(١) قصر غايارد : قلعة مهدمة تسيطر على نهر السين في منطقة اندليس . شيد في عام ١١٩٧ م من قبل ريشارد قلب الاسد واستولى عليه الملك فيليب اوفست عام ١٢٠٤ م وهدمه الملك هنري الرابع .

وانتصرت السلطة الملكية على سلطات النبلاء الافطاعيين وفرضت عليهم الخضوع
للادارة المركزية .

أما التحصينات العسكرية فقد بدأت تتكيف تدريجيا تبعا لتطور اساحة
الهجوم . فأخذت الجدران بالانخفاض لكيلا تكون هدفا بارزا للقذائف ، ودفنت
معظم التحصينات الرئيسية في باطن الارض .

وبعد ظهور المهندسين العسكريين المشاهير من أمثال فوبان^(١) اكتسب الفن
العسكري ابعادا جديدة ، واصبح كل موقع محصن اثرا فنيا دفاعيا بحد ذاته
واندمجت أنظمة المواقع الدفاعية المحصنة في اطار المخططات الدفاعية للأقاليم
والمناطق ، واصبحت بالتالي جزءا لا يتجزأ من خطط مناورات الجيوش ٦

وقد انجز فوبان تحصين جميع مواقع الحدود التي تغطي المملكة بكاملها ،
واعطى المخطط المنشآت الدفاعية صفة فنية رفيعة . واصبحت المدن المحصنة
تبدو للناظر من الجو على أبهى الصور .

ومنذ القرن السادس عشر اخذ المهندسون العسكريون الايطاليون يتبارون
في انشاء المواقع والمدن المحصنة ، جاعلين منها آثارا فنية خالدة ، كما هي الحالة
بالنسبة لمدينة بالمانوفا .

وفي القرن التاسع عشر تكيفت التحصينات لكي تقاوم تأثير رمايات المدفعية،
وفصلت بعض الحصون الضخمة عن المجموع ، ولكنها بقيت قادرة على تبادل
الدعم الناري مع المواقع المجاورة ، وهكذا ظهر للوجود « النطاق الدفاعي
المتقطع » ، كما هي الحال في دوسيريه دو ريفيير التي تغطي حدود فرنسا
الشرقية .

وفيما بعد اصبحت التحصينات اقل بروزا فوق سطح الارض ساعية
للاختفاء ضمن المنظر الطبيعي للارض .

(١) فوبان : مارشال فرنسي (١٦٣٣ - ١٧٠٧) م عين مفتشا عاما للتحصينات عام ١٦٧٨ م ،
واثرف بنفسه على تحصين عدد من المدن الفرنسية ، ونال بذلك شهرة لم يسبقها اليه احد في
هذا الميدان . ولكنه سرعان ما فقد حظوه لدى الملك على اثر اصداره كتابا انتقد فيه نظام
الضرائب السائد آنذاك .

وتعتبر المنشآت الدفاعية الحالية الرد الطبيعي على القصور الاقطاعية المحصنة ، وتحتوي هذه المنشآت على كل ما هو ضروري للصمود اطول مدة ممكنة ، حتى في حالة العزلة والاحتلال .

وبدلا من ان ترتفع بفطرسية فوق الهضاب والمرتفعات - كما كانت الحال في العصور الوسطى - فقد اخذت المنشآت الدفاعية تندمل في باطن الارض لتجنب الانظار والنيران المعادية .

وتقوم تحصينات دوومونت على ضفاف نهر الموز مغطية موقع فيردان المحصن الذي لم يسقط في عام ١٩١٦ م الا بسبب المفاجأة . ويعتبر هذا الموقع المحصن النموذج المثالي للمنشآت الدفاعية الحديثة .

اشهر حصار في التاريخ

كان مصير المدن ، التي انفلقت على نفسها داخل الاسوار ، دائما السقوط والاستسلام عاجلا ام آجلا ، مهما بلغت حماسة ويطولات المدافعين عنها ، خاصة عندما يكون الاعداء المهاجمين مصممين على القتال مهما كانت التكاليف .

ولكن بلوغ هذا الهدف يتطلب استخدام عنصر الزمن الى اقصى الحدود ، وذلك للقضاء على آخر امل في متابعة المقاومة لدى المدافعين الاشداء . وحصار طروادة ، من ابرز الامثلة التاريخية على هذا النوع من الحروب ، فقد استمر عشرة اعوام طوال ، ومع ذلك كان لا بد من استخدام ، ذكاء اوليس الخارق ، وحيله الشيطانية لادخال المقاتلين الى المدينة المحاصرة مختبئين في جوف حصان خشبي ضخمة (١) (هو حصان طروادة المشهور) .

وبعد هذا الحدث بزمان ، لم يستطع الحصار من اسقاط مدينة سينا الإيطالية ، الا بعد فرض المجاعة الرهيبة على سكانها والمدافعين عنها ، مما اجبر القائد مونلوك (٢) على الاستسلام لكيلا يطيل في يؤس وعذاب المحاصرين .

(١) اصبحت اسطورة « حصان طروادة » مضربا للامثال في جميع الاجيال للدلالة على براعة الحيل السياسية والعسكرية والاستراتيجية (العرب) .

(٢) مونلوك : مارشال فرنسي (١٥٠٢ - ١٥٧٧) دافع عن مدينة سينا الإيطالية عام ١٥٥٥ م واضطر للاستسلام بسبب المجاعة الرهيبة التي ماتها السكان المحاصرين .

وقد بقيت آلات الحصار القديمة تفتقر الى القوة الكافية لتدمير جدران الحصون والقلاع الى ان ظهرت المدفعية في القرن السادس عشر ، فأصبحت الاداة الفعالية الرهيبة لتدمير الحصون والقلاع والتمهيد لسقوطها .

وتجدر الاشارة ، في هذا المجال ، الى أن الاشوريين كانوا يملكون تقنيات رائعة ومعدة اعدادا ممتازا لمهاجمة المدن ومحاصرتها ، منذ عدة قرون قبل الميلاد، فكانوا يحتمون بالدروع ويهاجمون اسوار المدن (التي كانت تشاد انداك بالاجر ؟ فيفتحون الشفرات بالحفر تحت الاسوار .

اما الاسكندر المكدوني ، فقد قضى ماينوف عن سبعة أشهر في حصار مدينة صور السورية الى أن تمكن من احتلالها عام ٣٢٢ ق.م. وكانت مدينة صور مبنية فوق جزيرة غير بعيدة عن الشاطئ ، فعمد الاسكندر الى اقامة جسر عظيم لوصلها بالبر واستخدمها للاتقضاض عليها . ودفعت هذه المدينة الباسلة ثمنا باهظا لمقاومتها البطولة ، فقد ذبح جميع المدافعين عنها وبيعت نساؤها واطفالها كعبيد .

يعتبر حصار مدينة « قرطاجة » الفينيقية من الاحداث التاريخية التي غيرت مجرى التاريخ . فبعد ثلاثة اعوام من حصار الرومان لهذه المدينة العظيمة (بين عام ١٤٩ و عام ١٤٦) قبل الميلاد ، عمدوا الى اغلاق مداخل مرافئ المدينة وذلك ببناء مكسر صخري في وسط البحر (١) . اما السفن التي كانت تحاول الخروج للبحث عن التموين فيتم اغراقها . وكانت الخطة تقوم على خنق المدينة لاجبارها على الاستسلام . ومع ذلك لم تدعن مدينة قرطاجة الا بعد انتقضاض جحافل الرومان النهائي عليها ، وجرت في شوارعها أعنف المعارك ، وقام المهاجمون بعد ذلك باشعال النيران في المدينة فسقطت قلعتها الشهيرة بيرسا تحت ضغط الهجمات المتكررة ، وأبيد معظم سكانها ، أما من بقي منهم على

(١) قام ريشيلو بنفس هذا العمل اثناء حصار مدينة لاروشيل بين عام ١٦٢٧ و ١٦٢٨ للاستيلاء عليها .

قيد الحياة فقد اخذوا كعبيد . واختفت حضارة قرطاجة تحت انقاض المدينة
المغلوبة .

ويعتبر حصار مدينة اليزيا الفولية ، عام (٥٢) ق.م من قبل القيصر
سيزار ، نموذجا فريدا من نوعه ، فقد عمد الجيش الروماني المهاجم الى بنشاء
حصون خارج المدينة المحاصرة للاحتماء فيها . واعتصم داخل هذه الحصون
وكدس الحبوب والاعلاف التي تكفي لثوونة قواته لمدة ثلاثين يوما . وهكلا تم
عزل قوات « الفول » المحاصرة في اليزيا ، عزلا تاما عن العالم الخارجي . وكانت
هذه المدينة قائمة على قمة هضبة مرتفعة وتحميها الاسوار من جميع الجهات .
ولم يكن لدى القيصر اي امل في اسقاطها بسبب عجز آلات الحصار عن تدمير
هذه الاسوار ، لذلك قرر اجبار قائد حامية اليزيا فيرسينجيتوريكس على
الاستسلام بتجويع جيشه ، الذي لم يكن يجد في المدينة مكانا ملائما يلجا اليه
فاحتمى بخندق بسيط مدعوم بجدار بدائي .

عمد القيصر بعد ذلك باحاطة مدينة الفولواز بتحصينات بدائية مؤلفة من
الخنادق والاسوار والاورناد ، والابراج ووضع خلفها حاميات قوية . وقبل
اكتمال الحصار حاول القائد الفولي ارسال فرسان لطلب النجدة من القبائل
الفولية . ولكن هذه النجدات لم تصله ابدا . عندها قرر التخلص من الافواه
التي لا فائدة منها بالدفاع (الشيوخ والنساء والاطفال) فاخذهم القيصر كعبيد .
ولم تقتصر المعارك التي خاضها الفوليون باية نتيجة ايجابية بل تطورت في النهاية
لصالح القيصر . واصبح استسلام فيرسينجيتوريكس (قائد الفول) حتميا .
وانتهى الحصار بمشاهد العنف والوحشية المعتادة . وخضع الشعب الفولي
لروما . واقتيد القائد الفولي اسيرا الى روما ليكمل زينات مراسم احتفالات
انتصار القيصر ، ثم نفذ فيه الاعدام داخل سجن ماميرتين في عام (٤٦) ق.م
وعلى اثر هذه المعركة زالت حضارة الفول وحلت محلها الحضارة الرومانية .
ويمكن اعتبار هذه العملية نموذجا مثاليا لحروب الحصار التي تتألف
عادة من المراحل التالية :

الحصار ، فاخمد جذوة المقاومة تدريجيا ، والاعداد للعملية النهائية .

والانتفاض على المدينة المحاصرة التي تعمها الفوضى والمجاعة ، واخيرا استخدام كل انواع العنف ضد العدو المهزوم .

وبعد قرون عديدة وقع حصار آخر من نوع جديد كرس نهاية الامبراطورية الرومانية في الشرق ، ومهد الانتقال من الحضارة الرومانية الى حضارة اخرى . قامت بهذا الحصار القوات التركية وانتهى بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م .

كانت مدينة القسطنطينية محاطة بأسوار يزيد طولها على ثلاثين كيلو مترا ، ومن بين هذه الاسوار جدار تيودوس الذي يمتد من بحر مرمرة الى القرن الذهبي وقد ظل هذا الجدار يحمي المدينة طوال عشرة قرون ، باستثناء غزو الصليبيين المفاجيء عام ١٢٠٤ . وكانت الاسوار والخنادق والجدران تتوالى في العمق على عدة خطوط متتالية ، تضم فيما بينها مواقع للأسلحة . وفي عام ١٤٥٣ ، أصبحت حامية القسطنطينية قليلة العدد وضعيفة المعنويات ، فلم تكن قادرة على الصمود الى النهاية امام هجمات جيوش السلطان محمد الثاني .

بدأت عمليات السلطان التركي باقامة قلعة على الشاطئ الاوربي للبوسفور تكمل القلعة الموجودة على الشاطئ الاسيوي وذلك لمنع مرور السفن القادمة من البحر الاسود . وكان بحوزة السلطان عددا من مدافع الحصار الضخمة ، التي استطاعت احداث اضرار هامة في اسوار المدينة .

وبالرغم من هذه الاستعدادات فان الهجوم الاول القادم من البر ، بآء بالفشل . وبعد ذلك حاول الاسطول التركي الاستيلاء على القرن الذهبي ولكن دون جدوى . عندها قام السلطان بنقل سبعين سفينة عن طريق البر وعبر بقواته شبه جزيرة بيرا ، وتكللت هذه العملية البارعة بالنجاح بعد جهود شاقة وخيالية . ونتيجة هذه العملية توفرت الشروط الضرورية للقيام بالهجوم الحاسم .

بدأت المدفعية التركية بفتح الثغرات في الاسوار ، ولم يتمكن المدافعون سدها ، كما لم يساعدهم عددهم الضئيل على الدفاع عن جميع النقاط المهدومة .

وفي ٢٩ ايار ١٤٥٣ م بدأ الهجوم التركي العام الذي تكلل بالنصر الحاسم . وهكذا ولاول مرة في التاريخ برهنت المدفعية على انها أداة حربية حاسمة ، وفتحت بذلك مرحلة جديدة احتدم فيها « الصراع الابدي بين المدفع والدرع » . ولكن الحدث التاريخي الاكثر اهمية هو : زوال الحضارة الرومانية الشرقية وحلول الحضارة التركية محلها . او بالاحرى 'الحضارة الاسلامية التي انفرست بصلابة خلال عدة قرون في اوربا .

وفي العصر الحديث سجل حصار ليننغراد الطويل من قبل الجيوش الهتلرية (من ٢ ايلول ١٩٤١ لغاية ١٢ كانون الثاني ١٩٤٣) انتصار القوات السوفياتية المدافعة . وكانت الوسائل التي استخدمها المهاجمون من احدث الوسائل التي عرفت حتى ذلك الوقت ، ومن بينها المدفعية الضخمة البعيدة المدى ، والقوى الجوية الحديثة ، مما يساعد على اطالة الاعمال الهجومية ، غير ان ارادة الصمود التي لا تنزعزع لدى المدافعين ، استطاعت الوقوف في وجه الجيش الالمانى المهاجم ، وقامت بأعمال تشبه المعجزات . وقد اشترك جميع سكان مدينة ليننغراد في بناء المنشآت الدفاعية ، التي تذكرنا بتلك الاعمال التي نفذها القيصر حول مدينة اليزيا الفولية - كما ذكرنا سابقا - ومن بين هذه الاعمال الخنادق ، والاوئاد وغير ذلك .

وبالرغم من التضحيات الهائلة التي كان يتطلبها الموقف ، الا ان معنويات المحاصرين (المدافعين) لم تهن ولم تضعف وبقيت هجمات الجيش الالمانى المتتابعة العنيفة دون جدوى . وكان النصر النهائي الى جانب المدافعين حيث استطاعت جيوش الميدان فك الحصار .

واذا دققنا النظر في حالة اخرى وقعت خلال الحرب العالمية الثانية نفسها ، هي الدفاع عما أطلق عليه الالمان اسم « قلعة اوربا » ، لوجدنا انه لا بد من الاعتراف بأن شروط الحصار تخضع دائما لنفس القواعد العامة الأنفة الذكر : محاصرة المدافعين ، الاعداد الهائل وتحضير وسائل الهجوم ، واخيرا الانقضاء النهائي .

ومما لا شك فيه ان نتيجة الحصار ستكون ايجابية عندما يفقد المدافعون

كل أمل بتلقي الدعم الفعال من الخارج . وفي مثل هذه الحالة يتضاءل التصميم على المقاومة ويصل ذلك الى حد الاستسلام .

وفي اغلب الاحيان يرافق سقوط المناطق او المدن المحاصرة ، اختفاء الحضارة التي يراد الدفاع عنها ، كما حدث ذلك بالفعل عبر التاريخ بالنسبة للغولوا وبيزنطة والمانيا الهلترية .

وفي عام ١٩٤٥ ، حول التطور الذي حملته الذرة العلاقات بين الهجوم والدفاع تحولا جذريا ، تناول التحصينات والحصار . فلم يعد للقلاع تلك المزايا التي تتمتع بها الصواريخ ، اللهم الا اذا كانت مطمورة على اعماق سحيقة في باطن الارض ، ذلك انه اصبح بالامكان ازالة هذه التحصينات بقنبلة ذرية واحدة ، كما ان بمقدور هذه القنبلة نفسها فتح المواقع المحصنة امام المهاجمين .
والخلاصة ان التحصينات لم تعد ابدا اسوارا تحمي الحضارات .

* * *

الفصل الثاني عشر

الحضارات والبحار

تحتل البحار والمحيطات الشاسعة ، التي تشغل ثلاثة ارباع مساحة الكرة الارضية ، تحتل مكانا عظيما جدا في حياة الشعوب . وقد كان لهذه البحار نفوذا هائلا على تطور الصراع بين الحضارات شاتها في ذلك كشأن الاراضي اليابسة .

وكان البحر الابيض المتوسط مهدا لاهم الحضارات القديمة . . كما كانت بحار اليابان والعديد من خلجان المحيط الهادي مهدا للحضارات الاسيوية . وحول المحيط الاطلسي تطورت الحضارة الاوربية التي استطاعت في القرون الاخيرة بسط نفوذها حتى شواطئ المحيط الهادي .

من ملاحه السواحل الى الملاحة فوق البحار العالية

كان الانسان الذي يعيش على شواطئ البحار منذ اقدم العصور يقوم بالرحلات فوق الماء . وقد اضطره الخوف من المفامرة في عرض البحار الى عالم مجهول ، اضطره ذلك في البداية الى عدم الابتعاد كثيرا عن الشواطئ ، خاصة وانه كان يفتقر في هذه المرحلة الى الادوات التي تساعد على معرفة الاتجاهات الاربع .

ولكن بعض الشعوب الجسورة لم تتردد بالاقدام على القيام برحلات طويلة

فوق البحار ، دون ان تعرف الجهة او المكان الذي ستقلدها الامواج والرياح اليه . وهكذا اتجهت شعوب شمالي اوربا الى القارة الامريكية كما اتجهت القبائل الاسيوية الى خلجان المحيط الهادي (١) .

ويرجع اصل الملاحة الى الازمنة المفرقة في القدم ، ولا نعلم فيما اذا كان « الزورق الاول » عبارة عن « طوف » بدائي خشن ام انه كان قطعة من الخشب الخفيف او جلدعا لشجرة .. ونكاد نجهل كل شيء تقريبا حول السفن التي استخدمها الانسان في عصور ما قبل التاريخ .

وتظهر لنا بعض الرسوم التي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ ، بان الانسان كان يعرف التنقل فوق الانهار التي تؤدي الى البحر الابيض المتوسط . ومما لا شك فيه انه كان يقوم ببعض المغامرات فوق مياه هذا البحر ، بل لا بد وان تكون قد وقعت هجرات بشرية كبيرة فقدتها الذاكرة ولم تشأ المصادفات حتى الآن تأكيدها او الكشف عنها .

وقبل ما يزيد عن (٣٠٠٠) عام قبل الميلاد استخدمت السفن الشراعية في مصر . وكان الانسان انذاك قادرا على استخدام قوى الطبيعة ، وكان الهواء المصدر الوحيد للطاقة في مجال الملاحة البحرية الى جانب قوة الانسان العضلية التي تستخدم المجداف . وبقي الامر على هذه الحال حتى ظهور « قوة البخار » في منتصف القرن التاسع عشر . ومع ذلك لم يختف الشراع حتى هذه الايام ، حيث لا يزال يستخدم بشكل خاص في المجال الرياضي والترويح عن النفس .

وليس من المستبعد ان تؤدي أزمة الطاقة التي اخذت بالاشتداد في السنوات الاخيرة ، الى فتح مجال اقتصادي للشراع في المستقبل (٢) .

(١) في بعض فصول هذا الكتاب اشارة الى ان بعض شعوب اسيا اتجهت الى امريكا الجنوبية وقد برهن على ذلك بعض العلماء المعاصرين رحلة البحار ييشوب (المغرب) .

(٢) من المعروف ان اليابان انزلت في منتصف عام ١٩٨٠ الى البحر باخرة ضخمة تسير بواسطة اشعة معدنية هائلة يمكن استخدامها عندما تسمع الرياح بذلك وهذا يعني ان للشراع مستقبل اكيد (المغرب) .

ويمكن التأكيد بأن العنصر السائل شاهد البشر وهم يتحاربون ويتصارعون فوق لججه . وقد عثر في قبور المصريين على مشاهد لمعركة بين سفن مصنوعة من « البابيروس » وسفن شراعية قادمة من بلاد الشمال . وهناك مشهد مماثل محفور على قبضة سكين من العاج اكتشفت بين البحر الاحمر ونهر النيل . ويؤكد هذا المشهد ان المياه النهرية والبحرية استخدمت منذ اقدم العصور في اغراض الحروب .

ويمكن تكوين فكرة دقيقة عما كانت عليه الملاحة البحرية في بدايتها ، وذلك بملاحظة السكان الاصليين في جنوب المحيط الهادي ، اذ لا يزال هؤلاء السكان يطوفون بزوارق بدائية مصنوعة من جذوع الاشجار الضخمة ، وقد انحدر الملاحون الشجعان من اولئك الذين كانوا يجوبون المساحات الشاسعة الحالية التي تفصل الجزر عن اليابسة . ولم يختلف شكل زوارق جذوع الشجر طوال الالف السنين . وكان الى جانب ذلك زوارق مزدوجة من هذا النوع ، وزوارق ذات رقاص ، وكان بعض هذه الزوارق كبير الحجم يمكنها نقل ما يزيد على مائتي شخص .

وقد ساعدت هذه الزوارق الهزيلة القبائل الاندونيسية على الهجرة نتيجة لطردها من قبل غزاة مجهولين قادمين من الاراضي القريبة من القارة الاسيوية . ويبدو ان هذه القبائل ، تنقلت بحرا من جزيرة الى اخرى ، وكانت هي الاصل الذي انحدرت منه الشعوب البولينية .

وهناك نظريات اخرى مطروحة الآن ، نعرف منها نظرية عالم الاجناس النرويجي ثور هايرداهل .

لقد دهش هذا العالم من الشبه العظيم بين التماثيل الغريبة الموجودة في جزيرة باك^(١) ، والتماثيل الاخرى التي توجد فوق اراضي امريكا الجنوبية .

ويعتقد هذا العالم ان شعوب المحيط الهادي استطاعت الانتقال من القارة

(١) جزيرة باك : احدى جزر المحيط الهادي غربي الشيلي وتحتوي على تماثيل حجرية ضخمة تنسب للشعوب البولينية .

الأمريكية مستخدمة التيارات البحرية التي تحمل « الأطواف » أو الزوارق من الشرق الى الغرب . ولكن يبرهن على صحة وجهة نظره هذه ، صنع ثور هايدر داهل طوفا من خشب البالزا وقام برحلة جريئة بين شواطئ أمريكا الجنوبية وجزيرة باك .

غير ان نجاح هذا العالم في رحلته لم يكن كافيا لاقتناع علماء الاجناس بوجهة نظره .

وهناك بحار مفامر آخر يدعى ايريك بيشوب استطاع اجتياز المحيط الهادي بالاتجاه المعاكس (اي من الغرب الى الشرق) .

وتدل بعض المؤشرات الى ان الانسان كان يجوب بين ارجاء هذا المحيط في جميع الاتجاهات ، وكان بعض هؤلاء المغامرين ينتمون الى العصر الحجري . اما الاتصالات الاولى بين الحضارة الاوربية المعاصرة وبين جزر المحيط الهادي فكانت اثناء الرحلات المحفوفة بالمخاطر التي قام بها كل من كوك (٢) وبوفانفيل (٣) .

والواقع ان بحوث العالم ثور هايدر داهل وغيره من علماء الاجناس الذين عاشوا على جزيرة باك ، لم تكشف النقاب الذي يغطي حتى الآن أسرار حضارة الجزيرة العجيبة . فمن هم هؤلاء البشر الذين نحتوا هذه التماثيل العملاقة العجيبة ؟ ومن اين جاؤوا ؟ واين ذهبوا ؟ وكيف ومتى نشأت هذه الحضارة ؟ ثم كيف اختفت ؟ والحقيقة انه ما من اثر يمكنه الاجابة على هذه الاسئلة حتى الآن او يفسر وجود هذه الاثار الغريبة . اما سكان الجزيرة الحاليون فغير قادرين على تقديم اي جواب على هذه الاسئلة . .

(٢) كوك جيمس : بحار انكليزي (١٧٢٨ - ١٧٧٩) اكتشف جزر السوسيتية وجزيرة نيوزيلاندا . وفي رحلة اخرى وصل الى القطب الجنوبي ، وفي رحلة ثالثة اكتشف جزر هاواي وهناك اغتاله السكان المحليون .

(٣) بوفانفيل لونسى انطوان : بحار فرنسي ولد في باريس عام ١٧٢٩ ، وقام برحلة بحرية طاف فيها حول العالم بين ١٧٦٦ - ١٧٦٩ م . وتوفي عام ١٨١١ م واشتهر بمذكراته .

وهما يجدر ذكره أيضا ان الظروف التي تم خلالها أستيطان الجزر اليابانية لا تزال غامضة وغير معروفة بشكل جيد حتى الآن . ويمتقد ان بعض القبائل البدائية التي كانت تستوطن الشواطئ السيبيرية ، غادرت هذه المناطق في عصور ما قبل التاريخ وركبت البحر الى ان وصلت اليابان ، كما قدم الى هذه الجزر قبائل اخرى من ماليزيا واندونيسيا . غير انه ليس هناك اية معلومات دقيقة وموثوقة عن الزمن الذي تمت فيه هذه الهجرات ، او حول الظروف والشكل الذي حدثت بموجبه .

ومن المعروف جيدا ما حدث في جزيرة ماداغسكر ، فالقبائل الاصلية جاءت من جنوب اسيا ، وقد حدث انتقالها خلال فترة القرون الاولى بعد الميلاد . وبعد هذا التاريخ قدم الجزيرة عناصر هندية وعربية لتكمل النواة الاولى للسكان المحليين ، ثم انضموا لهؤلاء عبيد من القارة الافريقية . وهكذا أصبح السكان الحاليون يمثلون تنوعا كبيرا من حيث اصولهم .

ومنذ فجر الزمان حتى عهد قريب ، كانت الطرق البحرية تسلكها تيارات سكانية عظيمة باحثة عن الاراضي الملائمة للزراعة والتنمية . فما هي الاسباب التي دعت لحدوث مثل هذه الهجرات ؟

وللجواب على هذا السؤال قدم بعض العلماء الضغوط الديمغرافية (او تزايد السكان) كمبرر لهذه الهجرات معللين ذلك بأن ضيق الاراضي الزراعية او جذبها يضطر السكان الفائضين للبحث عن اراض خصبه فارغة ، كما يضطر بعض السكان احيانا للرحيل عن اراضيهم الاصلية بسبب هجمات الغزاة الجياع ، كما حدث عبر العصور القديمة .

بقي علينا ان نؤكد ان الانسان الذي كان يندفع بجراة عظيمة لامتطاء البحار غير عابىء بما يلاقه من احوال ، لا بد وانه استطاع الحصول منذ زمن مبكر جدا على المعارف والتقنيات الاولى الضرورية التي تمكنه من القيام برحلات واسعة عبر البحار . وبالرغم من انه لم يكن يملك في بداية الامر سوى وسائل هزيلة الا انه استطاع قهر البحر بجراته وميله الفطري للمغامرة والتغلب على المصاعب .

وبفضل هذه الطاقات التي اختص بها الانسان اكتشفت الطرق البحرية العظيمة التي لا يزال البشر يستخدمونها حتى يومنا هذا ، ولم تقل كل المنجزات الحديثة من أهميتها .

في البحر الأبيض المتوسط

ان الهجرات التي شهدتها حوض البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة منها تلك التي حدثت في جزئه الشرقي ، معروفة بشكل جيد .

ففي الألف الثانية قبل الميلاد زحف بعض الفزاة البرابرة من اواسط وشمالى اوروبا ، باتجاه الجنوب ووصلوا الى شبه الجزيرة اليونانية وسيطروا على معظم جزر بحر ايجه ، ثم اندفعوا بعد ذلك نحو البحر فاصطدموا مع الحضارة الكريتية^(١) التي كانت في أوج ازدهارها .

والواقع ان جزيرة كريت كانت قبل ذلك مع القارة الاوربية من جهة ومع القارة الافريقية (مصر) والقارة الاسيوية (خاصة اسيا الصغرى والشرق الأدنى) . وكان لا بد من مرور عدة قرون لكي يحل الآخيون^(٢) محل الحضارة المنيويين^(٣) . فحوالي عام ١٥٠٠ ق.م زالت الحضارة القديمة على الرغم من بعض الصحوات الموفقة التي مرت عليها ، وكان تدمير مدينة كنوسوس^(٣) عام ١٤٠٠ ق.م اشارة اكيدة لنهاية الحضارة الكريتية .

اما بعد اقامة المراكز التجارية الاغريقية ، وخاصة المراكز التجارية الفينيقية على شواطئ البحر المتوسط ، فقد ازدهر واتسع التبادل عن طريق البحر فشمّل الهجرات البشرية وتبادل السلع والبضائع والثقافات . وفي هذه المرحلة استقر الاغريق في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية وفي جزيرة صقلية وجنوبي بلاد الغول (اي فرنسا) . وقدم الفينيقيون الى افريقيا الشمالية ، وأنشأوا مدينتي

(١) الحضارة الكريتية : نسبة الى جزيرة كريت .

(١) الآخيون : هم اقدم اسرة منصرية اغريقية ، قدموا من منطقة تيساليا واحتلوا شبه الجزيرة اليونانية في مطلع الألف الثانية ق.م . وأنشأوا حضارة رائعة وكانت عاصمتهم ميسين .

(٢) الحضارة المنيويين : هي الحضارة التي ازدهرت في جزيرة كريت خاصة في عهد ملك الجزيرة الاسطوري المسمى مينوس حوالي الفترة الواقعة بين ٢٦٠٠ و ٢٢٠٠ ق.م .

(٣) كنوسوس : هي عاصمة كريت القديمة التي وصلت اوج مجدها في الألف الثانية ق.م .

سيراكوز(٤) وقرطاجة ، واحتلت هاتان المدينتان مركزا ممتازا في التبادل الذي تميزت به الحضارات القائمة آنذاك . وخلفت الحضارة اليونانية في جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية أبنية فخمة يمكننا ان نمتع بها انظارنا حتى في هذه الايام الحاضرة .

ولم تبق مصر غريبة عن التحركات البحرية . وتصف رحلة هانون(٥) بعض البلاد البعيدة التي لم يتم تحديدها بشكل اكيد .

ومع الاسف ان عمليات القرصنة رافقت ازدهار الملاحة في البحر المتوسط منذ اقدم العصور ، بل ولا تزال تظهر بين الفينة والاخرى في الايام الحالية . وفي رأي السيد هوبير دي شامت : « ان القرصنة الجماعية بين الشعوب وصلت الى اوج ازدهارها (في البحر المتوسط) واصبحت الرياضة المفضلة لهذه البشرية البربرية اليافعة » .

ويحدثنا المؤرخ الاغريقي هومير ان الملاحين الاغريق كرسوا انفسهم لعمليات القرصنة ، بل لقد خضع اكثر هؤلاء الملاحين شهرة وهو اوليس ملك ايثاك لغريبات النهب واللصوصية . واستخدمت روما في صراعها المميت ضد قرطاجة القراصنة الذين يقيمون في جزيرة صقلية(١) ، لان روما كانت تفتقر الى الاساطيل البحرية الكافية لهذا الصراع . وفيما بعد اصبح القيصر نفسه فريسة للصوصل القراصنة الذين يمخرون بسفنهم السريعة جميع ارجاء البحر المتوسط، فقد وقع هذا القيصر اسيرا في يد القراصنة بينما كان في طريقه الى اليونان ، فعرض على خاطفيه فدية هائلة ولكنهم اندروا مقابل ذلك الا يعدهم بعد اطلاق سراحه ، غير انه لم يحترم وعده واعدهم بالفعل .

ولعل من اهم الاسباب التي حدث بدول البحر الابيض المتوسط الى تطوير

(٤) سيراكوز مدينة في جزيرة صقلية .

(٥) هانون : بحار قرطاجي تجول في القرن الخامس ق.م على سواحل المحيط الاطلسي الافريقية .

(١) الغريب ان هذه الجزيرة لازالت حتى هذه الايام مصدر لا عظم رجال المافيا في العصر الحديث ، كما كانت في العصور القديمة موطن لاجرا وامهر القراصنة (العرب) .

اساطيلها الحربية وتزويدها بالسفن الحديثة التي تتصف بالقدرّة على المناورة والفتاكية المتزايدة في القتال ، ان هذه الدول ارادت حماية شواطئها وطرق مواصلاتها البحرية من غارات القراصنة .

تطور السفن

من المرجح ان اوائل السفن الحربية التي عرفتها البشرية ، كانت سفنًا مصرية وكان طول هذه السفن يصل الى حوالي ثلاثين مترا ، وتتميز بمقدمة ومؤخرة مرتفعتين جدا ، وتسير هذه السفن بشراع متصل بسارية عالية ، بالإضافة الى المجاذيف التي يبلغ تعدادها عشرين مجدافا في كل من جانبي السفينة ، الامر الذي يسهل المناورة خلال الاشتباك مع المراكب المعادية . ويعتبر هذا النوع من المراكب الحربية نموذجا اساسيا استخدمته جميع الاساطيل الحربية فيما بعد .

اما المركب ثلاثي المجاذيف ، الذي ظهر فيما بعد فيمتاز بأبعاد تزيد قليلا عن ابعاد المركب المصري الانف الذكر . وهذا المركب الثلاثي اصبح نموذجا كلاسيكيا للمراكب الطويلة التي استمر استخدامها حتى ظهور المدفعية البحرية .

وللوصول الى سرعة اكبر في السفن الحربية ، ازداد عدد الجدافين بوضعهم على صفوف منسقة فوق بعضها . فكانت السفينة المسماة (لابريم) تحتوي على صفين فوق بعضهما من المجاذيف . اما السفينة الثلاثية فكانت تحتوي على ثلاثة صفوف موضوعة فوق بعضها على كلا الجانبين . والواقع ان السفينة الثلاثية كانت السفينة الحربية الاولى عن جدارة ، وكان على ظهرها (١٤٤) جدافا ، ووصلت سرعتها الى ما يقارب عشرة عقد (او ما يعادل ١٨ كم/بالساعة) وهي سرعة هائلة في ذلك الوقت ، ولم ترتفع بعد ذلك الا عند تزويد السفن بالمحركات البخارية والانفجارية الحديثة . وقد جهزت السفينة الثلاثية بمقدمة متينة تستخدم لصدم المراكب المعادية ، قبل ان تقلد بحمولتها من الجنود الذين يزيد تعدادهم عن خمسين جنديا فوق ظهر السفينة المعادية .

وفي عام ٤٨٠ ق.م اظهرت السفينة الحربية الثلاثية الاثينية تفوقها على

السفن الفارسية في معركة سالامين ، لان السفن الفارسية كانت ثقيلة واقل قدرة على الحركة والمناورة من السفينة اليونانية التي كتب لها النصر بسبب سرعتها ومرونتها .

اما السفينة الحربية الشراعية ، الرومانية (الفالير) فتتأخر من السفينة الثلاثية الاغريقية آنفة الذكر . وكانت مثلها تستخدم الشراع والمجاديف ، ذلك ان الرومان الذين لم يكونوا شعبا بحارا ، عمدوا الى التقليد لفجزمهم عن الاختراع .

وكان الكريتيون بحارين ممتازين ، ادخلوا تحسينات هامة على بناء هذا النوع من السفن كما طوروا اساليب استخدامها .

ويذكر المؤرخون ان الاسطولين الروماني والمصري اشتبكا في معركة اكتيوم الحاسمة وكانا يختلفان في مفاهيمهما الحربية . ومن المؤكد ان كليوباترا فضلت الانسحاب بسرعة مع مراكبها في هذه المعركة لاعتبارات سياسية بحثة ، ولم يكن انسحابها ناتجا عن تفوق الاسطول الروماني .

ومن الجدير بالذكر ان هذه المجابهة الحربية التاريخية لم يستخلص منها اية دروس حربية مفيدة ، على الرغم من انها قررت مصير الحضارات في ذلك الزمان . ومرت بعد ذلك قرون عديدة لم يذكر التاريخ خلالها وقوع اية معارك بحرية هامة بعد معركة اكتيوم ، بل كان صراع البحارة والاساطيل يتركز على مقاومة القراصنة . ولم ينته هذا الصراع الا بعد ان اثباتت الدول القوية اساطيل حديثة ، لم تترك اي مجال لمغامرات سفن القرصنة المنعزلة ، التي اصبحت عديمة التأثير تقريبا .

اما اشكال السفن فلم يطرا عليها تغير كبير خلال قرون طويلة ، اللهم الا في بعض النقاط التفصيلية ، كما لم يطرا تغير كبير على التكتيك الحربي البحري . والحقيقة ان السفن الحربية الشراعية المسيحية التي دمرت الاسطول التركي (الاسلامي) في معركة ليبانت الشهيرة عام ١٥٧١ م ، فلم تكن تختلف من حيث شكل السفن ، واسلوب القتال عن المعارك في العصور القديمة . ولا تعطينا اللوحات العديدة التي خلدت هذه المعركة المسيحية الحاسمة ، اية فكرة عن

الاساليب التي استخدمت في قتال الاسطولين ، فجميعها تظهر لنا المراكب التي تلتهمها النيران ، تملوها غابات من السواري والمجاديف المشرعة ، وهي تخوض معركة فريدة حامية لا لون لها من الناحية التكتيكية .

المدافع والسفن الحربية

أحدث ظهور المدفعية المحمولة فوق السفن ، تحولا جوهريا بالشكل وبالتكتيكات الحربية البحرية . حيث اخذت المراكب البحرية تشن على مسافات بعيدة (تتناسب مع مدى رمايات المدفعية) ولم يعد هناك ضرورة للتصادم المباشر بين السفن المتقاتلة . وترتب على هذا التطور ازالة المصدم من مقدمات السفن الحربية .

ولما كان تركيب المدافع فوق السفن يحتاج الى مساحات اكبر ، فقد أصبحت السفن الحربية اكثر ثقلا وضخامة واقل ضمورا (انسيابية) .

وفي القرن الخامس عشر سمحت القطع المدفعية المركبة على سطح السفن بقصف النبال من مسافات بعيدة ضد بحارة الاساطيل المعادية . وفي القرن السادس عشر أصبحت المدافع التي تلقم من فوهة السبطانة قادرة على تكبيد مراكب العدو اضرارا قاتلة (لا يمكن اصلاحها) ، الامر الذي ادى الى اختفاء الجدافين ، كما ازداد وزن السفينة واقتصر تسييرها على الاشرعة فحسب . وغدت السفن الحربية اقل مرونة في المراكب التي تجري على مسافات بعيدة . وطرا تغيير هام على التكتيك ، فمن اجل الاستفادة القصوى من المدافع فان لا بد للسفن الحربية من الوقوف في مواجهة بعضها البعض بشكل متوازن تقريبا .

وفي المعركة الكبرى التي اشتبكت فيها الاساطيل الانكليزية بالاساطيل الاسبانية (الارمادا) عام ١٥٨٨ م ، استخدمت الاساليب التكتيكية الحديثة . وكان الاسطول الاسباني (الارمادا الذي لا يغلب) في هذه المعركة ، فريسة للرياح العاصفة الهوجاء التي اوقعت به من الاضرار اكثر مما تكبد من الخصم الانكليزي ، هذا مع العلم بأن الاسطول الانكليزي كان يتفوق بالمدفعية .

واستمر العمل بالاساليب والاشكال البحرية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الرغم من وقوع بعض التنوع في السفن الحربية ، فقد ظهرت السفينة الحارقة ، ومراكب الخطوط ، والغراب (١) . ولم يظهر في هذه الفترة اي تفوق تقني لصالح سلاح البحرية .

اما الانتصارات التي حققتها الاساطيل البريطانية ضد اسطول نابليون ، فترجع لنوعية وكفاءة امراء البحر الانكليز اكثر مما ترجع الى مميزات السفن الحربية الانكليزية . وكان الفضل في الحصول على السيادة المطلقة على البحار ، يرجع لاستيلاء الانكليز على مدينة قادس البحرية الاسبانية . يضاف الى ذلك انتصارات الاميرال ويلليفتون (الانكليزي) في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا)

البحار والمسار

كانت اهم التحولات العميقة التي طرات على الاساطيل البحرية في اواسط القرن التاسع عشر ، عندما استخدم البخار في تسيير المراكب التي سرعان ما اصبح الامكان بناءها من المعدن .

ومع استخدام البخار في البحرية ، اصبحت المنارات في اعالي البحار اكثر سهولة ولم تعد تخضع لنزوات الرياح . ومع ذلك استمرت السفن الشراعية تنافس السفن المسيرة بالبخار بسبب بطء حركتها في البداية ، وظلت السفن الشراعية السريعة ذات السواري الاربع ، متفوقة على السفن البخارية بسرعتها ، كما استمرت في عملها لنقل الشاي من الهند متخطية رأس الرجاء الصالح ورأس هورن ، لان السفن البخارية لم تكن قد بلغت انذاك المستويات العالية التي وصلت اليها تجارب السفينة فيلتون فوق مياه نهر السين عام ١٧٩٧ م .

وكانت المرة الاولى التي قطعت السفينة البخارية فيها المسافة بين اوربا والمقارة الامريكية ، هي في عام ١٨٣٨ م .

وفي مجال السفن الحربية تم استخدام السفينة الحربية الحديثة لأول

(١) اخذت هذه المصطلحات من المعجم العسكري الذي صدر في عام ١٩٦١ ، على الرغم من عدم قناعتنا بدقتها (العرب) .

مرة في حرب الانفصال الامريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) . وحلت المروحة محل
المعجلة ذات الريش (او الاجنحة) في هذه السفن الحديثة . وبدىء باستخدام
معدن الحديد في صناعة السفن ، وفتح ظهور اول سفينة حربية مصفحة
(السفينة مونيتور) التي استخدمها الشماليون ، فتح عصرا جديدا على الرغم
من ان النتائج التي توصلوا اليها لم تكن ذات اهمية كبيرة .

وكان ظهور الاساطيل البحرية الحديثة عاملا اساسيا استوجب توفير
وسائل صناعية هائلة وتقنيات جديدة . وحول سفن النقل العادية والطراة
المصفحة والمراكب المختلفة من كل الاحجام ، دخل الى الخدمة النسابات ،
والمضادات للنسابات ، وسفن الخفر ، وسفن التموين . وحافظت اسلحة البحرية
على التقاليد القديمة ، واحتفظت بأسماء رتب البحرية الشراعية : كالقبطان ،
وقائد الحراة وقائد الغراب .

الفواصات والطائرات

تم انجاز اختراعين هامين في مطلع القرن العشرين فأحدثا انقلابا بمفاهيم
الحرب البحرية . وهذان الاختراعان هما : الفواصة ، والطائرة .

وقد سجل هذان الاختراعان « مرحلة جديدة » كما كان الامر بالنسبة
للمدفع . فالمدفع اجبر السفن على الابتعاد عن بعضها البعض اما الطائرة فقد
اضطرت السفن للدخول في المعركة على مسافات شاسعة جدا ودون ان ترى
السلاح المهاجم .

وفي بادىء الامر كانت « المدمرة » تشكل تهديدا عظيما على السفن العائمة ،
لأنها قوية التصفيح في القسم العلوي فوق الخط الغاطس مما يجعلها قادرة على
مقاومة اقوى قذائف المدفعية . غير ان المدمرة تبقى شديدة الحساسية حيال
الطوربيدات التي تنفجر في مستوى الجزء الاقل تصفيحا .

اما الفواصات فزادت من اهمية الاخطار المحدقة بالسفن ، لقدرتها على
الاقترب منها دون التعرض للاكتشاف . واصبحت الفواصات اكثر فعالية ضد

السفن التجارية المجردة من السلاح ، والتي أصبحت تنتقل على شكل قوافل تحت حماية المراكب الحربية .

وبظهور الفواصات أصبح بالامكان اغلاق شواطئ العدو بشكل غير مباشر ، ففي الحرب العالمية الاولى لم تتح الفرصة للاسطولين الانكليزي والالماني لان تشتبك تشكيلاتهما مباشرة الا مرتان : احدهما في معركة فولكلاند عام ١٩١٤ والثانية في معركة جوتلاند عام ١٩١٦ .

ومنذ عام ١٩١٤ اخذت الطائرة تلعب دورا ما في المعارك البرية ، ولكنها بقيت ضعيفة الفعالية في البحار . واضطرت الحرب الاولى بعض الدول الكبرى لبناء سفن مخصصة لنقل الطائرات ، اطلق عليها اسم « حاملة الطائرات » . وقد استخدم اليابانيون والامريكيون هذا النوع من السفن الضخمة ، بشكل رائع جدا في الحرب العالمية الثانية .

اما المهمة التي اسندت للطائرات في الحرب البحرية ، فكانت البحث عن الفواصات وتدميرها على اعماق معينة ، وما لبثت بعد ذلك ان بدأت بالتدخل ضد السفن العائمة وظهرت فعالية مرعبة في هذا المجال . وكانت اولى ضربات الطائرة الموجهة للسفن البحرية ، في البحر الابيض المتوسط المعروف ببحر الحضارات القديمة وبحر النزاعات . . فقد هاجمت الطائرات البريطانية عام ١٩٤٠ في بحر تارانت الداخلي (١) ، الاسطول الايطالي الذي كان محميا بشكل ممتاز ضد سفن السطح والفواصات ، فاغرقت العديد من السفن واعطبت عددا آخر دون ان تتمكن هذه السفن من المقاومة الفعالة .

وفي آذار (١٩٤١) تكبد الاسطول الايطالي ايضا خسائر فادحة بسبب غارات الطائرات البريطانية ، عندما كان يتجمع عند رأس ماتابان (٢) ، وذلك بسببه عدم وجود طائرات محمولة تغطيه .

(١) بحر تارانت : هو الجزء المائي الذي يقع في كعب الجزمة الإيطالية ، ويتشكل من الخليج المسمى باسمه .

(٢) رأس ماتابان : أو رأس تينا ، ويقع الى الجنوب من البوليبيونيز .

وفي المحيط الهادي والمحيط الهندي تبدلت ابعاد الحرب البحرية بين عام ١٩٤١ و ١٩٤٤ بعد ان اصبحت « حربا بحرية - جوية » . ولم يقتصر التغيير على الابعاد بل تناول المفاهيم التي اصابها تغييرات جذرية حاسمة .

وفي ٧ كانون اول ١٩٤١ هاجمت الطائرات اليابانية السفن الامريكية الراسية في ميناء بيرل هاربر (في جزر الهاواي) ، وخلال لحظات قصيرة دمرت هذه السفن التي كانت عاجزة عن القيام بأية مقاومة . وكان الفضل في هذه الفارة التاريخية للمفاجأة الكاملة ، فقد حملت هذه الطائرات سرا بواسطة السفن من الجزر اليابانية الى مسافة قريبة من الهدف ، الامر الذي لم يكن يتوقعه الاسطول الامريكي ، خاصة ولم تكن امريكا قد اعلنت الحرب بعد . وهكذا وقعت الكارثة .

وبعد هذا الحادث بفترة قصيرة اغرقت الطائرات اليابانية المدمرات البريطانية في عرض المحيط الهندي . وكانت هذه الطائرات تنطلق من قواعد سرية واقعة في الهند الصينية .

وهكذا دخلت الحرب البحرية في « مرحلة جديدة » ، ذلك ان السفن الحربية العائمة لم تشتبك مباشرة الا نادرا ، وكانت الطائرات وحدها هي التي تتدخل فتبادر بقصف السفن المعادية بالطوربيد والقنابل وتوقع فيها افسدع الخسائر . وكان من نتيجة هذا التطور ان تخلت الطرادات الحربية عن مكانها للسفن حاملة الطائرات المحاطة بالتشكيل .

وكان على سفن السطح (العائمة) ان تتدخل في عمليات الانزال ، غير انها تخلت عن مهماتها البحرية البحتة .

اما بعد الفارة اليابانية المفاجئة على ميناء بيرل هاربر (التي رغم عنفها ، لم تكن سوى نجاحا جزئيا لانها لم تتمكن من تدمير حاملتي الطائرات اللتان كانت قاعدتهما في هذا الميناء لانهما كانتا في جولة بحرية) اصبحت الاشتباكات البحرية في المحيط الهادي بعد هذه الفارة متوازنة في البداية .

وفي بحر الكوراي (١) القريب من استراليا احتلت الطائرات نهائيا المقام الاول في المعركة البحرية - الجوية .

واكدت هذا التحول في ايار ١٩٤٢ الى الغرب من ميدواي وفي عرض المحيط الهادي ، في حزيران ١٩٤٢ .

وقد استطاعت الولايات المتحدة الامريكية ، بفضل طاقاتها الصناعية الهائلة ، انتاج حاملات الطائرات بوتائر متسارعة ، وهكذا اجبرت الاسطول الياباني المعزق ، على التخلي عن السيادة البحرية لخصمه الاسطول الامريكي . .

وبهذه الطريقة أصبح بالامكان تحرير الاماكن التي احتلتها اليابان . ولكن بعد ان اقتربت العمليات الحربية من الجزر اليابانية اخذت الطائرات اليابانية المنطلقة من القواعد الارضية تكيل ضربات قاسية جدا للسفن الامريكية التي تدعم عمليات الانزال . وظهر طيارو « الكاميكا » اليابانيون المشهورون ، وطائرات الانتحار ، اظهرتا مرة اخرى : « ان الاسطول العائم لا يملك الوسائل اللازمة والكافية ليدافع عن نفسه ضد الهجمات التي تشن عليه من الجو » .

البحر والعصر النووي - الفضائي

فوجيء العالم بواقع جديد شديد الخطورة عام ١٩٤٥ عندما ظهر السلاح النووي الذي قلب معطيات الحرب راسا على عقب . وفي المجال البحري ادى ظهور الطاقة النووية الى تطوير ثلاث امكانيات ثورية :

١ - التدمير الكثيف لاساطيل السطح والقوافل التي تكتشفها الاقمار الصناعية .

٢ - تزويد السفن بالمحركات النووية (وخاصة منها الغواصات) يمكنها من الابحار الى مسافات بعيدة ، ويعطي الغواصات القدرة للفوص الى اعماق كبيرة داخل المحيطات .

(١) بحر الكوراي : يقع بين استراليا وميلانيزيا ، حيث وقعت فيه المعركة الجوية - البحرية التي انتصر فيها الامريكيون على اليابانيين .

٣ - تسليح الطائرات المحمولة ، والغواصات بقذائف نووية .

والواقع ان الغواصة ذات المحركات النووية ، لا تزال حتى الآن تتمتع بحماية جيدة ، لانها تستطيع البقاء غاطسة تحت الماء لعدة اسابيع ، كما يمكنها الابحار تحت كتل الجليد في القطب . اما بعد ان اصبحت الغواصات النووية مجهزة بالصواريخ البعيدة المدى ذات الرؤوس النووية احتلت مكانا من الطراز الاول ، ليس في داخل الاسطول فحسب بل في اطار الاستراتيجية الكونية الشاملة .

وتجدر الاشارة الى ان صواريخ البولاريس المعروفة اصبحت في السنوات الأخيرة متخلفة عن الصواريخ المتطورة جدا والمزودة بالرؤوس النووية المتعددة ذات المزايا المتصاعدة ، ومن هذه الصواريخ الحديثة : البوزيدون والترايدنت والصاروخ المسمى (م - ٤) .

وهكذا اصبحت البحار اكثر ملاءمة للعمليات المخادعة الماكرة بعد ان قدمت الكثير من الخدمات للفزاة عبر التاريخ ، وقد شهدت التقنيات والتكتيكات تطورات هامة ، يمكن اعتبارها ثورة حقيقية عميقة .

لقد ارتبط تقدم البحرية خلال الاف السنين بالتقدم العلمي والصناعي ، وكان ذلك بطيئا . ولكن مبادئ استخدام القوات البحرية تبدلت في ابعادها وليس في طبيعتها . ولكن ادخال الطائرة في المعارك البحرية ادى الى تحول حاسم في طبيعة الاستخدام . اما ادخال الطاقة النووية في البحرية ، سيؤدي الى تحولات لا مثيل لها في الماضي . ولهذا فان المجابهة بالمستقبل ستسجل بدون شك قطيعة كاملة مع المفاهيم السابقة ، وستكون المجابهة حساسة جدا في المجال البحري . وان المجابهة بين القوى البحرية والقوى البرية التي سيطرت على احداث التاريخ تبقى احدى العناصر الاساسية في الصراع بين الحضارات من اجل الحياة وفي سبيل التوسع .

وان شوكة اله الحرب نبتون ذات الشعب الثلاثة كانت ولا تزال سيدة العالم . فمن الذي يحمل هذه الشوكة الآن ؟ .

الفصل الثالث عشر

من ايكار^(١) الى هيروشيما

في فجر الزمان ، عندما ظهر الانسان فوق كرتنا الارضية كان عاريا لا يملك اية وسيلة للدفاع عن نفسه حيال العناصر الاخرى الموجودة في الطبيعة . . ولكي يحافظ على بقائه اخذ يتكيف مع الارض التي يقتات منها ويتجول فوقها ويستغلها . وسرعان ما توصل الى استخدام الانهار والبحيرات ثم تجرا على خوض لجج البحار . وهكذا بدا الانسان يسيطر بسرعة على اليابسة والبحار . اما العناصر الاخرى الموجودة في الطبيعة كالنار والهواء فقد ابدت مقاومة اشد حيال مفامراته . فالهواء كما تروي الاساطير القديمة لا يستطيع تحريكه سوى الالهة والملوك وحدهم كما فعل هيرميس^(٢) او بواسطة الخيول المجنحة التي كانت تجر عربة (بولون « الاله اللامع الذي يستمد بوره من ضوء النهار » .

اكتشاف النار واسطورة بروميشيه^(٣)

تروي الاساطير اليونانية ، انه تم اخضاع النار بفضل تواطؤ احد سكان

(١) ايكار : هو ابن المعماري ديدال باني مدينة لايرانت في كريت . وقد سجن فيها بأمر من الملك مينوس ، ولكنه استطاع الهرب مع ابنه ايكار بواسطة اجنحة الصقها على جسده بواسطة الشمع وطار من السجن . وقد اوصى ابنه ايكار الا يقرب كثيرا من الشمس لكيلا ينصهر الشمع ، ولكن هذا لم يصغ الى نصيحة ابيه ، فاوغل بالتحليق الى ان صفتته حرارة الشمس فسقط محترقا في البحر .

(٢) هيرميس : اله يوناني ، وهو ابن الاله زوس . وكان يعرف انه اله البلاغة والتجارة والصوص ورسل الالهة .

(٣) بروميشيه : اله التيران .

الاولب المسمى بروميثيه . فقد طلب الاله زوس من الاله الحداد هيفيستوس ، ان يصنع له اول امرأة ، فصنع له باندورا ، ثم كلف بروميثيه بأن يصنع الرجل الاول من صلصال الارض . ولكن الرجل الذي صنعه ايدي بروميثيه كان عاريا لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات ، كما لم يكن يملك أية وسيلة تقيه من العناصر الطبيعية الاخرى .

ولكي يؤمن بروميثيه للانسان حياة افضل ويمكنه من الدفاع عن نفسه بأسلحة فعالة ضد الوحوش الكاسرة ويزرع الارض بالادوات الضرورية ، قرر ان يعطيه « النار » ويعلمه فن صناعة المعادن والادوات الاخرى التي تجنبه مصيره المحزن الذي يدعو للرناء .

وهكذا أقدم بروميثيه على اختلاس شرارة من نار كور الحداد هيفيستوس يمكنها صهر المعادن ، وحملها كهدية منه الى الانسان .

ولكن البشر بعد امتلاكهم هذه الطاقات حسبوا انفسهم في مستوى الالهة ، الامر الذي فجر ضدهم غضب الاله زوس . فما كان منه الا ان أرسل عليهم الطوفان وابدأ العرق الاول من بني البشر . وعاقب بروميثيه على فعلته فصلبه فوق أعلى قمة من جبال القفقاس وأمر بتعذيبه الى الابد ، وجعل كبده طعمة للنسور .

ولدت هذه الاساطير في زمن كانت فيه التقنيات في حالتها البدائية ، ومنذ ذلك الوقت اخذ الانسان يناضل ويبذل الجهود لتحسينها الى ان انى اليوم الذي استطاع فيه تفجير الذرة . كان ذلك في اواسط القرن العشرين ، وخيل اليه عند ذلك انه اصبح سيد المادة وكل ما تحويه الطبيعة من طاقات ، فهل يكون مصيره كمصير العرق الاول ؟ وما هو المصير الذي ينتظر من أطلقوا عنان القوى النووية ؟ وهل سيلاقون ما لاقاه بروميثيه ؟..

اسطورة ايكار وتسخير الرياح

قضى الانسان آلاف السنين الى ان توصل لاختضاع الهواء ، ولم يستطع التحليق في الفضاء الا في القرن الثامن عشر الميلادي . ومنذ ذلك الوقت اخذ

يرتفع في الجو تدريجياً قبل ان يتمكن من اختراق المحيط الهوائي والانطلاق في الفضاء اللامتناهي الذي طالما دغدغ احلامه .

وتقول الاساطير القديمة ، ان الالهة وحدهم هم الذين يملكون القدرة السحرية للظهور الى جانب البشر في ميادين المعارك ، ولكن اجسادهم كانت تنفجر في كل مرة يحاول احد البشر تقليدهم . ولذلك فان مصير الانسان الجسور هو السقوط الى الارض والموت .

وفي احدى هذه الاساطير ان فايتون ، ابن ابولون اله الشمس ، طلب مرة من ابيه بان يقود عربة النور التي تجرها الخيول الاربعة المجنحة ، غير ان الخيول ادركت مباشرة بان الذي يمتطي العربة ليس فارسها المعتاد ، فما كان منها الا ان انحرقت عن الطريق ، مما عرض الكرة الارضية للدمار بسبب حرارة الشمس الشديدة فتضرعت للاله زوس لانقاذها من هذا المصير الرهيب ، واستجاب زوس لتضرعات الارض ولكنه صعد فايتون لسفينة والقاء في خضم مياه ايريدان(١) .

واسطورة « ايكار » ذات مغزى توجيهي ايضا . فهي تحكي بان « ديدال » كان نحاساً وعالم مشهورا (سبق ليونارد دوفانشي) وقد علم البحارة استخدام الاشرعة لتسيير سفنهم . دعاه مينوس ملك جزيرة كريت لبناء سجن في الجزيرة ليسجن فيه العملاق المرعب مينوتور(٢) ولكن ديدال ساعد تيزيه الانسان ، لتحرير الارض من الوحش المرعب . فما كان من ملك الجزيرة مينوس الا ان عاقب « ديدال » بالسجن ، كما اعتقل ابنه « ايكار » معه .

ولم تكن هناك اية وسيلة لهرب ديدال وابنه من السجن الا عن طريق الجو . « وبفضل ما يتمتع به ديدال من العلم والفن امتاز بهما عن غيره ، قام

(١) ايريدان : نهر يقع في منطقة البو في شبه الجزيرة الإيطالية .

(٢) مينوتور : وحش اسطوري ، نصفه العلوي انسان والنصف الاخر كالثور . وهو ابن باسيفاي . وقد سجنه مينوس ملك كريت وزوج باسيفاي في المتاهة (اللابيرانت) . وكانت اثينا تقدم له سنويا الاضاحي من خيرة شبابها الى ان قتله تيزيه (وتيزيه هذا بطل اغريقي ابن ملك اثينا ، الذي قتل الوحش مينوتور بمساعدة اريان ابنة ملك كريت) .

بصنع اجنحة وربطها في كتفيه ، وذراعيه ، وفعل نفس الشيء من اجل ابنه ايكار ، ونصحه بالآلا يوغل بالتحليق بعيدا في الفضاء عند الطيران ، بل يبقى على ارتفاع متوسط . ولكن الفتى المغرور لم يكبح جماح غروره فاستسلم لرغباته الجامحة ، وانحرف عن خط الطيران الذي سلكه ابوه . وهكذا عرض نفسه لحرارة الشمس المحرقة ، التي صهرت الذي استخدم لالصاق الاجنحة ، فانفصلت وسقط ايكار صريعا في لجة البحر الذي سمي فيما بعد بالبحر الايكاري .

نسيت البشرية انجاز ديدال العظيم الذي بقي زمنا طويلا في طيات الغيب يذكرنا بأول كارثة طيران عرفها الانسان .

وما لبث الانسان ان ادرك أهمية الهواء الذي يستنشق له قوة دفع ديناميكية عظيمة . فقد لاحظ طيران العصفير ، كما رأى كيف تتقاذف الرياح الاشياء الخفيفة كأوراق الشجر وريش الطيور ، ولكنها مع ذلك تبدي مقاومة شديدة لا يمكن للانسان قهرها الا بصعوبة بوسائله البسيطة وحدها .

ومع تطور التقنيات اخترع الانسان بعض الاسلحة التي تساعده على القتال من بعد ، فوضع « الحصا » في « مقلع » ليفذفها معتمدا على قوة عضلاته . وهكذا ازدادت لأول مرة قوة المقذوف وابتعد مداه . وما لبث ان استخدم « المزراق » الذي يقذفه بذراعه مباشرة ، وتلا ذلك استخدام « القوس » المشدود الذي يختزن بعض القوة ليقذف بها النبال والسهام .

وساعدت التقنيات ، الانسان ، مع مرور الزمن ، على صناعة آلات أكثر قوة : كالقذافة التي ترمي السهام الضخمة والحجارة ، و « العرادة » التي تقذف كرات ضخمة تستخدم لتدمير اسوار المدن . ولم تكن هذه الاختراعات الاولى سوى نجاحات ميكانيكية . غير ان الامر تبدل تماما عندما قدمت الكيمياء للانسان « البارود » في القرن الرابع عشر .

ومنذ اختراع البارود توصل الانسان لصنع « الاسلحة النارية » التي تقذف الرصاصة والقنبلة الى مسافات بعيدة بالقوة الناتجة عن احتراق البارود.

وهكذا بدأت التحسينات المتواصلة للأسلحة الانسيابية على اختلاف أنواعها ،
تعطي للقذائف قوة وبعدا متزايدين .

وإذا كان الانسان قد استطاع منذ ذلك الوقت ارسال القذائف الى
مسافات اطول فأطول ، الا انه بقي خاضعا للجاذبية الارضية ، ولم يستطع رفع
القوس او القذيفة عن محاركها العادية المنخفضة نسبيا .

اما حلم « ايكار » بالتحرك بحرية كاملة في الفضاء ، فلن يتحقق الا بعد
زمن طويل ، على الرغم من ان جميع الاساطير التي وردت في الكتب السماوية ،
والاساطير اليونانية ، والصينية والافريقية ، كانت تتحدث دائما عن البشر
الذين يحلقون في السماء (١) .

وقد درس بعض فلاسفة العصور القديمة من امثال ارشيتاس تارانت ،
وارستوت في القرن الرابع قبل الميلاد ، طيران العصافير وهياكل اجنحتها ، وكان
لا بد من انتظار ليونارد دافنشي لكي تظهر لأول مرة دراسة علمية جدية حول
هذا الموضوع صيغت بشكل عبقرى يعتمد على الحدس ، فقد تصور هذا
العبقري حوامة « او هيلوكوبتر » خفيفة تستطيع التحليق في الجو ، وعند وفاته
بقيت رسومه ودراساته بكاملها طي النسيان ، ذلك لان التقنيات في ذلك الوقت
لم تكن متقدمة الى الحد الذي يسمح بتحقيق مشاريعه .

من سفينة الهواء (المنطاد) الى الطائرة

وجه احفاد ليونارد دافنشي بحوثهم نحو بناء آلة اخف وزنا من الهواء ،
ولكن الاوائل الذين توصلوا الى حقن الهواء الساخن داخل غلاف متين ، هم
الاخوة مونتفولقييه ، ففي ٤ حزيران ١٧٨٣ ، وفي بلدة انوناي الواقعة بالقرب
من مدينة ليون الفرنسية ، ارتفع في الجو لأول مرة « بالون » يبلغ قطره اثنا عشر
مترا ، على مرأى من الجمهور الذي انتابه شعور من الخوف والاعجاب .

(١) ولعل من ابرز هذه الاساطير تلك التي وردت في القرآن الكريم حول الاسراء والمعراج
« سبحان الذي اصرى بعبده من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » صدق الله العظيم (العرب) .

وفيما بعد أعطت التحسينات التي أدخلت على بناء البالونات واستخدام غاز الهيدروجين ، نتائج مشجعة .

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٧٨٣ استطاع كل من فرانسوا بيلتار دو روزيه ، والمركيز دارلاند ، أن يحلقا في الهواء على ارتفاع ألف متر ، وأن يقطعا اثني عشر كيلو مترا خلال مدة لا تزيد عن (٢٥) دقيقة من الطيران .

وظهرت « المناطيد » على شكل بالون يضيوي متطاوّل يسيره محرك بخاري . وفي مطلع كانون الاول من عام ١٧٨٣ قام الفيزيائيان شارل وروبير ، برحلة جوية من باريس الى نيوليه وقطعا مسافة اربعين كيلو مترا .

وقد سبقت هذه الاكتشافات ، نشوب الثورة الفرنسية بوقت قصير . وما لبثت الثورة أن فتحت عصرا من الحروب التي اعطت لهذه الاختراعات الجديدة اتجاها عسكريا . فاستخدمت البالونات التي تدار بواسطة الحبال من اجل استطلاع ميدان المعركة ، ومن المعروف ان هذه الوسيلة الحديثة استخدمت في معركة فلوروس (١) عام ١٧٩٤ .

وفي عام ١٧٩٧ ، ساعدت المظلة احد رجال الفضاء على مفادرة سلة المنطاد وان يهبط الى الارض بسلام وفي عام ١٨٧١ تمكن السياسي غابيتا من مفادرة باريس المحاصرة مستخدما احد المناطيد .

وفي نهاية القرن التاسع عشر تم انتاج الآلة الطائرة التي يتجاوز وزنها وزن الهواء ، والتي تعتبر المنافس المتفوق للمنطاد . وبالرغم من كل التحسينات التي أدخلت على المنطاد ، فانه لم يتمكن في نهاية المطاف من الصمود امام التقدم الهائل الذي حققته الطائرة المروحية خلال عدة سنوات خاصة بعد ان زودت بالمحرك الانفجاري . فقد حلق الاخوان رايت ، الامريكيين بطائرة مجهزة بمحرك قوته (١٦) حصان ومروحتين ، وقطعا مسافة (٣٦) مترا خلال مدة (١٢) ثانية وعلى ارتفاع (٨) امتار . ونجح كليمانت ادير قبل ذلك بالطيران مسافة عدد من الامتار .

(١) فلوريس : مدينة بلجيكية تقع الى الشمال الشرقي من مدينة شارلوا . حدثت فيها المعركة التي انتصر فيها القائد الفرنسي جوردان على الجيش النمساوي عام ١٧٩٤ م .

وابتداء من هذه التحليقات الاولى اخذت الطائرة تتحسن بسرعة فائقة ، ولكنها بقيت متعبة بالنسبة للطيارين . وفي هذه الفترة تفنن الهواة والمختصون ببناء آلات طائرة ذات اشكال غريبة ، وكان بعضها عاجزا عن الطيران ... الا ان ذلك كان بداية لانطلاقة حقيقية في عالم الطيران .

وفي ٢٥ تموز ١٩٠٩ نجح بليريو باجتياز بحر المانش جوا ، وحلق فارمان لمدة ثلاث ساعات وخمسة عشر دقيقة حول مدينة رانس الفرنسية .

ومنذ ذلك الوقت اصبحت فكرة استخدام الطائرة كسلاح حربي تجول في اذهان المختصين . ولم يتأخر تنفيذ هذه الفكرة مدة طويلة : فقد استخدم الايطاليون الطائرة لأول مرة في طرابلس الغرب بمهمات الاستطلاع والقصف في عام ١٩١١ م .

اما المنطاد ، فاخذ يتجه نحو « البالون الصلب » واستطاع الالمان انتاج المنطاد المشهور « زبلن » ، الذي لم يعط النتائج المنتظرة منه ، ثم ما لبث ان اهل بسبب الكوارث التي سببها ومن بينها حادثة ديكسمود ، ومأساة القطب الشمالي .

وفي الحرب العالمية الاولى حقق الطيران تقدما عظيم الاهمية : فازدادت كفاءة الطائرة وامكانياتها العسكرية . ولكن استخدامها بقي بشكل افرادي على الرغم من ظهور بعض التشكيلات الجوية التي ضمت عددا من الطائرات .

وفي عام ١٩١٨ ولأول مرة في تاريخ استخدام الطيران الحربي ، قام تشكيل مؤلف من (٨) طائرات بقيادة الشاعر الايطالي دانونزيو بالقاء المناشير الدعائية فوق مدينة فيينا .

وخلال هذا العام بالذات ، ظهرت الاساطيل الجوية وبدأت انطلاقتها نحو تحقيق انتصارات جوية جديدة .

ومنذ عام ١٩١٩ انشئت خدمات النقل الجوية المنتظمة ، واصبحت الطائرات تدريجيا قادرة على قطع مسافات طويلة ، ونقل حمولات هامة .

وفي عام ١٩٢٩ حطت طائرة مائية من فوق سطح مياه بحيرة كونستانس (١) ،
وعُلي ظهرها (١٦٩) راكبا . وفي نفس العام تم التحليق فوق القطب المتجمد
الجنوبي ، وبعد ذلك بثلاث سنوات جرى التحليق فوق القطب الشمالي .

وفي الفترة الواقعة بين ٢٠ و ٢١ ايار ١٩٢٧ ، اجتاز الطيار ليندبرغ ،
المحيط الاطلسي خلال مدة لا تتجاوز (٣٣) ساعة .

وفي الثلاثينات تسارع التقدم في مجال الطيران ، واستطاعت الطائرات
قطع جميع المحيطات في تشكيلات هامة ، وبدأ استخدام خطوط النقل الجوية
بشكل منتظم ، على الرغم من ان بعض هذه الخطوط كان ضربا من الاعمال
البطولية المحفوفة بالمخاطر ، كما هو الامر بالنسبة لخط المحيط الاطلسي الجنوبي
واستمر تقدم الطيران الحربي طوال الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين
الاولى والثانية ، الى ان اصبح الطيران سلاحا حاسما وفعالا في الحرب العالمية
الثانية .

تسارع الحروب

استطاع الطيران ان يبرهن عمليا على فعاليته منذ بداية الحرب العالمية
الاولى ، فقد امكن الحصول على المعلومات الهامة بواسطة طائرات الاستطلاع
الموضوعة تحت تصرف الجيوش ، وتم تحديد مواقع وتحركات الجيوش الالمانية
اثناء تقدمها نحو المارن في مطلع شهر ايلول ١٩١٤ .

وقام بعض الطيارين الشجعان بالتحليق في مناطيد استكشاف خاصة
للقيام برصد واحكام رمايات المدفعية ، ومع ذلك لم يستطع المنطاد الصمود
امام منافسة الطائرة ، التي فرضت نفسها واحتلت مكانا هاما في سير العمليات
الحربية .

وتستخدم الطائرة في الميدان لانجاز عمليات الاستطلاع ، والمساهمة بتحديد
مواقع العدو ، واحكام رمايات المدفعية ، ومطاردة طيرانه ومناطيدته ، وتغطية

(١) بحيرة كونستانس : تقع على الحدود المشتركة السويسرية الالمانية - الفرنسية (العرب) .

وحماية الوحدات البرية المقاتلة اثناء تنقلاتها ، كما تستخدم لقصف وتدمير النقاط الاستراتيجية الهامة .

ومن الجدير بالذكر ان هذا التعريف لمهمات الطيران ، اخذ من سجل يوميات احد الطيارين في عام ١٩١٦ ، الذي يصف بدقة جميع الانواع الهامة من الطائرات العسكرية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الاولى . غير ان هذه الطائرات رغم تقدمها وتنوعها لم تصل الى الحد الذي تستطيع فيه نقل المواد والاشخاص .

اما الحرب العالمية الثانية فستحمل معها تطورا عجيبا في جميع الميادين . فمنذ آب ١٩٣٩ ، اخرج الالمان طائرة مجهزة بمحرك نفث ، وكتبوا بذلك فصلا جديدا في استخدام الجو لان هذا المحرك النفث سيسمح ببدء مغامرات غزو الفضاء .

وفي ساحات القتال كانت مساهمة سلاح الطيران في العمليات البرية حاسمة ومثيرة للاعجاب منذ بداية الحرب . ففي بولونيا وهولاندا وبلجيكا وفرنسا استطاعت الفارات الجوية على القوات البرية ، وعمليات القصف ، ونقل وحدات المظليين والوحدات المحمولة جوا ، استطاعت ان تسجل تحولا حاسما بأشكال الحروب ، يعود الفضل فيها لاستخدام القوات الجوية بكثافات متزايدة .

اما ما يتعلق بأساليب القتال ، فقد ترتب على تصاعد التقدم التكنولوجي ، مجابهات وتناقضات عنيفة بين العقائد العسكرية في الفترة الواقعة ما بين الحربين ، ومن اهم هذه العقائد نظريات دوهيه ، ونظريات ميتشيل وآخرين . . وادى هذا التنافس النظري الى ظهور رؤية واقعية جديدة للحرب ، ترجمت عمليا الى امتداد الحروب بالعمق حتى شملت المؤخرات البعيدة للقوات المسلحة ، والسكان المدنيين الابرياء ، ووسائل الانتاج والمراكز الحيوية المختلفة .

اما معركة لندن الجوية التي بدأت في آب ١٩٤٠ ، فكانت مقدمة لعمليات مماثلة كبرى في السنوات التالية . وساعد اختراع الرادار على كشف الطيران

المعادي من مسافات بعيدة ، ولعب هذا السلاح دورا رئيسيا في المعركة وفتح الطريق لتطور المواصلات الجوية في المستقبل .

وهكذا أصبحت القوات الجوية ، التي لم تتوقف عن التطور لحظة واحدة طوال الحرب العالمية الثانية ، اساطيل حربية حقيقية .

وفي عام ١٩٤١ سجل الطيران في المحيط الهادي يقظة اولى في التنافس مع سفن السطح ، عندما دمر القطع البحرية الامريكية في ميناء بيرل هاربر .

وفي ميدواي ، بعد هذا الحادث بشهور ، لم تتمكن الاساطيل البحرية المتحاربة من تحقيق التماس مع بعضها البعض الا بواسطة الطيران المحمول فوق حاملات الطائرات . ومنذ ذلك الوقت أصبحت حاملة الطائرات السفينة الأساسية في الاسطول وحلت محل الطرادات التي كانت حتى ذلك الوقت ملكة البحار .

وفي العمليات البرية تضمنت الاساطيل الجوية طائرات قوية تقوم بالاغارة على المدن بمجموعات مؤلفة من عدة مئات من الطائرات القاذفة التي تحمل كل منها عدة اطنان من القنابل ، فتحدث الدمار الهائل بالبشر والثروات .

النرة والصواريخ والاقمار الصناعية

لقد بدل اكتشاف القوة المتفجرة الناتجة عن الانصهار النووي جميع المعطيات دفعة واحدة . ففي ٦ آب ١٩٤٥ ، في هيروشيما ثم في ٩ آب من نفس العام في ناغازاكي ، تمكنت طائرة واحدة تحمل قنبلة ذرية واحدة ، من احداث آثار تدميرية لا مثيل لها في التاريخ ، ولا يمكن مقارنتها مع الاثار التي تحدثها غارات الاسراب بالاسلحة الكلاسيكية مهما كان عددها .

وفي هذا الوقت بالذات ادخلت تحسينات جديدة هامة على الطائرات تناولت ميدانين : الملاحة الجوية بدون طيار والطوربيد الطائر V-1 ، وهو عبارة عن طائرة صغيرة توجه عن بعد بواسطة جهازين اوتوماتيكيين . ويحمل قنبلة عظيمة واحدة ، بينما أصبح الطوربيد V-2 عبارة عن قذيفة حقيقية ، يذكرنا بالقنابل الا انه لا يحتاج الى سبطانة لاطلاقه

ولتلقى القوة الضرورية لاندفاعه لأن هذه القوة متصلة بالمقدوف نفسه . وهكذا يمكن اعتباره الرائد الاول للصواريخ العابرة للقارات الحالية .

لقد فتح هذا التقدم الرائع في مجال السيطرة على الجو ، طريقاً جديداً استفادت منه أيضاً الطائرة الكلاسيكية ، كما سمح بتصوير الانطلاق الى ابعد من ذلك ، وتجاوز الجو المحيط بالارض وبالتالي « غزو الفضاء » .

اما المشاكل التي بقي على الانسان حلها فهي على نوعين :

- مقاومة الهواء في المستوى الذي يطلق عليه اسم « جدار الصوت » .
 - والحرارة التي تصل الى درجات عالية لا يمكن لمعدن الفولاذ مقاومتها .
- واستطاعت البحوث الحثيثة طوال خمسة وعشرين عاماً ان توفر للانسان الوسائل للتغلب على « جدار الصوت » ، كما تم لأول مرة بتاريخ ١٤ تشرين الاول ١٩٤٧ اكتشاف الخلائط الخاصة التي باستطاعتها مقاومة الحرارة العالية جداً . واعطت التحسينات التي ادخلت على محرك الصاروخ 2 - ٧ القوة الدافعة الضرورية التي سمحت بقذف الاقمار الصناعية ، التي كانت في بداية الامر ضمن اطار الجاذبية الارضية حتى ٤ تشرين اول ١٩٥٧ ، ثم تحررت نهائياً من هذه الجاذبية وانطلقت بعيداً في الفضاء الخارجي لتهبط على سطح القمر في عام ١٩٦٩ .

ومن جهة اخرى ، اخذت الخطوط الجوية تشق بانفظام جو الكرة الارضية بطائرات ضخمة ووتيرة تحمل كل منها مئات المسافرين ، واصبحت آلاف الطائرات تزحم السماء على الدوام منافسة السفن البحرية كوسيلة متوسطة للنقل البشري .

وهكذا كما راينا استطاع الانسان تحقيق الاهداف التي حلم بها بروميشيه وايكار : فبانصهار الذرة استولى الانسان على نار الشمس ، وبالطيران حقق الهدف الذي فشل في تحقيقه ايكار « السفينة » ، كما سمحت التقنيات المتطورة جداً للانسان بأن ينتج الطائرة التي تصورها « ديدال » ... ومع ذلك لم يرتو

غليل طموح الانسان ، فلا يزال راغبا بالذهاب بعيدا لاختراق غياهب المجهول :
فهاهو يحسن المراكب الفضائية ويسعى لجعلها مريحة وملائمة للسفر ، والمكوث
في داخلها لمدد طويلة ، كما أخذ يزودها بالوقود الضروري بواسطة مراكب تموين
فضائية . وتتم هذه العمليات اليوم على احسن وجه وفي اعلى درجات الامان ،
وقد اخذ الانسان الآن بالتطلع نحو اللانهاية ويبدل الجهود الفعلية
لاستكشاف المجموعة الشمسية ، بل لعله يتطلع الى ابعد من ذلك ... غير ان
هذه المشكلة تبدو غير قابلة للحل بسبب ، طول مدة الرحلة وصعوبة الهبوط
على سطوح معظم الكواكب نظرا لمميزاتها الفريدة وخاصة حرارتها العالية جدا .
وسيكون من واجب الانسان في هذه المحاولات ان يحسب الحساب اللازم لتجنب
مخاطر الحرارة التي لا تزال تتجاوز امكانيات الوسائل التي لديه حاليا فوق
سطح بعض الكواكب وخاصة كوكب المشتري ، والا فانه سيلقي نفس مصير
« ايكار » المتمرد .

ولكن الانسان يشبه في عقليته هذا « الايكار » فهو متعطش دائما للفهم
وادراك عجائب الفضاء ، ولعله يطمح للوصول الى كوكب « الاولب » (١) الذي
لا يدرك .

ومن يدري لعل باستطاعة احد رواد الفضاء ان ينال من الحظ الكثير ،
فيلتقي بالاله ... ولا كان هذا الرائد الفضائي قد تكون على اساس فلسفة
مختلفة .. فانه لن يجد امامه سوى مادة لا حياة فيها ..

(١) كوكب الاولب : يرمز به المؤلفون الى « مجمع الالهة » .

الفصل الرابع عشر

التسلسل الطبقي والمؤسسات العسكرية

راينا في بداية البحث ان الطبقات الاجتماعية من العناصر الاساسية للحضارات . وتنشئ عن هذا التسلسل الطبقي جميع عمليات التطوير ، والتجديد ، والتنظيم وقيادات الجيوش ، وهذه بدورها تلعب دورا اساسيا في تغيير التسلسل الاجتماعي .

وقد كتب الكونت غيبرت في القرن الثامن عشر حول هذا الموضوع بما معناه « ان انتصارات الامم العسكرية تتوقف اكثر مما يعتقد على سياستها وعاداتها » . كما كتب الخبير العسكري البلجيكي الجنرال وانتي^(١) مؤخرا ما يلي : « ان الحرب ، واقع اجتماعي ، يستمد قواعده العميقة من طبائع الشعوب نفسها ، ومن بنيتها السياسية وتنظيمها الاجتماعي ، والاقتصادي . كما يلاحظ من النظر الى تاريخ المجتمعات البشرية ، والقبائل والمدن المستقلة ، والدول ، انها تنظم جيوشها وتديرها في ساحات المعارك بموجب القواعد التي ليست سوى انعكاسا امينا لتنظيمها الاجتماعي والسياسي ، وبملا يتلاءم مع امكانياتها الاقتصادية » .

واذا ما حاولنا تفسير ما كتبه اردان دويك في عام ١٨٢٨ ، في كتابه « دراسات حول القتال » ، امكننا القول : « ان العقلية والمؤسسات والاسلحة والتنظيم في دولة ما ، على درجة عالية من الحضارة ، تؤمن انسجامها ونجاتها » .

(١) وانتي - كتاب فن الحرب : من منشورات ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .

٢ - التجنيد

كانت جيوش الامبراطوريات الكهنوتية (اي التي يديرها الكهنة) ، في اغلب الاحيان ، حول نواة قليلة العدد من ابناء الشعب المسيطر ، ومن اعداد كبيرة من المجندين الذين تقدمهم الشعوب الحليفة وتنحصر قيادة الجيوش بالضباط القادة من الدولة الحاكمة .

وفي الممالك القوية تتكون القاعدة الاساسية للجيوش من المرتزقة ، ويتألف الجزء الاعظم من الجنود المحترفين من العناصر الاجنبية . اما الجيوش الوطنية التي تصادف في البلدان ذات الانظمة الديمقراطية ، فتكون غالبا على شكل ميلشيات كثيرة العدد لانها تقوم على الدعوة للخدمة اللاالزامية لجميع المواطنين الصالحين للخدمة .

وفي الدول الحديثة ، تجري تعبئة جميع المواطنين للقيام بخدمة وطنية حقيقية يمكن في بعض الاحيان - وخاصة في الازمات العنيفة - ان تشمل النساء . وتعتبر هذه الخدمة بمثابة ضريبة واجبة على جميع المواطنين .

ومع ذلك فان بعض الدول تكتفي بالتطوع الاختياري لمدة طويلة لتشكيل جيشها الدائم المحترف ، عندما يبدو لها ان السلام مضمونا لسنين عديدة . وهذا ما تفعله المملكة المتحدة البريطانية التي اخذت تميل لهذا النظام منذ زمن طويل . وهي لا تلجا الى التجنيد العام الا في حالات الازمات الخطيرة (اي في حالة نشوب الحروب الكبرى) .

اما فرنسا ، فقد اختارت منذ قرن تقريبا ، دعوة جميع شبابها للخدمة في الجيش الى جانب الاحتفاظ بعناصر محترفة تشكل العمود الفقري للقوات المسلحة .

وهكذا نرى ان الجيوش كانت منذ اقدم العصور تطبق هذين النظامين : جيش محترف محدود العدد ، والتجنيد الالزامي العام لكل القادرين على الخدمة . ولم يطرأ اي تطور جوهري على هذين النظامين ، بل اقتصر التطور على تكييف انظمة التجنيد حسب النظام الاجتماعي القائم والمعطيات السياسية الراهنة .

جيوش المدن وجيوش الامبراطوريات

يمكن القول بالنسبة للجيوش انه لا جديد تقريبا تحت الشمس ، فمتد ان اضطر الانسان للدفاع عن نفسه في عصور ما قبل التاريخ ، كان جميع الرجال الصالحين حتميا من « المحاربين » مثلما كانوا « صيادين » او مزاولين ، فهذه النشاطات بأنواعها مكملة لبعضها البعض ، عند الانسان البدائي والقبائل البربرية . ولا يزال الامر على هذه الحال عند الشعوب المتطورة في العصور الحديثة .

ودلت الدراسات التي أجريت على قبائل غينيا الوسطى على ان جميع الرجال الاصحاء يساهمون في الغزوات الموجهة ضد القبائل المجاورة . وعندما يصبح الشباب في السن الملائمة يتلقون بعض التجارب التعليمية الصعبة ، وبعد ذلك يعينون في طائفة المحاربين . ومن واجب الشباب ان يتمتعوا بصقات جسمانية واخلاقية صلبة . وقد يطلب اليهم احيانا الذهاب لمقاتلة اعداء القبيلة وجلب رأس احد افرادها كبرهان على بلوغ الشاب سن الرجولة واهليته للانخراط في صفوف المحاربين .

وقد كانت هذه الطريقة معروفة عند بعض القبائل الافريقية السوداء قبل وصول المستعمرين البيض .

ومن المعروف عند قبائل البربر في المغرب ، ان جميع الرجال يجب ان يكونوا من المحاربين .

ويرجح ان هذا النظام كان سائدا في جميع المجموعات البشرية الاولى في عصور ما قبل التاريخ .

اما في المدن المستقلة القديمة والجماعات المتطورة ، فبالرغم من ان الواجب يقضي على جميع الرجال بالمساهمة في الدفاع عن مدينتهم او مجتمعهم ، الا ان الفئات والعناصر التي كانت تملك شيئا تستحق الدفاع عنه ، هي التي تشترك في القتال . والواقع ان المواطنين الاحرار وحدهم هم الذين يدعون للخدمة في الجيوش ، اما الاجانب والعبيد فيحرمون من هذا الواجب .

وفي ائينا وجميع المدن الاغريقية ، كانت الحرب جزءا لا يتجزأ من حياة المدينة والنظام السياسي والاجتماعي . وكانت كل مدينة في ذلك العصر مقسمة الى عشرة قبائل ، وكل قبيلة تقسم الى عشر افخاذ ، وكل فخذ يجب ان يقدم للجيش سرية من المقاتلين تعدادها مائة رجل ، وهذا يعني ان كل مدينة كانت تملك جيشا من عشرة الاف مقاتل .

وابتداء من سن السادسة عشرة يصبح الشاب جاهزا لاداء واجبه العسكري كمدافع عن المدينة .

وتجدر الإشارة الى ان مدينة ائينا استطاعت ان تحقق لأول مرة « الامة المسلحة » ، فجيشها الدائم كان عبارة عن مدرسة حربية للامة بكاملها ، وجميع الرجال يمكن ان يدعون للخدمة العسكرية في حالة وقوع ازمة خارجية ما .

اما مدينة « اسبارطة » فتمثل الحالة المتطرفة التي يمكن ان تصل اليها التعبئة العامة ، لانها كانت بالفعل « المدينة الثكنة » . ومما كتبه الفيلسوف افلاطون في هذا المجال : « ان الشعب الاسبارطي بكامله هو الجيش الذي يشكل حامية المدينة والمدينة نفسها ليست سوى معسكر حربي » .

والمواطن الاسبارطي يبقى طيلة حياته خاضعا للخدمة العسكرية وهو ملزم بالكوث في الثكنة حتى سن الثلاثين ويستمر على تناول طعامه في مطعم العامية حتى سن الستين .

اما الاجانب فتفرض عليهم الاعمال الشاقة لخدمة الجنود المواطنين، وتتحول الشعوب المغلوبة بكاملها الى العبودية لتساهم في خدمة وصيانة الجيش الاسبارطي ...

وفي روما ، كان الجيش قليل العدد في العصور القديمة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد . ويتألف الجيش الروماني من المواطنين الاحرار وحدهم ، كما كان الامر عند اليونان ، اما العامة فليس من حقهم التمتع بهذا الشرف .

ويصنف الرجال الاحرار الى طبقات ، تتناسب مع ما يملكه كل فرد منها ، لان التقاليد تلزم جميع المدعوين للخدمة بتحمل تكاليف العتاد . اما الرجال الاغنياء الذين يحضرون جوادهم معهم فيصبحون من طبقة الفرسان ويدخلون في فرق الخيالة .

وابتداء من القرن الرابع ق.م ، اصبحت العمليات الحربية تتجاوز حدود المدينة ، وتطلبت الحملات البعيدة غيابا طويلا . واصبح الرجال المجندون يتلقون راتبا محدودا يتناسب مع مراتبهم كما اصبحت الخدمة العسكرية واجبة من سن السابعة عشر حتى سن السادسة والاربعين ولا تعلن التعبئة العامة الا في الظروف الاستثنائية الشديدة الخطورة .

ومع ذلك فان النتيجة المترتبة على التعبئة العامة لم تكن جيشا نظاميا دائما بل ميليشيا مؤقتة من المواطنين . ومن الملاحظ خلال الحرب الانتقامية الثانية ضد مدينة قرطاجة ، حل القسم الفردي محل القسم الجماعي الذي كان يؤديه المقاتلون ، مما يدل على مبدا الخدمة الالزامية . ومع توسع الفتوحات الرومانية ، حدثت بعض التغييرات العميقة . فقد طلبت روما ابتداء من القرن الثالث الميلادي من المدن المتحدة والشعوب المحتلة والمتحالفة ، تقديم المجندين للقتال الى جانب الجحافل الرومانية ، التي كانت حتى ذلك الوقت رومانية بحتة .

واستنادا الى هذا القرار اصبحت تعداد الجنود الحلفاء في جيش الجمهورية الرومانية يفوق تعداد الرومان الاصليين .

والواقع ان اصلاحا رئيسيا حاسما اجري قبل هذا التاريخ وغير طبيعة الجيوش . ففي عام (١٠٢) قبل الميلاد فتح الدكتاتور ماريوس الجحافل الرومانية للطبقة البروليتارية ، والى القانون الذي يميز بين الطبقات . ومع زيادة مدة الخدمة العسكرية تحول الجيش تدريجيا الى جيش محترف .

وفي عهد الامبراطورية ، اخذت الجحافل الصبغة الرومانية اما الجيش فأصبح يتشكل تدريجيا من « البرابرة »^(١) . وفي القرن الاخير من عمر

(١) والمقصود من البرابرة هنا هو الشعوب غير الرومانية .

الامبراطورية الرومانية كانت الجحافل المتمركزة على الحدود ، تجند محليا ، وكان الجنود يمارسون زراعة الارض بالاضافة لعملهم العسكري .

وفي النهاية ادى انخفاض الروح المعنوية الى تدهور قوة الجيش الروماني ، وترتب على ذلك السقوط النهائي للامبراطورية .

وعند المفلول ، شعب الفرسان الرحل ، كان كل رجل محاربا منذ الولادة لان كل مفولي مكرس للخدمة في الحرب . اما الذين لا يشتركون بالحرب بشكل مباشر فعليهم ان يعملوا لصالح المجتمع دون اية مكافأة او اجر . وهذا يعني ان الجيش المفلولي « جيش شعبي وطني » والخدمة العسكرية الزامية لكل الرجال ، وعليهم ان يكونوا مستعدين للدعوة في كل لحظة للاشتراك في العمليات الحربية ، وتراعى في التشكيلات العسكرية الروابط العائلية والقبلية .

وكان هذا المفهوم موجودا لدى الشعوب القديمة الاخرى ، ففي الامبراطورية الاشورية كان على جميع الرجال بين السادسة عشر والسادسة والعشرين ان ينخرطوا في الجيش فور نشوب الحرب ، وكان الامر كذلك لدى جميع القبائل السامية والفرسان البارثيون .

ومن الجدير بالذكر ان القبائل البدوية في الجزيرة العربية ، التي اعتنقت الاسلام كانت حتى زمن قريب ، تعبىء جميع الرجال للمشاركة بالفنوحات ونشر الدين الاسلامي الجديد .

ويمكن الملاحظة ، ان « الطوائف العسكرية » في جميع البلدان تقريبا ظهرت وميزت نفسها عن الجماهير . وعلى سبيل المثال : قامت في اسبارطة جماعة الانداد ونشأت طائفة الخالدون في فارس ، وحراس الطاغية في روما وجميع هذه الفئات هي منظمات عسكرية محاربة ، وقد تطورت مع الزمن الى ان اصبحت تشكيلات اكثر تخصصا واكثر عسكرية .

ونلاحظ فيما سبق ان الدول التي وسعت حدودها كان لا بد لها من ادخال تعديلات على طرق تجنيد جيوشها ، كما فعلت روما . ففي عهد الدكتاتور ماريوس اصبحت الخدمة العسكرية مهنة ، واصبح الجندي المحترف

يقضي مدة خدمته على الحدود .. وكانت هذه الصيغة نفسها مطبقة في الامبراطوريات الكهنوتية في العصور القديمة .

ومنذ الفترة التي لم تعد فيها العمليات العسكرية مقتصرة على الدفاع عن المدينة - الدولة ، فحسب ، بل تعدت ذلك لتصبح حملات بعيدة هدفها الفتوحات ، تحولت الميليشيات الشعبية الى جيوش نظامية ، واصبحت تتطلب تشكيل وحدات مقاتلة كبيرة العدد ، وعلى مستويات عالية من التدريب والتسليح والتنظيم .

وفي الالف الثانية ق.م كانت الامبراطوريات تتصارع من اجل بسط النفوذ في الشرق الاوسط ، مما اضطرها لاستخدام الجنود المرتزقة الاجانب . ولم تكن هذه الامبراطوريات الوحيدة التي استخدمت هذه الوسيلة ، فقد عمدت المدن اليونانية ايضا الى نفس الطريقة لتشكيل جيوشها .

وفي بابل ، على الرغم من ان الرجال الاحرار كانوا مكرسين للخدمة المحربية ، الا ان الحرس الملكي كان يتألف من العبيد والمرتزقة .

وفي مصر لم يعد لجيش المدينة وجود ، عندما انشئ جيش الامبراطورية الوسطى . ومع ذلك كان فرعون يملك حرسا ملكيا خاصا . اما الرجال المتطوعون في الجيش في ذلك الزمن ، فقد شكلوا طائفة عسكرية منفصلة عن الامة . وكذلك فعل العسكريون في الامبراطورية الاشورية ، حيث شكل الجيش كيانا منفصلا يدين بالولاء التام لقائده .

ومن المعروف ان الولاء للقائد وحده اصبح تقليدا في المرحلة الاخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية حيث اصبحت الجحافل العسكرية هي التي تعين الامبراطور ، وترتب على ذلك سلسلة من الصراعات على السلطة بين القادة ادت الى اضعاف الامبراطورية وكانت من بين اسباب انهيارها .

وكان الجيش الفارسي يجند سكان المقاطعات ، ويحتوي على اعداد كبيرة من المرتزقة الاجانب معظمهم من اليونان . بل لقد كان تعداد اليونانيين في الجيش الفارسي يفوق عددهم في جيش الاسكندر المكدوني خلال حملة الاسكندر الكبير في اسيا الوسطى .

أما جيش الاسكندر فقام في البداية على المجندين المكدونيين ثم تضعهم بالمتطوعين الاجانب ، وعندما وصل هذا الجيش الى الهند اصبح خليطا غريبا يتكلم جنوده جميع اللغات .

وتجدر الاشارة في هذه المناسبة الى ان جيش نابليون العظيم في مطلع القرن التاسع عشر اصبح في نهاية الامر في معظمه من المتطوعين الاجانب .

وهكذا نرى ان معظم جيوش الامبراطوريات القديمة كانت في الاساس جيوشا محترفة قوامها المرتزقة والمتطوعون .

أما جيش الامبراطورية البيزنطية في عهد جوستنيان ، في القرن السادس الميلادي فكان يتألف من العناصر التالية :

- المتلحاقون والزبائن والعبيد .
- المتطوعون الذين يستأجرهم الامبراطور ويقاتلون ضمن تشكيلاتهم وحسب تقاليدهم وعاداتهم .
- الفيالق الامبراطورية المؤلفة من المرتزقة الذين يخدمون في الجيش بموجب عقود خاصة ، ويشكلون الاحتياط العام او حرس الحدود .
- الميليشيات المحلية ، التي تتكون من المواطنين وتكلف بالدفاع عن المواقع المحصنة والمخافر العسكرية .
- يضاف الى ذلك بعض الوحدات الخاصة التي يقدمها بعض القادة العسكريين الكبار ويدفعون اجورها ويتعهدون تجهيزها وتسليحها ، وهي بمثابة حرس خاص لهم ، وتشبه الى حد بعيد جيوش الاقطاعيين والنبلاء في القرون الوسطى .

البنيات الاقطاعية والخدمة العسكرية

- كان الجيش عند القبائل الجرمانية مرآة حقيقية تعكس بنية القبيلة .
- أما في قبائل الفرنجة ، فكان جميع الرجال ملزمين بأداء الخدمة العسكرية .

أما الجنود اللّازمين للعمليات الحربية والدفاع فلا يعاؤون إلا من بين سكّان المناطق التي تجري فيها هذه العمليات .

ولم يظهر المفهوم الشامل للخدمة العسكرية إلا في عهد الإمبراطور شارلمان : ففي هذا الوقت أصبحت الخدمة العسكرية واجبة على كل رجل حر ، وكان عليه أن يحضر إلى مراكز الجيش عندما تبدأ الحملة السنوية ، مزودا بالمعدات والأسلحة بل وبالتموين أحيانا . ولكن هذه الصيغة خلقت الكثير من المشاكل المعقدة الصعبة لقيادة الجيش . وفي مقابل هذه الالتزامات ، يحق لكل محارب أن يحصل على جزء من الفنائم الحربية التي لا يستهان بها في معظم الأحيان .

وتحت ضغط الأحداث وخاصة منها غزوات الأقوام الشمالية البربرية ، بدأت تتغير جيوش دول أوروبا الغربية . والواقع أن التغييرات التي طرأت على المجتمع في هذه الدول ترجع في أسبابها إلى التطورات التي أصابت الجيوش . لقد اتجهت الأمور بقوة الأشياء نحو المجتمع المسلح الذي حل فيه الجندي الخاص تدريجيا محل جندي الدولة ، فكان ذلك فاتحة للعالم الإقطاعي . واكتسحت النزاعات الداخلية أوروبا وحولتها إلى حالة حرب دائمة . وكان النبلاء الإقطاعيون النموذج المثالي لمحاربي ذلك العصر . أما المقاتل فكان عبارة عن فارس مترفع ، يقوم على خدمته العديد من سدة الأسلحة والعبيد ومروضو الخيول ، وكان من واجب هذا « الفارس الإقطاعي » أن يقدم خدماته وولائه للملك الذي منحه (أو أقطعه) أرضه مقابل بعض الخدمات .

وهكذا نشأت في أوروبا الغربية طبقة النبلاء من الفرسان الإقطاعيين التي كان لها ميزة مرافقة الملك في عملياته الحربية .

أما الشعب البسيط (العامة) فكانوا يتحملون أعباء الحرب ولا يدعون لحمل السلاح إلا في حالات نادرة جدا كما حدث في عام ١٢١٤ م في مدينة بوفين (١) .

(١) بوفين : مدينة في شمالي فرنسا تابعة لمحافظة ليل . وهي المكان الذي وقعت فيه المعركة التي تطلب فيها ملك فرنسا فيليب أوفست بفضل المساعدة العظيمة التي قدمها لجيشه المتطوعون من سكان المدن الفرنسية ، وادى ذلك إلى انتصاره على الإمبراطور الجرمانى أوتون الرابع . ٢٧ تموز ١٢١٤ م .

تطور الجيوش الملكية

على اثر التقدم الهائل في التجارة والاكتشافات الكبرى ، ازدادت ثروات الطبقة البرجوازية ، وتطور العديد من المدن ، ومن جهة اخرى تدعمت السلطة الملكية المركزية ولم يبق للفارس الاقطاعي دورا كبيرا يلعبه واخذت الحملات الملكية تجتاز حدود المملكة الى الخارج . وبدأ بعض رجال الحرب المحترفون يشكلون وحدات مقاتلة محترفة يؤجرنها لمن يدفع اجرا اعظم . وتشكلت في هذه الفترة كتائب مقاتلة كبيرة تميزت بعمليات الابتزاز والسطو . ولكن الملك شارل الخامس نجح بالتخلص منها بارسالها الى الحرب في اسبانيا تحت قيادة دو ديفيسكلان حيث تستعر الحروب هناك بين الاسر الملكية الحاكمة ، وحيث يمارس قطاع الطرق المحليون عمليات النهب والسلب ويرتكبون افظع الجرائم .

وفي ايطاليا طبعت عصابات الكوندوتوري والكوليوني ، مجمل تاريخ شبه الجزيرة الايطالية في القرن الخامس عشر . وكان اكثر عناصر هذه المنظمات من اللصوص . ومن بين قادة هذه العصابات من استطاع اقتطاع امارات كبيرة بقوة السلاح ونال شهرة وحظا كبيرين . اما رجال العصابات من المقاتلين فكانوا يجندون بعقود مؤقتة يرافقهم اطفالهم الذين اطلق عليهم اسم « فانتى » ، ومن هذا الاسم اخذت كلمة جندي المشاة ، وتعني الرجل الذي يقاتل على قدميه . اما قادة هذه العصابات « الكوندوتوري » فيؤجرون خدماتهم بعقود تسمى « الكوندوتا » التي اخذوا اسمهم منها .

وكانت المدن المستقلة والامراء الذين يدفعون اجورا اكبر يستطيعون استخدام هذه الوحدات المرتزقة لاغراضهم بصرف النظر عن حقيقة هذه الاهداف . . لان هذه الوحدات لم يكن لها صفة قومية حتى ولا صفة وطنية محلية ، وكان رجالها يتقاضون اجورهم من قائد العصابة الذي يحتفظ لنفسه بالاسلاب والفنائم .

وفي القرن السابع عشر بدأ التطور يأخذ طريقا مختلفا بالتعامل مع عصابات المرتزقة الالمانية التابعة لكل من المدعو ويلنشتاين وبرنارد دوساكس - فيمار .

وكانت وحدات هذه المرتزقة عظيمة الولاء لزعمائها لانهم يتقاسمون الغنائم مع افراد عصاباتهم .

وتجدر الاشارة في هذا المجال بأن هذا النظام نفسه كان مطبقا في العصابات التي سيطرت على الصين حتى فترة قريبة جدا . حيث لكل من القادة العسكريين الكبار « سادة الحرب » جيشه الخاص .

أما حروب الامارات والمدن في ايطاليا ، وكذلك الحروب الدينية فقد تميزت بهذا النوع من المنظمات شبه العسكرية ، وكان الى جانب هذه العصابات ، وحدات من الجنود المرتزقة الذين عرفوا بروحهم العسكرية القوية ، ومن أشهر هؤلاء المرتزقة الذين عرفتهم اوربا الغربية ، المرتزقة السويسريون الذين لم يكونوا يجدون في بلادهم الفقيرة وسيلة للعيش فأخذوا يمارسون مهنة التدريب العسكري في البلدان المجاورة . ثم ما لبثوا بعد ذلك ان انشأوا تشكيلات مقاتلة شديدة البأس تشبه « الكتائب الاغريقية » والجحافل الرومانية . وقد اشتهرت هذه الوحدات السويسرية بالشجاعة والولاء وقوة التنظيم ، وظهرت براعة خارقة في ساحات المعارك الاوربية قبل ظهور الاسلحة النارية . واستمرت الكانتونات السويسرية التي ترتبط بمعاهدات دائمة مع المملكة الفرنسية ، على تقديم جنودها الابطال للملك الفرنسي مدة طويلة من الزمن انتهت بقيام الثورة الفرنسية ، عندما لم يجد الملك لويس السادس عشر من يدافع عنه في بداية هذه الثورة سوى هؤلاء المرتزقة الاجانب ...

والحقيقة ان وحدات المرتزقة السويسرية تجاوزت حدود الارتزاق البسيط واصبحوا يخدمون بشرف واخلاص ، كما ستفعل بعد ذلك وحدات الكتائب الاجنبية في الجيش الفرنسي حاليا .

وفي الازمنة الحديثة كانت الممالك تعتمد بشكل واسع في جيوشها على المحترفين .. والمثال النموذجي لهذا الاسلوب حدث في فرنسا بين القرن الرابع عشر والقرن الثامن عشر ، حيث ساعد استمرار النظام على بعض الاستقرار . وفي نهاية حرب المائة عام التي سجلت تدهور نظام الفروسية .. وفي عهد

الملك شارل السابع تم التخلص من السفاحين ، وانشىء نظام الرواتب للمسكريين ،
هذا النظام الذي ادى الى تطور النفوس والبنيات الاجتماعية والسياسية .

لقد انشا الملك (شارل السابع) وحدات سرايا المرافقة للخيالة عام ١٤٤٥
وبعد ذلك بثلاث سنوات احدث سرايا المرافقة للمشاة ، والتي تتألف من رماة
الاسهم (النبالة) . وهكذا تشكل لأول مرة جيش وطني ملكي حقيقي له صفة
الدوام .

وكان تطويع « النبالة » يتم في النواحي وما لبثت هذه الوحدات ان زالت
في نهاية القرن الخامس عشر لتحل محلها الوحدات السويسرية ووحدات
المرتزقة الالمانية ، وعلى هذا الاساس لم يعد التجنيد وطنيا لانه يتم في خارج
البلاد ويكلف مبالغ باهظة .

وفي القرن السابع عشر وجه تيلييه والد دو لوفوا(١) ، الدعوة للجنود
المحترفين الوطنيين للتخفيف من اعباء النفقات . وكان الضباط من رتبة عقيد
ونقيب هم الذين يقومون بتطويع الرجال . وقد استمر هذا النظام حتى عام
١٧٨٢ حيث احدث شوازل(٢) التجنيد المباشر من قبل السلطة الملكية ، وساعد
هذا الاجراء على استمرار الوحدات المقاتلة الامر الذي لم يكن معروفا حتى
ذلك الوقت .

اما الميليشيات الشعبية التي لم تدع قط منذ عهد لويس السابع فستدعى
لأول مرة في عام ١٦٨٨ ثم في عام ١٧١٣ ، حيث سيشكل منها مائة كتيبة مقاتلة ،
تم تجنيدها بالقرعة بين الفلاحين . والواقع ان هذه الميليشيات لم يكن لها

(١) المركيز ميشيل لوتيليه (١٦٤١ - ١٦٩١) : الامين المساعد لوزارة الحرب ، اصبح من
اشهر وزراء لويس الرابع عشر : ودر الذي طور نظام التجنيد ، وصيانة الوحدات ، وانشأ نظام
الترفيعات في الجيش وزود المشاة بالحربة ، ونظم وحدات الهندسة ، ومدارس الضباط .
(٢) شوازل : اللوق دو شوازل (١٧١٩ - ١٧٨٥) رجل دولة فرنسي ، وزير الشؤون
الخارجية في الفترة (١٧٥٨ - ١٧٦١) ثم وزيرا للحربية (١٧٦١ - ١٧٧٠) وقد نجح في اصلاح
مآسي واضرار حرب السبع سنوات . ويعود الفضل اليه في عقد معاهدة الاسرة ، والحصول على
منطقة اللورين ، وجزيرة كورسيكا .

قيمة قتالية كبيرة ، ومن سخریات القدر ان هذه الكتائب الفيت في عام ١٧٨٩ م (عند نشوب الثورة الفرنسية) باعتبارها تسيء الى الحريات العامة . وبالرغم من انها كانت النواة الاساسية للجيش الوطني لكنها لم تلعب في القرون الماضية الا دورا متواضعا جدا .

ومع ذلك فقد دعيت الميليشيات الشعبية عام ١٧٠٩ في مالبلاكيه(٢) واستطاعت ان تعيد ذكرى امجاد المعركة التي خاضتها واحرزت النصر فيها عام ١٢١٤ م في بوفين .

وسجلت الجيوش الملكية في البلاد الاوربية الاخرى بعض الاختلافات بالنسبة لجيش ملوك فرنسا .

ففي السويد كان جيش الملك غوستاف ادولف يتألف من المرتزقة الالمان الذين يتطوعون بعقود لمدة محدودة ، ومن عدد من الوحدات الوطنية التي تجند عادة من الفلاحين لمدة عشرين عاما ، على اساس مصادرة رجل من كل عشرة رجال بين الشباب الذين تتجاوز اعمارهم الخمسة عشر عاما .

وفي انكلترا ، كان انصار الملك من المتطوعين الذين لا يتقاضون اية اجور طيلة الحروب الداخلية ، لانهم يقاتلون انتصارا للمبدأ .. ولكن هؤلاء المتطوعين لا يعرفون الانضباط .

اما جيوش البرلمان فكانت تتألف ايضا من الانصار المتطوعين الذين يتقاضون راتبا مقطوعا ، ويدعمهم ايمانهم الديني وطهاريتهم ، وكان هؤلاء اكثر انضباطا من جنود الملك .

اما الجيش في الامبراطورية العثمانية ، فكان يتكون حول نواة دائمة من الانتكشاريين . وكان العسكريون من مختلف المراتب يتقاضون رواتب بصورة منتظمة ، ويتلقى النخبة من القادة بعض الاقطاعات بالاراضي . وكانت ملاكات الجيش مفتوحة للموظفين الكبار في الدولة .

(٢) مالبلاكيه : قرية في شمالي فرنسا .

وتقدم الولايات وحدات مقاتلة مساعدة عند الحاجة .

وفي ألمانيا ، أعد الملك سرجان البروسي والد فريدريك الثاني ، جيشا من النخبة المنتقاة بين الاصحاء جسمانيا . وكان الجيش البروسي يجند عناصره من الكانتونات ، بموجب نظام يجمع بين التطوع الاختياري والتجنيد الإلزامي . وتجدر الإشارة الى ان تشكيل الجيش البروسي والطريقة التي سار عليها في تعبئة أفرادها ، كانت بداية « للجيش الوطني » الذي تكونت وحداته الكبرى مطبوعة بالطابع الاقليمي . ولما كان عدد الجنود الذين يطوعون من بين السكان ضئلا ، فقد لجأت السلطات البروسية لاكمال ملاكات الاولوية من المرتزقة الاجانب .

وفي بروسيا ظهر الاهتمام لأول مرة بتحضير كوادر على مستوى عال من الكفاءة . ولذلك انشئت المدارس العسكرية للطلاب الضباط .

وسار لويس الخامس عشر ملك فرنسا على هذا النهج فأمر ببناء المدرسة الحربية كخطوة أولى نحو تكوين القادة الكفاء لقيادة وحدات الجيش .

ب - البنيات الوطنية لها جيوش وطنية

لم تر الجيوش الوطنية الحقيقية النور الا في نهاية القرن الثامن عشر . وابتداء من نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، لم يعد الجندي يقاتل في سبيل الملك بل يقاتل من اجل الامة . ومع ذلك فان جميع سجلات المظالم الخاصة بالنواب في المجالس الوطنية الفرنسية ، كانت تدين التجنيد الإلزامي واعتبرته « اعتداء على الحريات » .

ومع ذلك فقد اصبح التجنيد الاجباري الشكل الطبيعي لتجنيد جيوش الثورة والامبراطورية . وكان لهذه الجيوش صفة وطنية على الاقل في الفترات التي سبقت توسع الامبراطورية وزيادة تعداد الجنود الاجانب في الجيش .

والواقع ان حروب الثورة والامبراطورية دعمت الصفة الشعبية للحرب ، فاصبحت اكثر كثافة ، وتمس اعدادا كبيرة من الناس . وفيما بعد ادت صدمة

القوميات تدريجيا الى الاتجاه نحو الحرب الشاملة للامم المسلحة التي تميز بها القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

كانت النوادي والمجتمعات الثورية في باريس ، هي التي انشأت في البداية « الجيش البرجوازي » عام ١٧٨٩ ، وذلك عند تأسيس « الحرس الوطني » . وكان افراد الحرس الوطني هذا ينحدرون من البرجوازية الباريسية وينحدر بعضهم من عامة الشعب ، كما كان بعضهم من الجنود الذين يتقاضون رواتب منتظمة ويعيشون داخل الثكنات .

أما تطويع الحرس ، فيتم اراديا بموجب مرسوم صادر عن الجمعية الوطنية، يحدد مهمة هذا الحرس بالدفاع عن حدود الوطن . وعندما ظهر الخطر على اثر اعلان اوربا الحرب على الثورة في عام ١٧٩١ كان لا بد من العودة للتجنيد الالزامي الذي اُلقي في عام ١٧٨٩ .

وقد اطلق لقب « المتطوعين » على الرجال الذين تمت دعوتهم للخدمة الالزامية في عام ١٧٩٢ (او السنة الاولى من تقويم الجمهورية الفرنسية) .

وفي عام ١٧٩٣ ، كان لا بد للجمعية التأسيسية من ان تحل نفسها بعد ان اصدرت مرسوما يعلن « الوطن في خطر » ويقرر حق المصادرة والتعبئة العامة للجنود . هذا القانون الذي غناه الشاعر فيكتور هوفو بقصيدة مطلعها :

يا جنود العام الثاني للجمهورية ،

أيتها الحرب ،

يا أيتها اللحمة ،

وكان على جميع الرجال الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشر والاربعين ، ان ينخرطوا في الجيش ، وان تكون جميع طاقات الامة بأسرها معبأة لدعم المجهود الحربي : فقد سار الرجال والشيوخ والاطفال والنساء الى الساحات العامة ليثيروا حماس وشجاعة الجنود .

قام بتنظيم الجيش الثوري لازار كارنو عضو لجنة الانقاذ الوطني (١) ، وذلك بمزج المجندين الجدد مع من تبقى من عناصر الجيش الملكي .

وقد صقلت المعارك هذا الجيش الجمهوري الحديث ولكن قدرته على المناورة كانت محدودة ولم تساعده على خوض عمليات كبرى . ويمكن القول ان نظام التعبئة العامة للامة لا يزال يجد من ينادي به حتى في ايامنا الحاضرة .

وفي ايلول ١٧٩٨ قررت الجمعية الوطنية الفرنسية احداث التجنيد العام ، وذلك بطريقة الدعوة السنوية للمكلفين بالجندية على اساس « القرعة » التي تحددها السن ، ونص هذا القانون نفسه على امكانية التطوع الاختياري الذي يكمل التجنيد الاجباري للرجال بين سن العشرين والخامسة والعشرين . وقد تم تعبئة جيوش الامبراطورية على هذا الاساس ولوحظ زيادة عدد الفارين من الجندية في نهاية العهد الامبراطوري (٢) .

وبعد سقوط الامبراطورية ، عادت فرنسا تدريجيا الى الجيش المتطوع ، ولم تستأنف العمل بالخدمة الالزامية (او الجيش الوطني) الا بعد هزيمة حرب (١٨٧٠) .

وفي بقية اوربا تبنت الدول صيغا مختلفة . ففي روسيا القيصرية لم تكن الخدمة العسكرية بالنسبة للفلاحين سوى استمرارا للعبودية ، وفي الامبراطورية النمساوية ، كان التجنيد يشمل جميع القوميات لذلك كان الجيش النمساوي قليل الانسجام ولكنه يجسد تنوع الدولة . اما بريطانيا العظمى فقد رفضت جميع انواع الخدمة الالزامية وشكلت جيشها من المتطوعين لمدة طويلة . وانفردت بروسيا بعد معركة يينا بارساء قواعد الجيش الوطني الحديث ، الذي كان سببا في تفوقها عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧٠ م .

وعندما نشبت الحرب الاهلية في الولايات المتحدة الامريكية كان الجيش

(١) كارنو لازار : استاذ رياضيات (١٧٥٣ - ١٨٢٣) واحد مؤسسي علم الهندسة الحديث . وقد اصبح عضوا في لجنة الانقاذ الوطني بعد نشوب الثورة الفرنسية ، واشرف على تنظيم الجيش الجمهوري الرابع عشر ، ووضع جميع الخطط الحربية ، واطلق عليه اسم « منظم لنصر » .
(٢) ويقصد بالعهد الامبراطوري هنا : الفترة التي اعلن فيها نابليون الاول نفسه امبراطورا .

الاتحادي قليل العدد ويتألف من المتطوعين فقط . ومع استمرار الحرب لجأ الطرفان المتحاربان (الشماليون والجنوبيون) لدعوة جميع الراغبين بالخدمة لإنشاء جيوشهما ، وكانت الدعوة لفترة محدودة .

وفي عام ١٨٦٥ عندما قامت الدولة الاتحادية الامريكية تبنت نظام الجيش المحترف .

وهكذا نرى انه حتى عام ١٨٧٠ لم يكن هناك تشابها في اساليب تجنيد الجيوش في مختلف الدول ، ولكن تنظيم المجتمع الصناعي ، والشروط الاقتصادية والنزاعات والتوسع الاستعماري ادى الى خلق تيار جديد لتنظيم الجيوش : فقد تبنت معظم الدول نظام الخدمة العامة ، مع تخفيض مدة الخدمة العسكرية . ولم يعد هناك ميليشيات مطلقا بل « جيوشا وطنية » تشمل خدماتها جميع المواطنين ، كما اعتمدت معظم الدول في تنظيم جيوشها على نواة اساسية من الكوادر والوحدات المحترفة التي تعتبر بمثابة عمود فقري للجيش ، وبدأت بذلك « مرحلة الامة تحت السلاح » التي تميزت بها حروب القرن العشرين .

الحرب الصناعية والتعبئة العامة

اجبرت ظروف الحربين العالميتين الاولى والثانية جميع الدول المشتركة في الصراع بما في ذلك تلك التي لم تكن تعرف الخدمة الالزامية ، على اللجوء الى اعلان التعبئة الشاملة لجميع الموارد البشرية والصناعية والاقتصادية .

ومنذ عام ١٩١٤ تبين ان جيوش السلام ليست كافية لحماية الجبهات الواسعة التي امتدت الى مختلف مسارح العمليات . لذلك بادرت الدول المتحاربة لدعوة الاحتياطيين الذين سبق لهم ان خدموا في الجيش ، فضايف ذلك من تعداد الجيوش ، ولكن حاجة المقاتلين للعتاد والاسلحة والذخائر اضطر الدول لتعبئة عدد هائل من العمال في المصانع ، بل كان لا بد من دعوة اليد العاملة النسائية لاكمال الملاكات الضرورية في المصانع بعد ان تم سوق بعض العمال للخدمة الميدانية .

وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) تطورت القوات المسلحة

واصبحت شديدة التعقيد ، وتطلبت المزيد من العتاد من جهة والاختصاصيين الكفاء من جهة اخرى . وعلى سبيل المثال كان مقاتل واحد في الجبهة يحتاج الى عشرات الاشخاص على امتداد حلقة التموين ، وذلك لتأمين تصنيع ونقل وتكديس وصيانة الاعتدة المتزايدة والمتنوعة باستمرار . كما احتاج الامر منذ بداية الحرب لدعوة النساء للخدمات العسكرية في الاركان العامة ، والمستشفيات وسلاح الاشارة والنقل ومعظم الادارات في المؤخرات ، وهكذا شهدت الحرب الثانية « الامة تحت السلاح » بالفعل .

وبعد انتهاء الحرب ، عادت الجيوش فتقلص تعدادها الى المستوى الذي كانت عليه في زمن السلم تقريبا ، وعادت هذه الجيوش الى طريقة التجنيد التقليدي .

ومع ذلك كان لا بد من ان تبقى الكثير من الاعمال في ايدي الاختصاصيين الذين لا يمكن تكوينهم خلال فترة الخدمة الالزامية القصيرة . ولهذا بدا الاتجاه نحو اعادة تنظيم الجيوش بصورة تكون معها قليلة العدد عالية الكفاءة يتزايد فيها عدد الاختصاصيين المحترفين يوما بعد يوم على ان مهمة الدفاع عن الاوطان بقيت من واجب جميع المواطنين في حالة قيام تهديد حقيقي . ولهذا تبنت الدول صيفا مختلفة للتعبة بما يتناسب مع موقعها الجغرافي وانظمتها الاجتماعية والسياسية وتقاليدها ، وعلاقاتها الدولية .

الروح المدنية والوطنية

لقد لاحظنا ان « التجنيد » تطور خلال قرون عديدة بما يتلاءم مع الانظمة الاجتماعية والسياسية ومعطيات الزمان ، ولم يكن هذا التطور يسير على وتائر منتظمة بل كان يتم على شكل قفزات الى الامام ثم عودة الى الوراء ، ففترات من السكون ، وأحيانا تسارع غير منتظر . . . وحلت التصرفات الجماعية المنسقة للمدن والممالك والامبراطوريات ، محل الاعمال الفوضوية الفردية والعفوية التي كانت تعرف في عصور القبائل البدائية . وادى تصاعد الروح المدنية في بعض الازمنة ، الى ان تهب الشعوب بكاملها للمساهمة في الدفاع عن المدينة او الدولة (الوطن) ، واصبح المختصون (الحرفيون) ضروريين للجيوش من

اجل القيام بالحملات الطويلة الامد ، كما تزداد اهميتهم عندما تنخفض الروح المدنية الجماعية ، في بعض الانظمة .

ومن الجدير بالذكر ان الانسان عامة لا يقاتل الا من اجل قضية يشعر بأنها كامنة في وجدانه ، كالايمان الديني ، والشعور القومي والايديولوجية التي تنفوس في النفوس لتصبح في مستوى العقيدة .

واخيرا فانه مهما كانت طريقة التجنيد فان الجيوش لا قيمة لها الا اذا كان المقاتلين (الجنود) يؤمنون ايمانا وطيدا بأن هناك شيئا يستحق منهم الدفاع عنه ، كأرض الوطن ومستوى المعيشة ، وطريقة التفكير والحضارة .

ج - التنظيم

يبدو انه لم يكن لدى القبائل والاقوام البدائية تشكيلات معينة للقتال . ومما لا شك فيه ان المحاربين كانوا يخضعون لخطة حربية ما يضعها قائدهم ، ولكن المعارك كانت تجري بالنظام المنتشر ، وكل فرد يتصرف بغريزته ووحى اللحظة التي يمر فيها .

ولم يكن القتال سوى سلسلة من الاعمال الفردية ، لان الجماعات المقاتلة لم تشكل جيشا حقيقيا او وحدات منتظمة .

التشكيلات بالنظام المنظم

ظهر الجيش المنظم على اساس نموذج محدد ، مع نشوء المدن والدول . وادت طبيعة التسليح والمفاهيم المعروفة في تلك الازمنة الى تبني تشكيلات متماسكة ونظام منضم ، للمحافظة على الانسجام واعطاء الصدام القوة الضرورية . وكانت التشكيلات المقاتلة تتحرك كتلة واحدة فوق مساحات محدودة من الارض .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، كانت الكتائب اللاسيديمونية تضم (٢٠٠٠) جندي من المشاة الثقيلة ، وتشغل عادة مساحة من الارض جبهتها (٥٢٠) مترا وعمقها (١٦) مترا . اما الكتيبة المكدونية فتضاعف عددها ، وازدادت ابعاد تمرکزها على الارض .

اما الجحفل الروماني فقد ازداد تعداده خلال اربعة قرون ق.م من (٣٠٠٠) الى (٦٠٠٠) جندي مشاة . وبقي تشكيله متماسكا ، وتحولت جبهة التشكيل على الارض من (٩٠٠) الى (٢٠٠٠) متر . اما عمق التشكيل فكان يتراوح بين (١٠٠ الى ٣٠٠) متر .

وتجدر الاشارة الى ان هذا التشكيل لا يمكن ان يتجزأ خلال المعركة ، وذلك للمحافظة على الانضباط وتجنب الفوضى وتفشي الذعر في الظروف المأساوية .

وفي العصور الوسيطة تبنت وحدات المشاة السويسرية والاسبانية ، التشكيلات المتراسة^(١) ، لكي تستطيع الصمود امام خيالة العدو .

والواقع ان هذا النوع من التشكيلات المتراسة تصلح للقتال القائم على الصدام المباشر بين المقاتلين ، وقد ظل صالحا في المراحل التي كانت فيها الاسلحة مقصورة على السلاح الابيض (السيوف والرماح الخ . . .) .

وعندما ظهرت الاسلحة النارية ، كانت نتائج المعارك التي خاضتها الوحدات بالتشكيلات المتراسة مأساوية بسبب ارتفاع نسبة الخسائر بالارواح .

ففي عام ١٧٤٥ حشد الانكليز عشر الاف رجل في معركة فونتينيو ، (بالنظام المتراس) فكانت النتيجة الهزيمة بعد ان تكبدوا خسائر فادحة جدا بتأثير نيران الاسلحة الموجهة توجيها جيدا .

وفي معركة واغرام عام ١٨٠٩ ، حلت الهزيمة النكراء بقوات ماكdonالد لان كتابه شنت هجومها بتشكيلات متلاحمة ، وبلغ عدد القتلى (٦٠٠٠) رجل من مجموع القوات الذي لا يزيد عن (٩٠٠٠) رجل .

وفي القرون الوسطى ، كان فرسان الاقطاع يقاتلون بالتشكيلات المتراسة ،

(١) التشكيلات المتراسة : هي تشكيلات النظام المنظم التي تستخدمها الجيوش الحديثة في العرض والاستعراض (العرب) .

لاعتقادهم ان الكتلة التي يشكلها الخيول والرجال المدججين بالسلاح تشكل قوة صدم هائلة قادرة على زعزعة ترتيب العدو واحداث الثغرات فيه واختراقه . ولم يكن هذا النظام مطبقا في جميع الحالات خاصة عندما تكون التشكيلات الدفاعية على مستوى عال من القدرة القتالية ، وتمتلك اسلحة من انواع جيدة . وتجدر الاشارة الى ان القوات الالمانية استخدمت في الحرب العالمية الثانية اثناء القتال على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٣ تشكيلات مدرعة كثيفة ، لاقتحام مواقع السوفييت الدفاعية ، وكانت هذه التشكيلات تتألف من : دبابات ثقيلة في المقدمة ، وعلى الجوانب ، وفي وسط التشكيل تتحرك وحدات المشاة المرافقة للمدرعات والتي اطلق عليها اسم « الحرس المدرع » .

وبعد ان كانت الجيوش لفترة طويلة قليلة العدد ، تخوض المعارك بتشكيلات متراصة (على شكل كراديس) اخذت الدول الكبرى والامبراطوريات في العصور القديمة تنشئ جيوشا ضخمة ، واصبحت هذه الجيوش تتشكل على الوجه التالي في ساحات المعارك : مقدمة وقلب واجنحة ومؤخرة . ومع ذلك بقي الجيش تحت امرة قائد واحد يغطي ببصره ساحة المعركة بكاملها . واستمرت هذه التشكيلات الجديدة عدة قرون ، وكانت الجيوش في هذه الفترة تتحرك وتقاتل كتلة واحدة مما حدد امكانياتها على الحركة والمناورة .

اما الجيوش المغولية العظيمة فقد عرفت كيف تجتاز المسافات الشاسعة بمهارة وكفاءة منقطعة النظير ، واعطت صورة عما يمكن ان تكون عليه مناورة الوحدات المدرعة في العصور الحديثة كما يقول الخبير العسكري البريطاني ليدل هارت .

وتجدر الاشارة الى ان ظهور المدفعية في اوربا لم يحمل معه اي تبديل في تشكيلات القتال .

تشكيلات الفرق

كان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الثامن عشر لمشاهدة التحول الحاسم في تنظيم الجيوش الذي يعتبر بداية عصر جديد في مجال المناورة .

وترجع فكرة تقسيم الجيش الى « فرق » من اجل تسهيل التنقلات والحركة في ساحات المعارك ، للمارشال دوبروغلي . ففي عام ١٧٥٩ قام هذا المارشال بتقسيم جيشه الى مجموعات تحتوي كل منها على الاسلحة الرئيسية الثلاث : المشاة والخيالة والمدفعية . وكانت غايته من هذا التشكيل ان تكون كل مجموعة قادرة على العيش والقتال بمفردها ، وان تتبادل الدعم والتعاون بنفس الوقت مع غيرها للقيام بمناورة شاملة تحت اشراف قيادة الجيش . وهكذا ظهرت فكرة « الفرقة » لأول مرة .

وفي الحرب الايطالية اشتهر نابليون بوناپرت عام ١٧٩٦ في ادارة مناورات الفرق ، تجاه عدو لا يزال يتمسك بالتشكيلات الصلبة القديمة .

ولم يمض زمن طويل حتى تبنت الجيوش المعروفة الاخرى نظام الفرق . وادت بعض الاعتبارات والظروف الاخرى الى تنظيم التعاون ، ليس بين مختلف صنوف الاسلحة فحسب بل وبين القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية .

وفي الجيوش الحديثة الآن تعاون لا مندوحة عنه ، وهو يتطلب صيغا جديدة لتحقيقه على الوجه الاكمل ، ذلك هو تعاون القوات المختلفة في العمليات المشتركة .

وقد اصبحت جيوش الدول العظمى في هذه الايام كتلا هائلة من البشر والعتاد تغطي مساحات شاسعة على مستوى القارات . كما اصبحت متنوعة الى اقصى الحدود وتغطي الابعاد الطبيعية الثلاث : (سطح الارض ، واعماق البحر ، والفضاء الخارجي) .

وبالرغم من كل التقدم الذي انجز في جميع الميادين التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية .. وبالرغم من كل الوسائل التي اصبحت في حوزة الانسان ، الا انه هو « اي الانسان » يبقى العنصر الاساسي في الكون . ومن الواجب ان تكون غاية جميع التنظيمات والوسائل ايجاد الظروف الملائمة للانسان لكي تتفتح جميع ملكاته ومواهبه وتمكنه من التعبير عن اسمى

قيمه ، وهذا يعني ان الانسان يبقى الوسيلة والغاية في كل الحروب والنزاعات في كل زمان ومكان .

وفي هذا يقول اردانت دو بليك (١) : « ان الانسان الذي يحمل لقب وعرف حضارة ما بثقافتها وتقنياتها يتحمل واجب الدفاع عنها في الصراعات المحلية والخارجية التي تعترض حضارته ... » .

د - القيادة

القيادة المعنوية والقيادة العسكرية

ظلت الجيوش زمنا طويلا خاضعة لقيادة رجال لم يكونوا مهئين لهذه المهمة . وفي الاقوام البدائية ، كانت القيادة في الحروب ، تعطى للرجل الاقوى والاكثر شجاعة ، واحيانا للرجل الذي تميز بالدكاء والمهارة . وكانت الصفات الجسمانية المدعومة بشيء من الدكاء ، تكفي لتجعل من الرجل قائدا مقبولا .

وفي اغلب الاحيان كان قائد القبيلة هو نفسه القائد العسكري طالما ان السن ، لم يضعف قواه الجسمانية . ومع مرور الزمن تبين لبني البشر ان التأهيل المتقدم ضروري جدا من اجل قيادة المقاتلين في الصدامات المحدودة الكثيرة الحدوث .

وفي المجتمعات الكهنوتية القديمة ، كان حق قيادة جيش المدينة المستقلة ، والدولة والامبراطورية ، محصورا في الكاهن - الملك الذي يمثل الالهة على الارض .

وكان فرعون مصر ، وملوك اشور وبابل وفارس ، دائما ، على رأس جيوشهم كفاتحين وغزاة يتجابهون في ساحات المعارك . وتدل الكتابات والصور المنقوشة فوق الاثار القديمة على انتصارات المحاربين العظام من امثال اشور باتيبال ، ونبوخذ نصر ، وغيرهم من القادة الذين اشتهروا في تلك الازمنة وتوحي

(١) اردانت دوبليك : كاتب عسكري فرنسي ولد في مدينة بيرينيه (١٨٢١ - ١٨٧٠) ، وكان مؤلفاته تأثيرا كبيرا على الجيش في عام ١٩١٤ .

لنا هذه الكتابات ، بأن جميع هؤلاء القادة العسكريين ، كانوا ابطالا مرعبين ، يبيدون خصومهم المغلوبين ، ويدومرن مدنهم ويستولون على ثرواتهم ومواطنيهم . وهذه الصورة هي اقرب لصور « الطفافة » منها الى صور الجندي الشجاع .

أما الاسماء المشهورة التي خلفها لنا التاريخ القديم مثل : سيروس الفارسي ، والاسكندر المكدوني ، وغيرهم ... ليست سوى اسماء ملوك استولوا على امبراطوريات واسعة كقادة عسكريين كانوا دائما على رأس جيوشهم .

وكان الاسكندر الكبير ، قائدا حربيا ، وهو في سن العشرين وهو يمثل في ايماننا النموذج الكامل للقاتح العظيم .. وكانت عبقريته العسكرية والسياسية الخارقة ، كافية في ذلك الزمان لتؤمن له التفوق البارز على خصومه الذين لم يكونوا في مستوى كفاءاته وذكائه .

وقد عرف التاريخ زعماء لشعوب اخرى اثبتوا عمليا انهم من اعظم القادة الفاتحين ، ومن هؤلاء جنكيزخان وتيمورلنك اللذان عرفا كيف ينظمان ويقودان جيوشا جرارة كبيرة العدد محمولة على الجياد ، ويقطعا بها الفيافي الاسيوية الشاسعة وارااضي القارة الاوربية التي تغطيها الغابات والمستنقعات والانهار .

وكان الملوك في اوربا ، لفترة طويلة من الزمن ، قادة للجيوش ، ومن الامثلة على ذلك : فيليب اوغست في معركة بوفين ، وسانت لويس في الحروب الصليبية ، وحنّا الطيب ، (الذي اسر في معركة بواتييه ، وهو في وسط وحداته الخيالة) ، وفرانسوا الاول (الذي اسر ايضا في معركة خاسرة) ، كل هؤلاء الملوك قادوا بانفسهم جيوشهم في القتال . ولم تكن قيادتهم لهذه الجيوش ، قيادة شكلية ، كما سيحصل فيما بعد ، ولكنها قيادة فعلية ومباشرة ، يمارسها صاحب السلطة الملكية ويتحمل مسؤولياتها .

وكان الامر كذلك بالنسبة لغوستاف ادولف ، وشارل الثاني (ملوك السويد) ، اللذان اظهرا كفاءة ومهارة فائقتين في ساحات المعارك ، وادخلا تجديدات هامة بالتقنية والتكتيك العسكري .

والواقع ان معظم الملوك في تلك الازمنة رفضوا ممارسة القيادة الفعلية في ساحة المعركة ، واحتفظوا لانفسهم بصلاحيات القائد العام للجيش .

ومن المعروف أن ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، شهد عمليات الحصار الذي قادها المارشال فوبان ، كما حضر عملية عبور نهر الرين التي قادها الجنرال تورين . وشهد لويس الخامس عشر معركة فونتينو التي كان يقودها المارشال دوساكس . وكذلك فعل كل من غليوم الاول وغليوم الثاني (ملوك المانيا) اللذان ارتديا بذة الجنرال واقاما في مقر القيادة العامة للجيش ، ولكنهما تركا القيادة الفعلية المباشرة للجنرالات ليقودوا المعارك باسم الامبراطور .

وفي روسيا القيصرية ، لم يكن القيصر نيكولا الثاني يتمتع بهذا القدر من الحكمة ، فاحتفظ لنفسه بمسؤوليات القيادة العسكرية المباشرة طيلة الحرب العالمية الاولى (وكانت النتيجة الكارثة التي حلت به وبأسرته) .

وهناك بعض رؤساء الدول الاخرين مثل فريدريك الثاني ، ونابليون وهتلر ، وستالين ، مارسوا في ظروف مختلفة تماما ، هذه المسؤولية المزدوجة السياسية والعسكرية .

والواقع ان نابليون كان جنرالا في الجيش قبل ان يكون رئيسا للدولة ، ثم اصبح بفضل عبقريته الاستثنائية ، قائدا سياسيا وقائدا عسكريا . فكان يعد الحروب كزعيم سياسي ثم يقود العمليات الحربية بمهارة خارقة كقائد عسكري .

وفي عهد ستالين ، اصبحت الظروف مختلفة تماما عن الماضي ، فقد كان بالفعل المفوض السياسي الاعلى للجيش ، ويشرف على قيادة العمليات وكان بنفس الوقت القائد السياسي بلا منازع .

ولكن اتساع مناطق العمليات في العصر الحديث ، ادى الى تطور اساليب القيادة ، فلم يعد بالامكان قيادة العمليات الفعلية على الارض كما فعل نابليون . لذلك كان ستالين يتصور وينظم ويدير هذه العمليات الكبرى في مكتبه ، يساعده في ذلك بعض القادة العسكريين الكفاء ، غير ان السلطة الكاملة كانت بين يديه شخصيا في المجالين : المدني والعسكري ، لكي يتمكن من ادارة الحرب بكاملها .

اما هتلر ، فكان ايضا رئيسا للدول وقائدا اعلى للجيش الالماني ولكنه ،

سار على مفهوم مختلف تماماً عن مفهوم ستالين للقيادة . فلم يكتف بأن يكون القائد السياسي المطلق الصلاحية بل والقائد الاعلى للقوات المسلحة ، يتدخل في أكثر الامور التفصيلية الدقيقة في العمليات ، بينما كان ستالين يترك للجنرالات مسؤوليات واسعة في قيادة العمليات البرية والجوية والبحرية .

وقد ادى هذا الاسلوب الى خلق البلبلة في القيادة وادت الى قيام اوضاع معقدة صعبة بسبب شخصية الفوهرر النادرة وشذوذه كدكتاتور ، مطلق الصلاحية ، فقد الرؤية الشاملة للعمل السياسي والعسكري واغرق نفسه واضاع كل امكانياته في التفاصيل التافهة .

اما الدول الديمقراطية ، فقد اوجدت صيغة مختلفة تماماً عن النماذج المذكورة ، في القيادة العسكرية .

ففي العصور القديمة ، كان المواطنون اليونان والرومان يشاركون مشاركة فعالة في مختلف مسؤوليات السلطة الدينية والعسكرية .

وفي أثينا كانت القيادة العسكرية ، تعطى لرجال الحرب الذين ينتخبهم المواطنون لمدة محدودة (لا تزيد عن السنة في اغلب الاحيان) . . ومع ذلك فقد أعيد انتخاب بيريكليس^(١) لقيادة الجيش خلال خمسة عشرة عاما متوالية وقد تم ذلك في ظروف عظيمة الاهمية وفريدة من نوعها .

وفي روما كان القناصل ، الذين ينتخبون لمدة سنة واحدة يتولون قيادة الجحافل الرومانية . وكان هؤلاء يقومون بهذه المهمة بكل اخلاص وتغمرهم السعادة بهذا الشرف الذي اولاه المواطنون لهم . . وقد اظهر القنصل سيزار عبقرية خارقة واحتفظ بالقيادة لعدة سنوات في بلاد الغول (فرنسا) الامر الذي هيا له الظروف الملائمة للوصول الى السلطة العليا في روما .

(١) بيريكليس : رجل دولة من أثينا (٤٩٥ - ٤٢٩) ق.م . أصبح في عام ٤٥٩ ق.م رئيسا للحرب الديمقراطي ، وكانت له شعبية واسعة في أثينا فتم انتخابه كقائد للجيش (استراتيجي خمسة عشر عاما متتالية (٤٤٣ - ٤٢٩) فلم الطبيعة الديمقراطية للدولة . وبعد اتفاقية السلام مع اسبارطة التي دامت ثلاثين عاما استطاع ان يبني قوة أثينا البحرية والاستعمارية في اطار الاتحاد الاثيني . وازدهر في عهده الفن والادب ، والعمران ، وأصبح اسمه يدل على القرن الذي عاش فيه لان الافريق بلغوا الذروة في هذه المرحلة .

فصل السلطة السياسية عن السلطة العسكرية

كان لا بد من القيام بقفزة عظيمة طولها عشرين قرنا ، لكي يمكن ايجاد شكلا من الحكم يمكن مقارنته نظريا بالديمقراطيات القديمة .

والواقع ان رؤساء الدول في الامم الحديثة ، هم بنفس الوقت زعماء سياسيين وعسكريين ، ولكنهم لا يمارسون صلاحياتهم العسكرية الا من خلال القادة العسكريين المحترفين الذين تلقوا تدريباً مهنيا يؤهلهم لهذه المهمة الفنية المعقدة واثبتوا خلال ممارستهم الفعلية للقيادة في الوحدات العسكرية كفاءة استحقوا عليها الرتبة التي يحملونها . فالحقيقة ان تطور الجيوش الحديثة ، وتنوع الاسلحة ، وصعوبة استخداماتها ، بالإضافة الى اتساع مسارح العمليات وانتشار الجيوش والقواعد العسكرية على مسافات شاسعة تغطي احيانا اجزاء كبيرة من الكرة الارضية ، كل ذلك جعل من الضروري اعطاء صلاحيات القيادة العسكرية للاختصاصيين تحت الاشراف المباشر للقيادات السياسية .

ومع ذلك تبقى القيادات العليا السياسية والعسكرية ، مترابطان الى اقصى الحدود . واصبح هذا الترابط اكثر بروزا عندما اضطرت الظروف الدولية الراهنة ، للتجمع في احلاف عسكرية منذ ايام السلم في الحربين العالميتين الاخيرتين ، وحيث اصبح من الضروري على كل دولة ان تتنازل عن جزء من صلاحياتها لصالح « الحلف » .

وفي الايام الراهنة اصبحت المشاكل المطروحة (على الدول) شديدة التعقيد وحلولها تستوجب معلومات وايضاحات في منتهى الدقة والصحة . ولهذا اخذ رؤساء الدول يحتفظون بهيئة اركان مشتركة تساعد على ايجاد الحلول للمشاكل التي لها صلة بالجيوش والنزاعات المسلحة . وهكذا كان الامر بالنسبة لرئيس الولايات المتحدة روزفلت ، ورئيس الوزارة البريطانية ونستون تشرشل طيلة الحرب العالمية الثانية .

والواقع ايضا ان التحالفات بين الدول ليست شيئا بسيطا لان كل دولة من الدول المتحالفة لها مصالحها الخاصة ، ومن الصعب جدا التوفيق بين مصالح

جميع الاعضاء . ففي الحرب العالمية الاولى عانى المارشال فوش المكلف بالتنسيق بين الجيوش الحليفة ، الامرين للقيام بهذه المهمة المستحيلة ، وقد عبر عن هذه المعاناة عندما قال : « انني افهم الآن اكثر من اي وقت مضى اسباب انتصارات نابليون ... » . وهو يشير في هذا الى ضرورة وحدة القيادة في الحروب ، وصعوبة التنسيق بين مصالح وآراء الحلفاء .

وهكذا نرى ، انه بينما كان بالامكان خلال الاف السنين اسناد قيادة الجيش لاشخاص لم يسبق لهم اي تأهيل خاص لهذه المهمة ، وكل ما يتمتعون به هو كفاءتهم الفطرية وقوتهم الجسمانية ، ومهارتهم في ساحة المعركة .. اصبحت الجيوش الحديثة من التنوع والتعقيد ، تستوجب ان يكون القادة في مختلف المستويات والرتب ، ممن تلقوا تأهيلا جيدا في مدارس ودورات عسكرية خاصة ، تزداد تعقيدا ودقة يوما بعد يوم .

وقد انقضى الزمن الذي كانت فيه الشجاعة وبعض المهارة كافية لقيادة الجيوش ، واصبح من الضروري ان يكون القادة على مستوى عال يمكنهم من السيطرة على التقنيات الحديثة .

اما على المستويات العليا فلا بد من توفر الكفاءة والثقة والانسجام الكامل بين القائد السياسي وهيئة اركانه وخاصة القائد العام للجيش والقوات المسلحة .

والخلاصة فانه مهما اكتسبت الحرب مزيدا من الصفات العلمية والتكنولوجية ، فانها ستبقى فنا يحتل فيه القائد مكانا رئيسيا . والحرب في الحقيقة « واقع اجتماعي » يستمد قواعده العميقة من طبيعة الشعوب نفسها ، ومن بنياتها السياسية وتنظيمها الاجتماعي والاقتصادي .

واخيرا فان « ادارة الحرب » على الرغم من انها تتطلب من القادة صفاتا استثنائية فقد كانت ولا تزال وستبقى دائما « واقعا حضاريا » .

نحو آفاق عام ٢٠٠٠ م

الفصل الخامس عشر

التغير في العصر النووي - الفضائي

الانفجارات الثلاث

منذ عام ١٩٤٥ ، دخل العالم في « عصر الكوارث » ، أي « عصر الذرة والفضاء » ، وذلك نتيجة لتأثير الجهود الموحدة للانفجارات الثلاث التي تهدد مستقبله بأعظم المخاطر .

وأول هذه الانفجارات الثلاث : هو التفجير النووي ، الذي وقع لأول مرة بتاريخ ١٦ تموز ١٩٤٥ في صحراء لوس الاموس التابعة لولاية نيومكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت اول قنبلة ذرية هي التي استخدمتها الولايات المتحدة فوق مدينة هيروشيما اليابانية بتاريخ ٦ آب ١٩٤٥ ، (وادت دفعة واحدة الى استسلام اليابان) . وفي عام ١٩٥٢ استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية الوصول الى امتلاك القوة الحرارية النووية او ما يسمى بالقنبلة الهيدروجينية .

وبعد ذلك بعام واحد فجر الاتحاد السوفياتي اول قنبلة نووية وانهى بذلك احتكار السلاح النووي الأمريكي الذي استمر حوالي عشر سنوات .

ومما لا شك فيه ان المأساة الكبرى بالنسبة للبشرية ان الانسان لم يتوصل

الى اختراع الطاقة النووية في فترة السلم ، وهو يسعى للبحث عن وسائل تساعد على تحقيق اهدافه السلمية ، وشاءت الظروف ان تجعل هذا الاكتشاف الرهيب في زمن الحرب ، وان يستخدم في الاعمال الحربية .

والانفجار الثاني : هو اطلاق الصواريخ ذات القوة التي تسمح بغزو الفضاء، وكان اول صاروخ من هذا النوع هو الذي قذفه السوفييت وحمل معه اول قمر صناعي ، اطلق عليه اسم « سبوتنيك » في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ .

اما الانفجار الثالث : فهو التفجر السكاني ، والديمقراطية العالمية ، والذي بلغ ذروته في الخمسينات من هذا القرن ، في بلدان العالم الثالث .

وبعد هذه الاحداث الثلاث ، اصبح لدى البشرية قدرة مثلثة للنقل والتدمير والخلق لا مثيل لها في القرون العديدة السابقة ، حيث بقيت هذه الطاقات بمجموعها محدودة ومتوازنة .

اما الآن فقد عرفت البشرية تغييرا جوهريا جديدا لا تزال مدته وآثاره مجهولة في جزئها الاعظم .

القوى النووية

لقد ضاعفت الاسلحة المتطورة الحديثة النووية ، والبيولوجية والكيمياوية او المناخية ، القدرة التدميرية بنسب هائلة لم يسبق لها مثيل .
وبتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٨٠ اقام البابا يوحنا بولص الثاني صلاة خاصة في كاتدرائية القديس بطرس ، شرح فيها الدمار الرهيب الذي سيعترب على الحرب النووية المحدودة ، معتمدا على التقرير الذي قدمه اليه عدد من العلماء الذين اجتمعوا في اكااديمية العلوم التابعة للفايكان . ومما جاء في كلمته بهذه المناسبة :

« ان عدد القتلى الذي سينتج عن الانفجارات النووية مباشرة او بصورة غير مباشرة ، يتراوح بين (٥٠ الى ٢٠٠) مليون نسمة .

وسوف تتناقص الموارد الغذائية بصورة مذهلة بسبب الاشعاعات الذرية التي تنتشر فوق سطح الارض .

وسوف يترتب على التفجيرات النووية تغييرات وراثية بالنسبة للبشر والحيوان والنبات لا يمكن التنبؤ بها .

واذا ما قدر لمدينة ما ان تكون ضحية لاتفجار نووي مباشر فستدمر فيها جميع مرافق الخدمات العامة ، وسيشل الرعب جميع الامكانيات المخصصة للنجدة والاسعاف ، وتسيطر على السكان الاحياء حالة من الذعر الذي يشبه الكابوس المزعج من الصعب ان يتحرروا منها «(١)» .

واخيرا لن يقتصر الدمار على دولة واحدة او عدة دول او امبراطوريات بل ستصاب الحضارات الكونية في منجزاتها الحية ابلغ اصابة .

ويوضح الاستاذ جان هامبرغر في كتابه بعنوان « القوة والهشاشة » الذي نشر في عام ١٩٧٢ : « ان وجود الحياة البشرية بالذات فوق الكرة الارضية ، سيكون معرضا لاعظم الاخطار » .

ويزداد الخطر ايضا لان الارهاب النووي يمكن ان يكون في آخر الامر مفجرا لـ « قيامة نووية حقيقية » ، كما قال العالم المعروف جان غيتون(٢) .

تطور وظائف الحروب

يبدو ان الحرب كانت ولا تزال حتى ايامنا هذه تقوم اساسا بستة وظائف رئيسية هي :

١ - التدمير الديمغرافي - الاقتصادي لحياة البشر والثروات المادية والنشاطات من كل الانواع .

٢ - المقامرة للحصول على ارباح كبيرة مقابل خسائر محدودة بالاعتماد على احتمال كبير في النجاح .

(١) يقدر الخبراء الطاقة الاجمالية المخزونة للأسلحة النووية الموجودة في العالم في عام ١٩٧٩ بما يكفي لآبادة مئات الملايين من البشر وتدمير معظم المدن العالية الكبرى ، وهذا يعني اصابة الحضارات القائمة بجرح مميت لا يمكن شفاؤه .

(٢) جان غيتون : في المقال الذي نشره في صحيفة الفيجارو الفرنسية بملدها الصادر في ١٢ كانون ثاني ١٩٧٢ ، تحت عنوان « القرصنة والذرة » .

٣ - المزج بين اللعب والمغامرة .

٤ - تعديل التوازن السياسي الداخلي والدولي .

٥ - تغيير البنى (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) .

٦ - تجربة الاسلحة والعتاد والتقنيات والتكتيكات الحديثة .

وقد كان للحرب النووية ، بمجرد التهديد بها وحده ، تأثيرا كبيرا على جميع هذه الوظائف .

فوظيفة « التدمير » رفعت الى درجة اصبح معها اصلاح الاضرار الناتجة عن الحرب النووية امرا مشكوكا فيه (وهميا) ، كما لا يمكن التأكد من امكانية اجراء حساب عقلاني نظري ، لنتائج الحرب ، لان المنتصر نفسه ستكون اصاباته بليغة جدا في قوته (موارد عيشه) ومنجزاته الحيوية ، بل سيكون تحت رحمة قوة ثالثة محايدة بقيت بمنجاة من الكارثة ، او مهددا بالثورات الداخلية الناتجة من الفوضى التي تعم البلاد بسبب احوال الحرب .

اما وظيفة « اللعب » فلم يعد بالامكان الحديث عنها عندما يتم التدمير المتبادل بفترة وخلال ساعات محدودة ، ودون علم الجماهير ، وبدون توفر الوقت الضروري للمغامرة .

وبالنسبة للتوازنات الداخلية والخارجية ، فسوف تتأثر بشكل عميق ، كما ستتأثر البنيات المختلفة بحيث يصبح من المستحيل تحولها .
واخيرا الوظيفة التجريبية (للاسلحة والعتاد والتقنيات) من الصعب تصورها (١) .

(١) لم تجرؤ حتى هذه الايام اي من الدول العظمى والمتوسطة التي تملك الاسلحة النووية على استخدامها في الحروب المحلية والاقليمية التي نشبت منذ عام (١٩٥٠) في كوريا وفي مختلف القارات . وبقيت التجارب النووية محصورة في نطاق يمكن ان نسميه « مخبريا » وليس لدى البشرية اي مثال حي على آثار هذه الاسلحة الا ما نتج عن قنبلي هيروشيما وناغازاكي (المغرب) .

ومن المؤكد اننا نجد انفسنا اليوم امام جدلية جديدة ، تقوم على « الردع النووي » . ولا يزال هناك ستة مجاهيل كبيرة مخيفة هي :

- ١ - القدرة على ارهاب الجماهير .
- ٢ - قدرة السيطرة على السلطات التي بيدها القرارات .
- ٣ - خطر الطوارئ ، او الخطأ .
- ٤ - خطر انتشار الاسلحة النووية ووصولها الى ايدي غير المسؤولين المهوسين .
- ٥ - عدم ثبات آثار الردع لمدة طويلة .
- ٦ - حالة اليأس المطلق .

علم الفضاء

لقد اعطت قوة ومدى الصواريخ والقذائف العابرة للقارات ، وامكانية وضع الاقمار الصناعية في مدارات فضائية حول الارض ، اعطت للاسلحة النووية ابعادا كونية ، فقد اصبحت كل نقطة من الكرة الارضية معرضة للضرب والاصابة المباشرة القاتلة .

صحيح ان الفضاء الخارجي لا يزال حتى الان مجردا من الاسلحة النووية ، ولكن الصواريخ العابرة للقارات والاقمار الصناعية لا تتوقف ابدا عن اختراقه ، واصبح بالتالي ملعبا للاقمار الصناعية والسفن الفضائية المدمرة .

ومنذ نهاية عام ١٩٧٩ ، كان هناك ما ينوف عن (٢٠٠٠) سفينة فضائية تسبح في الفضاء فوق رؤوسنا ، واكثر من نصف هذه السفن يشبه « سيف ديموكليس » المسلط على الرقاب ، وجميعها ذات اهداف عسكرية محددة .

الديمقراطية - الاقتصادية

او المركب السكاني - الاقتصادي

لما كانت الحروب تولد اساسا من العدوان الجماعي الذي يتطور داخل

البنى الديمغرافية - الاقتصادية ، فان هناك خطرا ثالثا ينتج عن الخلل بالتوازن بين السكان والموارد .. وهذا الخطر مائل فعليا الآن ويشكل تهديدا جديا للسلام ، بسبب الخلل بالتوازن بين شمالي العالم المتطور وجنوبه الفقير الذي اصبح يضيق بالسكان منذ اربعين عاما .

ومما لا شك فيه ، ان تطور هذا الخلل الى الحدود التي لا يمكن التحكم بها ، قد يؤدي الى فيضانات بشرية مدمرة .

ويوضح الجدولان التاليان (١ و ٢) مدى تطور الخلل السكاني (الديمغرافي) في العالم .

الجدول رقم (١)

المجموع الصافي للولادات لكل (١٠٠٠) من السكان (١)

البلدان النامية (الجنوب)	البلدان المتطورة (الشمال)	الفترات
٤١	٣٨	١٨٠٠ - ١٧٥٠
٤١	٣٩	١٨٥٠ - ١٨٠٠
٤٠	٣٨	١٩٠٠ - ١٨٥٠
٤١	٣٤	١٩١٠ - ١٩٠٠
٤٠	٢٦	١٩٢٠ - ١٩١٠
٤١	٢٨	١٩٣٠ - ١٩٢٠
٤١	٢٢	١٩٤٠ - ١٩٣٠
٤٠	٢٠	١٩٥٠ - ١٩٤٠
٤٣	٢٢	١٩٦٠ - ١٩٥٠
٣٩,٢	١٩,٢	١٩٧٠ - ١٩٦٠
٣٧,٨	١٧,٢	١٩٧٥ - ١٩٧٠

وابتداء من اربعينات ، وخاصة ابتداء من السبعينات سجلت العلاقة بين القوى البشرية خلا متصاعدا ، بسبب التأثير المزدوج لهبوط عدد الولادات في البلدان المتطورة ، وتقدم الطب وانخفاض نسبة الوفيات في البلدان النامية .

(١) المصدر الذي اخذت منه هذه الاحصائيات هو المعهد الوطني للدراسات السكانية في فرنسا

بتاريخ ٤ تشرين اول ١٩٧٤ .

الجدول رقم (٢)

تطور السكان في العالم بين ١٧٥٠ و ١٩٧٥ (باللايين) (١)

التاريخ	البلدان المتطورة	البلدان النامية
١٧٥٠	٣.١	٥٩٠
١٨٠٠	٢٤٨	٧٣٠
١٨٥٠	٣٤٧	٩١٥
١٩٠٠	٥٧٣	١.٧٧
١٩١٠	٦٥٠	١.١٢٥
١٩٢٠	٦٨٢	١.١٥٥
١٩٣٠	٧٥٩	١.٢٨٥
١٩٤٠	٨٢١	١.٤٤٦
١٩٥٠	٨٥٧	١.٦٤٩
١٩٦٠	٩٧٦	٢.٠١٩
١٩٧٠	١.٠٨٤	٢.٥٣٧
١٩٧٥	١.١٣٣	٢.٨٥٥

ان هذا الخلل الذي ضاعف خطورته ظهور الثروات والتنوع الهائل بالنتائج القومي الخام بالنسبة للفرد ، سيزداد خطورة في السنوات الباقية من القرن الحالي .

وتقدر الاحصائيات ان سكان العالم في عام (٢٠٠٠) سيتراوحون بين (٦ الى ٨) مليارات نسمة ، وسيكون سكان البلدان المتطورة اقل من ١/٤ من هذا الرقم .

وان بعض الامثلة التي اختيرت من بين عشرات الدول النامية تؤكد هذا التزايد السكاني المتسارع :

(١) مصدر هذه الاحصائيات : المؤتمر العالمي للسكان الذي عقد في بوخارست عام ١٩٧٤ .

— فالجزائر التي كان تعداد سكانها في عام ١٩٥٤ حوالي ٨ ملايين نسمة ،
اصبح تعداد سكانها في عام ١٩٧٩ حوالي (١٨) مليون نسمة على الرغم
من هجرة مليون مستوطن اوروبي .

— ومصر يبلغ تعدادها في عام ١٩٧٩ حوالي (٤١) مليون نسمة ، وتصل
زيادتها السنوية الى مليون نسمة . والمرأة المصرية لها وسطيا ستة اولاد .

— وفي كينيا خلال السبعينات (١٩٧٠ — ١٩٧٩) تضاعف سكانها بنسبة
٥٠ ٪ .

— والصومال التي كان تعدادها في عام ١٩٧٩ حوالي خمسة ملايين ، اضيف
اليهم حوالي ٢٠٠.٠٠٠ لاجيء دفعة واحدة .

— وخلال عشرة سنوات سيكون هناك اكثر من (٣٠) مدينة في العالم الثالث
يزيد سكانها عن (٥) ملايين نسمة ، معظمهم تقل اعمارهم عن (٢٠) عاما .

— اما الصين فقد تجاوز سكانها المليار نسمة ، وبذلك اصبح لكل اربعة
اشخاص من العالم شخص خامس صيني ، وقد يزداد عدد سكانها في
عام (٢٠٠٠) بحوالي (٢٠٠) مليون نسمة .

وتجدر الاشارة الى ان هذا التفجر السكاني غير المتوازن ، اذا لم تتسم
السيطرة عليه سلميا ، وذلك باعادة التوازن بالقوى والموارد بين شمالي العالم
وجنوبه ، بما يشبه الطريقة التي استخدمت للسيطرة على التفجير النووي
(بما يسمى توازن الرعب ، وبتدابير اخرى لا تزال غير كافية) فانه يمثل على
المدى المتوسط والبعيد خطرا عظيما على البشرية والحضارة .

ففي عام ١٨٩٩ م كتب ماكس دوفونتون^(١) ما يلي :

« من الملاحظ منذ ابعد الاصول البشرية وحتى زمن تطور الزراعة في

(١) ماكس ايسكالون دوفونتون : اسناد البحوث في المركز القومي للدراسات والبحوث
ومؤلف البحث الذي نشر تحت عنوان : « فترة ما قبل التاريخ وعلم الحرب في جنوبي فرنسا »
في الربع الاول من عام ١٩٦٨ م .

العصر الحجري الاخير ، وظهور الاقتصاد الانتاجي بشكل عام ، ان اجدادنا في تلك الازمنة لم يكونوا يمارسون الحروب . وهذا لا يعني ابدا ، انهم كانوا افضل منا ، وانما يعني ببساطة ان اسباب الحروب لم تكن موجودة ، فتعداد البشر كان قليلا جدا ، ومفهوم « الارض » كان مجهولا ، وكانت الزوح العدوانية تقتصر فقط على البحث عن الغذاء والصيد الوفير من اجل الجميع . وابتداء من عصر التغييرات الكبرى في البيئة المحيطة بالانسان ، ابتداء التزايد السكاني في اوربا (اي حوالي ٤٠٠٠ ق.م) . واعتبارا من فترة الفيض السكاني اخذ « مفهوم الملكية العدوانية » بالظهور ، واصبح نصيب الفرد عرضة للتناقص ، في كل زيادة جديدة بعدد السكان .

وبعد ذلك بقليل بدا « عصر هجرات الشعوب والغزوات الكبرى » مما سارع ايضا بانتشار الفوضى . ولم تكن الاحداث التي شهدناها هذا التاريخ المحزن البناء للبشرية ، سوى النتيجة المنطقية لانقطاع التوازن بين الجنس البشري والبيئة الجغرافية .

وقد ولدت الحرب من انهيار التوازن بين ارض محدودة غير قابلة للتوسع ، وجنس بشري في حالة دائمة من الطوفان السكاني .

والواقع ان اول سبب للحرب لم يكن ، اجتماعيا ، بل كان بيثويا وحيويا (بيولوجيا) ، لانه الانعكاس الطبيعي لجنس نشيط في حالة التكاثر المفرط او بالاحرى التكاثر المفرط جدا » .

وفي القرن الخامس عشر ، كان « العالم » لا يزال غير مستثمرا ولا مكتشفا بكامله ، فاصبح متنفسا مضمونا لسكان القارة الاوربية الذين كانوا انذاك شديدا الاخصاب . ولكن « العالم » الذي بلغ مداه في القرن العشرين الذي يقترب من نهايته ، لن يسمح ابدا بمثل هذه الفرصة التي وجدت في القرن الخامس عشر ، من اجل اعادة التوازن الديمغرافي .

التحديات الثلاث

منذ عام ١٩٤٥ وجدت الانسانية والحضارة نفسيهما امام تحد ثلاثي الاطراف يتألف من :

– التحدي النووي .

– تحدي الفضاء .

– التحدي الديمغرافي – الاقتصادي ، الناتج عن الخلل بين السكان والموارد .

ومجموع هذه التحديات يمثل شكل التحدي الذي تطرحه الحضارة الحديثة في « العصر الديمغرافي – النووي – الفضائي » .

بقي علينا الآن ، القاء نظرة أكثر دقة ، ذات منظور تنبؤي على المخاطر العدوانية منذ عام ١٩٤٥ ومدى قدرة قادة العالم الحديث (من رؤساء دول ومعاونيهم من المدنيين والعسكريين والعلماء ، وراي عام ، وكنايس واحزاب ونقابات وشركات وطنية وشركات متعددة القوميات) على تجنب مخاطرها .



الفصل السادس عشر

التحديات العدوانية والحضارة الانسانية

السؤال الذي يتردد على السنة الكثيرين هو : هل نحن في بداية الثمانينات من القرن العشرين الذي يقترب من نهايته على شفا الهاوية من الحرب ؟ اي هل نحن في وضع مولد للحرب على المدى القريب (خلال عام واحد من هنا التاريخ) ؟ ام على المدى المتوسط (اي من هنا حتى عام ١٩٨٥) ؟ ام على المدى البعيد (اي من هنا حتى نهاية عام ٢٠٠٠) ؟ .

ان هذا السؤال على درجة عظيمة من الاهمية ، بالنسبة لكل فرد ولكل دولة ، حسبما ستكون السنين المقبلة حربا ام سلما ، لان الوجود المادي والمعنوي سيكون مختلفا تمام الاختلاف في كل من الحالتين .

وهو سؤال يمس الحالة الراهنة مباشرة : فمنذ عدة سنوات تتوقع الصحف والمجلات نشوب حرب عالمية ثالثة ، بل لقد حاول بعض الكتاب رسم الاشكال المحتملة لهذه الحرب .

وفي فجر الثمانينات عبرت أعلى السلطات السياسية والاخلاقية من مشاعرها محذرة بأن العالم يمر في وضع يهيمن عليه التهديد بالحرب .

فمنذ الصدمة النووية المفاجئة عام ١٩٤٥ تعيش البشرية حالة من القلق النووي بانتظار عام ٢٠٠٠ الذي سيشهد ابنائنا وأحفادنا ، كما سبق أن عاشت البشرية مثل هذه الحالة من القلق العظيم عند مرور عام (١٠٠٠) ميلادية .

وهناك سؤال مسبق يطرح نفسه في المشكلة موضوع البحث وهو : هل نحن على شفا هاوية الحرب ؟ وهل تنطبق كلمة « نحن » على فرنسا مثلا ؟ أم على العالم بأسره ؟ والجواب هو : ان المسألة بسيطة نسبيا بالنسبة لفرنسا ، وعلى عكس ذلك ، فهي أكثر تعقيدا بالنسبة للعالم .

فبعد ان كانت فرنسا عمليا في حالة حرب منذ عام ١٩١٤ (بداية الحرب العالمية الاولى) وحتى عام ١٩٦٢ (نهاية الحرب الجزائرية) ، أي طوال مدة ثلاثة وأربعين عاما^(١) ، فانها اليوم لا تمثل أي عامل حربي ، ليس بحد ذاتها ، ولا في علاقاتها مع جيرانها . وهي بالإضافة الى ذلك تسير على استراتيجية وسياسة تهدف للسلام والانفراج . وان صدمة الحربين العالميتين وتصفيّة الاستعمار وانخفاض عدد الولادات وضالة عدد الشباب في سن اقل من عشرين عاما (٣٦ ٪ من السكان فقط) وهشاشة الاقتصاد ، كل ذلك يساهم في نزع عدوانيتها واضعاف قوتها .

واذا لم تكن فرنسا عدوانية فهي اقل عرضة للتهديد بالانزلاق الى حرب قد تنفجر في مكان ما من الكرة الارضية ، في قلب اسيا او على شواطئ المحيط الهندي او البحر المتوسط او على امتداد الستار الحديدي ، باعتبار ان جميع المشاكل أصبحت منذ الآن عالمية وكونية .

والسؤال الاساسي الذي يجب طرحه هو اذن : « هل العالم في كانون الثاني من عام ١٩٨٠ يقف على حافة الحرب » ؟

ونظرا لعدم وجود حرب ، حتى ولا عنف سياسي بدون عدوانية جماعية ، فان تصعيد العنف لنا الآن وكأنه المشكلة المركزية . فبعد ان شاهدنا أولا طريقة التصعيد العام للعنف ، ثم تطبيقه منذ عام ١٩٤٥ - أي منذ بداية العصر النووي - الفضائي - سنتمكن من القيام بعملية استطلاع او سبر لآخطار تصعيد العنف المنتظرة خلال السنوات العشرين المقبلة .

(١) مع اخذ فترة السلم التي يبلغ طولها خمس سنوات بعين الاعتبار ، وهي الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٤ (نهاية العمليات في المغرب) وعام ١٩٢٩ (بداية الحرب العالمية الثانية) .

الأساليب العامة لتصعيد العنف الجماعي

كان للحرب في مختلف العصور أسباب متعددة ، فهي في وقت واحد ،
طارئة وسببية وبنوية ... وهذه الأسباب الأخيرة (الديمغرافية - الاقتصادية ،
والاجتماعية والسياسية والتاريخية والجغرافية والعقلية) ، هي الأكثر أهمية ،
لان العدوانية الجماعية التي تبرز في العنف السياسي الذي يعتبر جرثومة
الحروب ، انما تولد وتنمو في البنى الأساسية للمجتمع .

والحقيقة ان مستوى العدوانية الجماعية يحدد مستويات النزاعات
السياسية ، ويمكننا في هذا البحث ان نميز ستة مستويات تمثل الوحة
رقم (٣) (التي يجب ان تقرا من الاسفل الى الاعلى حسب تصاعد العنف
السياسي) :

١ - اذا لم تكن العدوانية موجودة او في حالة كونها خاضعة تماما للسيطرة ،
نكون امام حالة من النزاعات التحتية الصغيرة لا ينتج عنها اية خسائر
(كازمة كوبا عام ١٩٦٢ ، والخلل بالتوازن الاقتصادي العالمي ، وازمة
البترول منذ عام ١٩٧٣ ، او الخلل في البنيات الديمغرافية - الاقتصادية
العالمية .

٢ - اذا كانت العدوانية تنفجر بالعنف ، واذا كان هذا العنف ضعيفا او
محليا او محدودا ، تنتج عنه خسائر محدودة ، فاننا نكون حيال عدد
كبير من النزاعات التحتية الصغيرة داخل الدول او بين الدول كما هي
الحال في حوادث الحدود ، والمجابهات الدموية ، واعمال الانصار المتفرقة ،
والاعمال الارهابية .

وقد سجل المعهد الفرنسي لعلم الحرب ، وحلل وشرح اكثر من
(٦٠٠٠) حادث عدواني ، منذ كانون الثاني عام ١٩٦٨ حتى كانون الاول
عام ١٩٧٩ .

٣ - اما اذا اخذت العدوانية ابعادا اكثر اهلية وتوترا فدا ، دون ان يصل
ذلك الى حد الحرب ، فاننا نجد انفسنا في هذه الحالة امام نزاعات

متوسطة ، أو اضطرابات مزمنة ، ومع ذلك فإن العنف يبقى محدودا
ومحليا كاضطرابات ايرلندا الشمالية ، أو اضطرابات بلاد الباسك الاسبانية
والصحراء الغربية .

٤ - وعندما يتفجر العنف السياسي ويمتد بالزمان والمكان ، وتتحول الجماعات
المتخاصمة محليا بشكل لا يمكن تبديله ، من حالة الى عالم الحرب ، دون
ان يصل ذلك الى اعلان الحرب فعليا ، فان الوضع الذي ينشأ في مثل
هذه الظروف ، انما هو نوع من الحروب المحلية (مثل الحرب الكورية)
او الحروب الداخلية (مثل حرب بيافرا) او الحروب المختلطة اي حرب
داخلية مع تدخل دولة اجنبية (مثل حرب بنغلاديش ؟ او اضطرابات
او ثورات (مثل ثورة ايران ١٩٧٨) .

٥ - حروب يمكن ان تأخذ دفعة واحدة او تدريجيا بعدا عالميا كحرب عام
١٩١٤ و حرب عام ١٩٣٩ .

٦ - واخيرا ، اذا كان العنف السياسي يتجاوز العتبة النووية ، تصبح الحرب
بتدخل وقرار القوى النووية : حربا نووية او بيولوجية او كيميائية (ينتج
عنها خسائر رهيبة تعد بالملايين .

تصاعد العنف يمكن ان يكون تدريجيا او شرسا او وحشيا

يولد العنف السياسي بشكل عام ، في البنيات ، وينمو بشكل متدرج
ومتواصل ، بالانتقال من مستوى الى مستوى اعلى ، بعد ان يجتاز مرحلة
انتقالية متوسطة . كما يمكن ان يتصاعد العنف بفظاظة وبشكل متقطع ، دون
المرور بمستويات متوسطة .

وهكذا رأينا ان الحرب الاهلية اللبنانية ، والثورة في ايران سبقتها عدة
سنوات من التوتر ، اخذت تتصاعد خلالها عدد وكثافة الصدامات الصغيرة ،
بلا انقطاع .

ويمكن للعنف السياسي احيانا ان يقفز مباشرة بتصعيد فجائي ودون

انذار متدرج ، فيشمل جميع المستويات . ففي عام ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الاولى دون ان يسبقها نزاعات تحتية صغيرة منلرة .

وفي عام ١٩٦٢ كان يمكن لازمة الصواريخ السوفياتية في كوبا ، التي لم تكن سوى نزاع تحتى بسيط ، ان تنفجر مباشرة بتصعيد شامل وتتحول الى حرب نووية .

والحروب المحدودة والحروب المحلية أيضا تولد عموما من النزاعات الصغرى المنلرة ، كما يمكن ان تنشب أحيانا دون ان تسبقها أية اضطرابات .

والحرب الكونية الثالثة ، التي قد تصبح نووية بدون شك ، يمكن ان تنفجر نتيجة لتطور حرب محدودة او اقليمية ، كما يمكن ان تنفجر مباشرة بسبب تعدد واشتداد خطورة النزاعات الصغيرة ، او بدون انذار مطلقا .

وفي حالة وجود الانذارات (أي النزاعات التحتية الصغيرة او الحروب المحلية) فان باستطاعتها السماح للسلطات المسؤولة ، بأن تسيطر على الازمة وان تخمد العنف بتدابير سياسية خاصة ، شريطة ان تكون هذه السلطات واعية ولديها الارادة والقوة الضروريتين ، ذلك لان السلام ، قبل كل شيء ، عمل سياسي قائم على التوازن .

اما في حالة غياب هذه الانذارات ، فان السلطات المسؤولة تملك المصدور لمراقبة صعود مجمل العدوانية المتبادلة في البنيات المختلفة والنزاعات التحتية كازمة البثرول او النزاعات التحتية الصغيرة كالارهاب في ايران ، وذلك بتدابير انفراج سياسية ، من أجل اخمد تصاعد العنف في الوقت المناسب .

تصاعد العنف منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٩

منذ ان دخل العالم في العصر النووي - الفضائي عام ١٩٤٥ ، امكن السيطرة على الوضع المتفجر بواسطة عدد من الوقائع اهمها كما نعتقد هي :

- الواقع النووي .
- الخصومة الايديولوجية والسياسية - العسكرية ، وعدم الانسجام بين الشرق والغرب .

- النزاع السوفياتي - الصيني .
- حروب التحرير ضد السلطات الاستعمارية (نزاعات تصفية الاستعمار وما بعد الاستعمار) .
- بروز ما يسمى بالعالم الثالث ، وسكون ما يمكن ان يسمى بالعالم الرابع .
- انتشار الحروب الداخلية ، وتزايد التدخل الخارجي في هذه الحروب .
- يقظة المشاعر الدينية وخاصة في البلدان الاسلامية التي هيجتها العداوات القومية ، والاجتماعية والاقتصادية منذ عام ١٩٤٧ .
- ازدياد أهمية الطلاب (عام ١٩٦٨ في اوربا والولايات المتحدة الامريكية ، و عام ١٩٧٩ في ايران وفي تركيا) (٥) .
- انطلاق الحركات القومية .
- وكان اول خطر تمت السيطرة عليه هو « الواقع النووي » لانه منذ ان ادركت البشرية القوة التدميرية للذرة في عام ١٩٤٥ ، وهي تتصور الرعب النووي الممكن في عام (٢٠٠٠) م .
- ونتيجة للخطر النووي ، وتوازن الرعب بين القوى العظمى ، فان العنف الجماعي ، الذي كان في الماضي يتحول بين فترة واخرى الى حروب اجنبية ، اخلت في اعوام ١٩١٤ و ١٩٣٩ ابعادا عالمية ، هذا العنف مكبوح الآن بهذا الاتجاه .

(١) النزاعات التحتية : عدوانية غير قائمة (وغير معلنة) لم تتجاوز العتبة (١) للعنف السياسي

(٢) النزاعات الصغيرة جدا : هي عدوانية ضعيفة ، محدودة ومحلية ، متفرقة ، وخسائرها ضئيلة وآثارها ضعيفة ايضا ، تجاوز عتبة العنف (١) بين ١٩٦٨ حتى كانون اول ١٩٧٩ تعدادها (٦٠٠٠) حادث .

(٣) نزاعات متوسطة : هي نزاعات مزمنة ذات آثار سياسية هامة وخسائرها بارزة تجاوزت عتبة العنف (ب) .

(٤) نزاعات كبرى : هي عنف منظم ، اسبغت عليه القدسية ، يتضمن عمليات عسكرية هامة ، ويكلف خسائر فادحة بالارواح ، وتجري فيه مجازقات رئيسية خطيرة .

ملاحظة : النزاعات المسلحة العظمى = حروب + نزاعات متوسطة .

(٥) برزت أهمية الطلاب لأول مرة في ظروف مختلفة اثناء الحركات الوطنية والليبرالية بعد عام ١٨١٥ .

اللوحة رقم (٣)

بعض الامثلة عن النزاعات السياسية في نهاية عام ١٩٧٩ ومستوياتها:

نقاط متطورة	(حروب أ. ب. ج. ح. د. هـ) (١)	لا غسي
أنس أنواع النقاط :	(حروب شاملة عالمية كحرب ١٩١٤-١٩١٨ و ١٩٣٩-١٩٤٥)	لا غسي
نقاط كبيرة	(حروب محلية وسعدودة) - حروب أجنبية - حروب مختلطة (بقتل أهل أجنبي) - حروب أهلية (ج. د. هـ)	- الحرب المصيرية الإسرائيلية الراهبة ١٩٢٣ - حرب لبنان ١٩٢٥ - حرب اثيوبيا ١٩٦٩ - حرب أفغانستان ١٩٧٩ - ثورة إيران ١٩٧٨
نقاط متوسطة	(وسط بين النقاط الصغيرة) (العرب المحلية) (ب. ج. د. هـ)	وجميعها داخل الدول تفاد بلاد الهامك الاسبانية وأيرلندا الغالية والصحراء الغربية
نقاط صغيرة جدا	- داخل الدول - خارج الدول (٢) (ج. د. هـ)	هناك أمثلة عديدة : - أمريكا الجنوبية - أرواب طهران - الأرواب في آسيا الغربية - حروب صابات - مجاهبات متنوعة
نقاط تحتية صغيرة	(١)	- ليس نقدية - أزمة البترول (١٩٧٣) - الطل بالتوازن السكاني والاقتصادي - النزاع السوفيتي - الصين - الخصبة من الشرق والغرب - توازن القوا
مستويات النقاط	أمثلة وقعت في نهاية ١٩٧٩	

- (١) القواعد الخمسة : عدوانية غير قائمة (وغير معلنة) لم تتجاوز العتبة (١) للمنف السياسي .
(٢) القواعد الصغيرة جدا : هي عدوانية ضعيفة محدودة وعلوية متفرقة ونساعدها ضعيفة وأثارها ضعيفة أيضا .
(٣) تجاوزت عتبة المنف (١) من ١٩٦٨ حتى كانون أول ١٩٧١ بلغ تعدادها (٦٠٠٠) حالات .

والواقع ان كلا من القوتين النوويتين العظيمتين - الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي - أصبحت تتحاشى المجابهة المباشرة ، مما ادى الى صيانة مراكزها الحيوية والمناطق التي تخضع لحمايتها .

ومنذ ذلك الوقت أخذ العنف الجماعي اربعة اتجاهات ثانوية سالكا اساليب اربعة :

١ - جغرافيا : في المناطق الهامشية حيث يمكن للاستراتيجية غير المباشرة ان تطور مصالحها ، وتحسين مواقعها ونستثمر النزاعات لمصلحتها ، مع ابقائها محدودة لتحاشي احتمالات التصعيد النووي . ومن هنا جاءت الحروب المحلية المحدودة في جنوب شرقي اسيا والشرق الاوسط وافريقيا . وجميع هذه المناطق تعتبر من الناحية الجغرافية السياسية مناطق هامشية .

٢ - قطاعيا : بواسطة استراتيجيان ، اقتصادية وثقافية ، غدت في السنوات الاخيرة اكثر حدة ، خاصة وان المجابهات العسكرية يصعب تطويرها دون الانزلاق الى المخاطر المهلكة .

٣ - جعله (أي العنف) داخليا : نظرا لان معظم حدود الدول الناشئة تم تخطيطها من قبل الاستعمار فانها تبقى في حالة هشاشة شديدة الحساسية بعد تصفية الاستعمار ، وفي بعض الاحيان يمكن اعتبارها حدودا مؤقتة ، ومصدرا للنزاعات الدموية بين الدول الحديثة ، لهذا أصبح بالامكان استغلال هذه النقطة الحساسة واستغلال نزاعات هذه الدول تحت اشكال جديدة (سياسية - اقتصادية) بدلا من التدخل العسكري الوقع الذي كان يستخدمه الاستعمار القديم وبهذا الاسلوب يمكن الوصول الى تبديل الانظمة والحكومات واشعال النزاعات ثم تهدئتها في الوقت المناسب قبل ان تصبح مهددة للمصالح .

٤ - اخيرا تجزئة وتصغير النزاعات : فالتدخل الاجنبي ، والحروب المحلية ، والاضطرابات ، والحروب الاهلية والارهاب ، كلها اساليب او مظاهر

لتجزئة العنف يمكن استخدامها بالاستفادة من الردع النووي الذي يعتبر ضماناً ضد التصعيد وتحول النزاعات الى حروب عالمية كما حدث عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٩ .

ومنذ عام ١٩٧٢ ، أصبح الارهاب الواقع المعبر الاكثر اهمية بين أشكال النزاعات التحتية الصغرى ، ومن امثال هذا الارهاب المعبر : احتلال السفارة الامريكية في طهران ، واحتجاز الرهائن من قبل الطلاب المسلمين (الذين تغطيتهم السلطة) بتاريخ ٤ تشرين ثاني ١٩٧٩ . هذا الحادث الذي اعطى للارهاب بعداً جديداً : وهو الارهاب الذي تمارسه الدول ضد بعضها والذي تترتب عليه نتائج مرعبة .

وفي الحروب الداخلية بشكل خاص ، والحروب الخارجية احياناً ، التي وقعت في الفترة بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٧٩ ، كان هناك القليل من المعارك نسبياً ، والكثير من المجازر والهجمات ، كما حدث بالفعل خلال الحروب المأساوية في بيافرا وبنغلاديش وكمبوديا (١) .

اما الوقائع الاخرى التي هيمنت على تطور النزاع في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، فهي التنافس بين الغرب والشرق او بين الاتحاد السوفياتي سيدة القارة وقلب الارض ، وبين الولايات المتحدة الامريكية سيدة البحار بلا منازع ، والنزاع الصيني السوفياتي ، والنزاعات الاستعمارية وما بعد الاستعمار ، وبروز العالم الثالث ، وسكون العالم الرابع .

وجميع هذه الوقائع لا تزال ماثلة في الازهان . ونحن نكتفي في بحثنا بالاشارة احصائياً الى تفوق النزاعات الداخلية وازدياد التدخلات الاجنبية (اللوحة رقم ٤) .

(١) مرة اخرى يتجاهل المؤلفون عمداً مأساة الشعب الفلسطيني التي بدأت منذ عام ١٩٤٧ ، ولا تزال تزداد مأساوية حتى يومنا هذا ، والتي سببت في تشريد مئات الالوف من العرب الفلسطينيين خارج بيوتهم ، وهم يتعرضون كل يوم للغارات الاسرائيلية الجوية والبرية والبحرية في مخيماتهم بين الحين والآخر ويتكبدون العشرات من القتلى في كل يوم (العرب) .

فمنذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٤٥ ، كان عدد الحروب الخارجية اكثر بقليل من الحروب الداخلية ، ولم تكن التدخلات الاجنبية في الحروب الداخلية ، تحدث الا في حالة من خمسة .. ، اما في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، فكان عدد الحروب الداخلية ضعف الحروب الخارجية ، وقد حدث التدخل الخارجي في نصف هذه الحروب .

ولهذا فان الحروب الداخلية (من امثال حرب بنغلاديش ولبنان) تنطوي على مخاطر حقيقية للتصعيد .

اللوحة رقم (٤)

طبيعة النزاعات المسلحة الرئيسية للفترة الواقعة بين ١٧٤٠ و ١٩٧٩

عدد النزاعات الكبرى التي وقعت فيها تدخلات اجنبية	منها		عدد النزاعات الرئيسية المسلحة	الفترة
	داخلي	خارجي		
٢	٢٣	١٨	٤١	١٧٩٩ - ١٧٤٠
١٧	٨٧	٨٦	١٧٣	١٨٩٩ - ١٨٠٠
٧	٣٢	٥٠	٨٢	١٩٤٤ - ١٩٠٠
١٥	١٥	٥٣	٦٨	١٩٧٤ - ١٩٤٥
٦	٢	١١	١٣	١٩٧٩ - ١٩٧٥
٤٧	١٥٩	٢١٨	٣٧٧	المجموع

اوضاع النزاعات الدولية في مطلع عام ١٩٨٠

قبل ان نحاول التنبؤ بنزاعات المستقبل ، يجدر بنا القاء نظرة فاحصة

على الوضع التنازعي العالمي في بداية عام ١٩٨٠ (يرجى الرجوع للوحة رقم ٣) ،
التي تصور بشكل اجمالي النظام التصاعدي للعنف :

ففي نهاية عام ١٩٧٩ كان في العالم اربعة حالات من الاضطرابات الخطيرة
او النزاعات التحتية وهي :

١ - الاضطراب الاقتصادي العالمي الذي بدأ يذر قرنه منذ نشوب حروب
رمضان عام ١٩٧٣ وبداية أزمة البترول .

٢ - الخلل بالتوازن الاقتصادي - الديمغرافي العالمي (التعارض بين الشمال
والجنوب) .

٣ - التنافس الحاد بين الشرق والغرب .

٤ - العداوة البنيوية بين الصين والاتحاد السوفياتي .

هذا بالإضافة الى النزاعات الداخلية في ايران (١) ، وافريقيا الجنوبية ،
والنزاعات الداخلية الاخرى في عدد من الدول (مجابهات دموية ، عمليات
افرادية للانصار ، واعمال ارهاب افرادية ... ٤ .

وقد امكن بالفعل رصد حوالي (٣٦) حادث اضطراب داخلي خلال شهر
كانون الاول من عام ١٩٧٩ وحده وتتضمن الانواع التالية :

(٦) ستة عمليات انصار .

(١٨) ثمانية عشر عمل ارهابي .

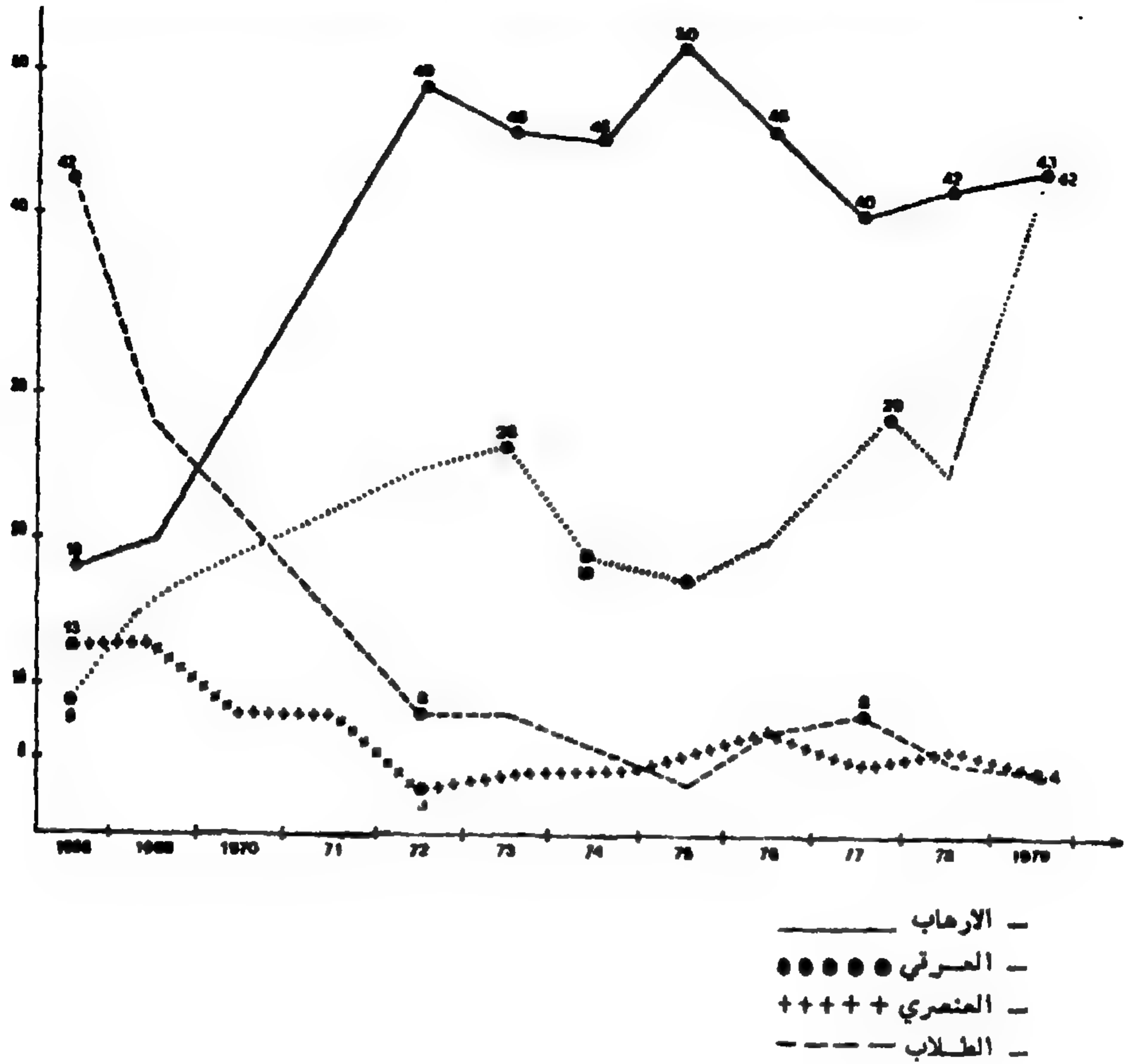
(١٢) مجابهة من انواع مختلفة .

ومنذ عام ١٩٧٢ تمثل عمليات الارهاب حوالي ٤٠ - ٥٠ ٪ من النزاعات
التحتية بين الدول . منها :

(١) لم تكن الحرب العراقية - الايرانية التي يستعراواها منذ ٢٣ ايلول ١٩٨٠ ومن الصعب
التنبؤ بنهايتها ، قد نشبت بعد صدور هذا الكتاب ، وهي من نوع الحروب بين الدول التي تتعرض
في كل دقيقة للتدخلات الخارجية ، بل وهناك احتمالات كبيرة لان تتسع وتشمل دولا اخرى من
المنطقة او خارجها (العرب) .

اللوحة رقم (٥)

وتمثل بعض ظواهر العنف السياسي بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٩ (بالنسبة المئوية)



- اربعة نزاعات متوسطة جميعها داخلية (تشاد ، بلاد الباسك الاسبانية ،
ايرلندا الشمالية ، الصحراء الغربية) .
- ستة حروب محلية (الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، التي لا تزال
مفتوحة حتى الآن ، الحرب اللبنانية ، الثورة الايرانية (١) ، الحرب
الافغانية ، الحرب الكمبودية ، الحرب الارترية) .

(١) والتي تحولت الى حرب ايرانية عراقية .

ومن الجدير بالذكر ان النزاعات التحتية الصغيرة ، والنزاعات المتوسطة والحروب المحلية ، ليست موزعة على سطح الكرة الارضية بمجرد الصدفة ، فمنذ عام ١٩٤٥ وهي تتكثف فوق بعض الخطوط والجبهات العدوانية الجماعية.

جبهات العدوانية الجماعية

يبدو ان هناك جبهات عدوانية ، كما يوجد في الطبيعة :

- جبهات مناخية ، ونباتية .
- وجبهات رصد جوية ، وهذه اقل استقرارا كجبهات الرياح الموسمية .
- جبهات زلزالية (التصدمات العظمى التي اصابته قشرة الارض) .
- وهذه الجبهات المختلفة هي المكان المفضل للصراعات والمجابهات والاضطرابات والثورات .
- اما الجبهات العدوانية فهي اقل وضوحا ولكنها حقيقية ايضا ، وفيها يمكن ان تتفجر مظاهر العنف الداخلية والدولية ومن هذه الجبهات :
- الجبهات العرقية والقومية .
- والجبهات الايديولوجية والسياسية - الاقتصادية .
- وجميعها وليدة التطورات والاحداث التاريخية ، وغالبا ما تعود فتنشط تبعا للظروف . وهي على نوعين : جبهات دولية (تشمل جغرافيا عدة دول) تتجاوز القارات فتغطي بعض الدول او تفصلها عن بعضها ، وجبهات داخلية مسببة انقسام الدول .

وعلى اساس المفهوم الحديث للجبهات العسكرية ، فان الجبهات العدوانية ليست متصلة وتمثل شيئا من العمق : وفيما عدا ذلك فان مؤخراتها تتميز دائما بالبؤر العدوانية (الاضطرابات ، وحروب الانصار) ، كالجبهة العرقية الداخلية « السوداء » في الولايات المتحدة الامريكية .

وبالرغم من كون هذه الجبهات من صنع الطبيعة والتاريخ والبشر ، ككل الحقائق البشرية ، الا انها بنفس الوقت متحركة قابلة للانتشار ، ومتغيرة في حالات انفجارها ونشاطها .

فقد تكون في ذروة نشاطها في معظم مراحل تطورها ، وحيانا اخرى يقتصر

نشاطها على بعض اجزائها ، وفي بعض الاحيان يمكن ان تكون هادئة في الجبهة والعمق ، ولكن هدوء هذه الجبهات يشبه الى حد سكون البراكين التي يمكن ان تدخل من جديد في طور النشاط الجزئي او الشامل ، ويتوقف ذلك على قوة الشحنة العدوانية التي تكمن فيها .

وفي العصور القديمة كانت جبهات العدوان على الاشكال التالية :

— جبهات تتجه من الشمال الى الجنوب تسير اتجاهات الخطوط الارضية البارزة (كالانهار والجبال) التي تفصل سهول الهجرات والغزوات العظمى في الفياقي الاورو — اسيوية (مثل خط نهر الرين ، وخط نهر الفيستول ، وخط نهر الفولغا) .

— وجبهات تتجه من الشرق الى الغرب ، تشير الى المجابهات التاريخية بين الشمال والجنوب (في فترات انطلاق الشعوب نحو الاراضي الجنوبية او الشمالية ذات الموارد الفائضة) .

وتتميز الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩ بالتأرجح الواضح في جبهات العدوان ، حسب تبدل مراكز القرارات السياسية ، ويمكن ان نميز فيها مرحلتين رئيسيتين :

— المرحلة الاولى بين ١٧٤٠ و ١٩٤٥ ، وتنطبق على الفترة التي ساد فيها التفوق الاوربي والتوسع الاستعماري .

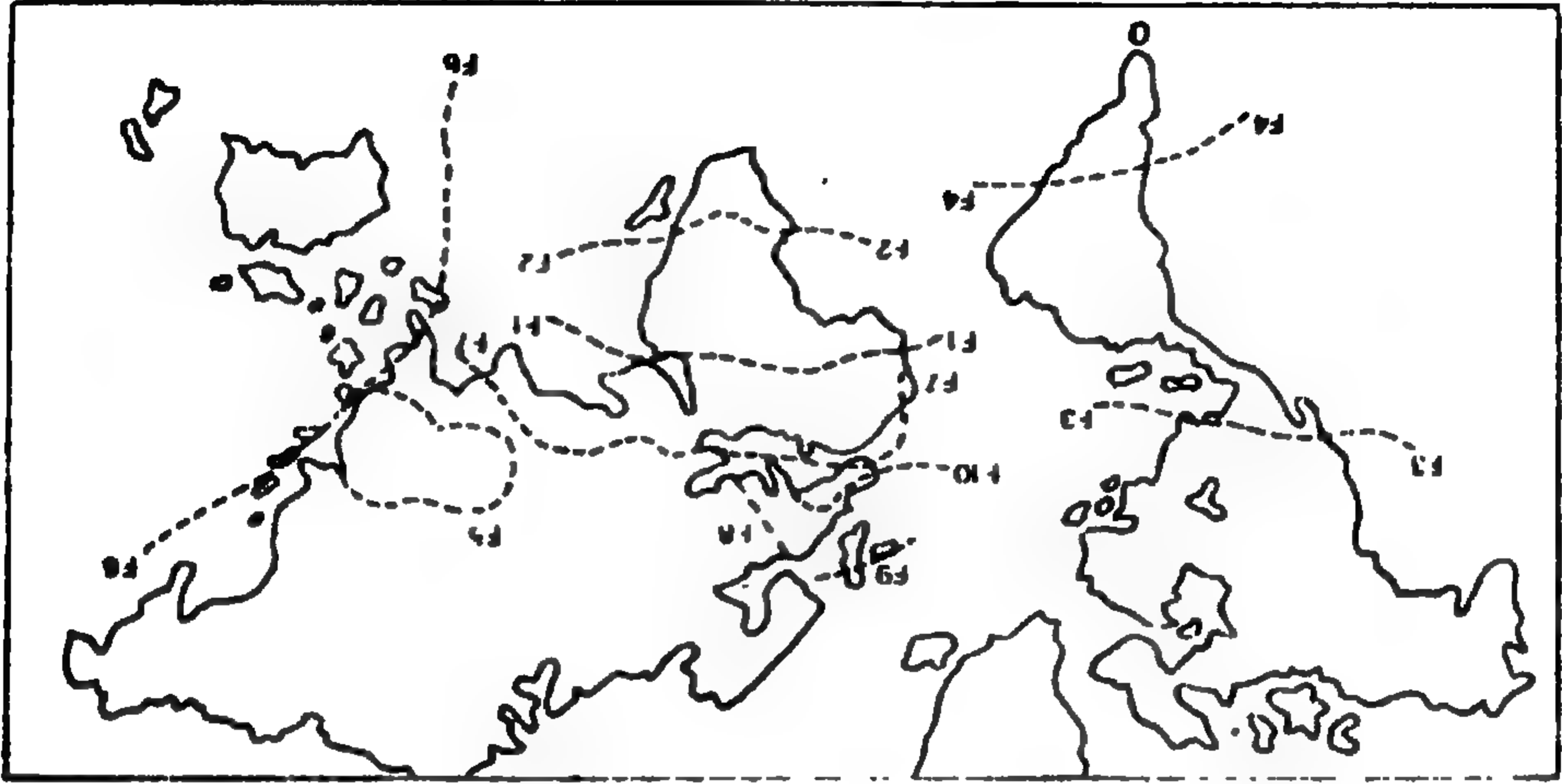
— والمرحلة الثانية بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، وتنطبق على الفترة التي برز فيها العالم الثالث وشملته حالة من عدم الاستقرار .

أبتداء من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٩ حدثت اعادة لتوزيع جبهات العدوان ، ترجع اسبابها لضعف اوربا الغربية وبروز العالم الثالث كقوة جديدة ، وترتب على ذلك اختفاء الجبهة الاطلسية والجبهات الاسيوية والافريقية القديمة التي كانت مرتبطة بالاستعمار .

اما الجبهات الاخرى فقد تبدلت نتيجة للتوازن الجديد الناتج عن الحرب العالمية الثانية ، وصعود حركة تصفية الاستعمار .

واللوحة رقم (٦) تشرح بدقة جبهات العدوان النشيطة في الفترة الواقعة
بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ :

اللوحة رقم (٦)



واذا رجعنا الى الحروب الاجنبية والداخلية في نصفي الكرة الارضية
والنزاعات الجزئية بين الدول (كحوادث الحدود) او النزاعات الداخلية ، التي
تم رصدھا منذ عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٧٩ لوجدنا انھا كانت تدور بشكل ظاهر
فوق عشرة جبهات هي :

- جبهة شمال افريقيا (F. 1) بين افريقيا الوسطى السوداء ، وافريقيا
الشمالية الاسلامية البيضاء .
- جبهة جنوب افريقيا (F.2) بين افريقيا الوسطى السوداء وجنوب
افريقيا البيضاء .
- جبهة شمال امريكا (F.3) بين امريكا الشمالية البيضاء ، وامريكا
الوسطى والجنوبية .

ـ جبهة جنوب امريكية (F.4) ، شديدة التعقيد عبر نصف القارة
الامريكية الجنوبي .

ر جبهة صينية (F.5) تحاذي الصين .

ـ جبهة جنوب اسيوية (F.6) تمتد من استراليا الى اليابان ، مارة
عبر الارخبيلات واشباه الجزر في جنوب شرق اسيا .

ـ جبهة افريقية اسيوية (F.7) بين العالم العربي الاسلامي ، والاجناس
البيضاء الاخرى من جبل طارق غربا الى الهند شرقا .

ـ جبهة شرق اوربية (F.8) بين العالم الشيوعي والعالم الغربي (الستار
الحديدي) .

ـ جبهة شمال ارلندية (F.9) عبر ايرلندا الشمالية .

ـ جبهة غرب اوربية (F.10) تأخذ اوربا الغربية بشكل موارب .

وكانت جميع هذه الجبهات بالتتابع ، جبهات عرقية وقومية واجتماعية ـ
اقتصادية ، وايدولوجية .

وكان الى جانب هذه الجبهات ، جبهات اخرى ثانوية في داخل عشرات من
الدول (كالجبهة الداخلية السوداء في الولايات المتحدة) تستطيع خلق اضطرابات
نشطة وعامة ، كالنزاعات القومية والدينية والايدولوجية التي عرفتها اوربا
خلال تاريخها .

ويذكرنا هذا « المفهوم » لجبهات العدوان ، الذي هو عبارة عن فرضية
اوجدها « علم الحرب » ، بالملاحظات الهامة التالية :

ـ على الرغم من عالمية وشمولية المشاكل ، فقد اخذت جبهات العدوان منذ
عام ١٩٤٥ بعدا قاريا او بالاحرى وجهة عامة غرب ـ شرق ، وفق
متوازيات تجتاز او تفصل القارات ، بعد ان كانت مجزأة متفرقة بين عام
١٧٤٠ حتى عام ١٩٤٤ .

– وبينما كانت جبهات العدوان قبل عام ١٩٤٥ ، من قارة الى اخرى ، بل وفي نفس القارة مستقلة نسبيا ، فقد اصبحت الآن متشابكة مع تصاعد العالمية ، وهكذا اصبحت تطور ونشاط جبهة ما مرتبط تمام الارتباط بالجبهات الاخرى ، وخاصة بالجبهات المجاورة .

وتجدر الاشارة الى ان جبهات العدوان في نهاية عام ١٩٧٩ كانت كما يلي :

– الجبهة الافريقية الشمالية في جزئها الاوسط (تشاد) والشرقي (اثيوبيا) .

– الجبهة الافريقية الجنوبية (ناميبيا ، وجنوب افريقيا) .

– جبهة شمال امريكا (سان سلفادور) .

– جبهة جنوب شرق اسيا (فيتنام – كمبوديا) .

– جبهة شمال ايرلندا (الارهاب) .

– جبهة غرب اوربا (الارهاب في اسبانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا الغربية) .

– وبشكل خاص ، الجبهة الافرو – اسيوية (الصحراء الغربية ، اسرائيل ، لبنان ، ايران (١) ، افغانستان .

وهكذا نرى انه منذ عام ١٩٤٥ تفجرت سبعة جبهات عدوانية من اصل عشرة . وانفردت جبهة جنوب امريكا ، والجبهة الصينية ، والستار الحديدي ، بالنشاط عدة مرات ، ثم عرفت فترة من الخمود في نهاية عام ١٩٧٩ ، كما هي الحال بالنسبة للبراكين .

مخاطر التصعيد المحتملة في الفترة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠

تعتبر ظاهرة « الحرب » من اشد الظواهر الانسانية – الاجتماعية

(١) والعراق بعد ايلول ١٩٨٠ منذ نشوب الحرب بين ايران والعراق .

والسياسية تعقيداً ، ولا يوجد أي مجال للتخمين والتنبؤ في هذا الميدان ؛
فالحرية الانسانية بالنسبة للشعوب والرجال الذين يتخذون القرارات ،
بالإضافة إلى تعقيد التفاعلات بين المجموعات البشرية ، والظهور المفاجيء المحتمل
لبعض المخترعات الجديدة التي يمكن أن تؤدي إلى تغييرات عميقة ، كما حدث
عام ١٩٤٥ ، كل ذلك يجعل المستقبل محفوفاً بالشكوك والفموض .

لذا فإن « عملية البحث » لاستطلاع المستقبل ، هي وحدها الشيء المقبول
شريطة أن يرافقها الكثير من الدقة والحذر .

والاستقبالية أو العلم الذي يدرس الاسباب العلمية والاقتصادية
والاجتماعية التي تدفع تطور العالم المعاصر ، والتنبؤ بما سيكون عليه ، بالمستقبل
ويحدد العوامل التي تسهل أو تعرقل مختلف الفرضيات الممكنة ، هو الوسيلة
الوحيدة الممكنة للبحث عن المستقبل .

الافاق المحتملة (هـ + ٢٠)

لكي نبين ضرورة الحذر الشديد عندما نحاول تحديد الافق هـ + ٢٠ ،
(وهذا يعني في الحالة الراهنة - من عام ١٩٨٠ - إلى عام ٢٠٠٠) يمكن ايراد
ثلاثة امثلة قديمة معبرة : احتمالات الافق هـ + ٢٠ ، أولا في عام ١٨٩٩ ،
ثم في عام ١٩٢٥ ، واخيرا في عام ١٩٥٩ .

ففي عام ١٨٩٩ ، أي بعد معركة فاشودا ، وفي الفترة التي نشبت فيها
حرب البوير (١) ، كان من الممكن تصور حرب فرنسية - المانية ، وحتى حرب
اوربية شاملة . . . ولكن كيف كان بالامكان تصور شكل هذه الحرب والشخصيات
البارزة التي ستقودها وتعارضها ، والثورة الروسية والوضع الذي سيكون
عليه العالم الذي سينقلب رأساً على عقب في عام ١٩١٩ ؟ .

وفي عام ١٩٢٥ ، أي في الفترة التي كانت فيها اوربا تؤمن السلم ، وعندما
كانت المانيا تشهد اعظم انهيار اقتصادي في تاريخها كيف كان من الممكن تصور
نشوب حرب عالمية ثانية ، وتصور الحروب المحلية التي ستمهد الطريق لها ،
والوضع الذي سيكون عليه العالم في عام ١٩٤٥ ، والذي انقلب وتحول من
جديد ؟ .

وفي عام ١٩٥٩ ، اي بعد عامين من تاريخ اطلاق اول قمر صناعي (سبوتنيك) حيث كانت تسود الحرب الباردة ، وحيث تستمر عملية تصفية الاستعمار ، كيف كان من الممكن تصور الامور الهامة التالية :

- التفجر السكاني .
- الغزو المتسارع للفضاء .
- النزاعات التي تلت مرحلة تصفية الاستعمار ، حول المخلقات والسلطة الاستعمارية ، والتي ستمزق الدول الحديثة الاستقلال من بياfra الى فيتنام .
- صعود قوة الاتحاد السوفياتي ، وتدهور قوة الامبراطورية الامريكية .
- توتر الوضع على الحدود الاسيوية - السوفياتية .
- ثورة المشاهير الدينية .
- الازمة الاقتصادية العالمية .
- ازمة الطاقة وتدفق البترول .

كل هذه الامور ، عبارة عن وقائع عظيمة الخطورة ، من الصعب التكهن بحدوثها ، او على الاقل معرفة آجال حدوثها ، وهي بالذات التي ستعطي لعام ١٩٧٩ وجهه الجديد .

كيف اذن يمكن الاجابة على السؤال التالي :

هل العالم اليوم في وضع قابل للانفجار ؟

وما هي التهديدات بالحرب خلال العقدين القادمين ؟

ومن اجل الوصول الى الجواب الصحيح لا بد من امتلاك الوسيلة التي يمكن ان تسمح لنا بالتنبؤ بالحروب او ما يمكن ان يسمى بـ «مقياس ضغط الحروب» يفوق بدقته وتعقيده مقياس الضغط الجوي والمقاييس الاجتماعية - الاقتصادية .

تغير ان هذا الجهاز الذي نسعى لايجاده ، لم يتم انجازه حتى الان ، لذلك فان الوسائل المتنوعة المتوفرة الآن لا تسمح لنا الا بوضع بعض الفرضيات على المستوى المتوسط المدى اي من هنا حتى عام ١٩٨٥ .

ومع ذلك يمكن تقديم بعض العناصر الصالحة للاجابة ، تستند من جهة على اسلوب تصعيد العنف ، ومن جهة اخرى على التصعيد الذي حدث بالفعل بين عام ١٩٤٥ و ١٩٧٩ .

فمن الملاحظ اولا ان العالم في مطلع عام ١٩٨٠ هو في وضع اكثر من متفجر ، لانه يشهد ، كما راينا ، بالفعل ستة حروب محلية ، علما بانه منذ عام ١٧٤٠ لم يكن هناك سنة واحدة بدون حرب .

ومما لا شك فيه انه منذ بدايات البشرية ، او على الاقل منذ العصر الحجري ، لم يكن هناك الا سنوات قليلة بدون حرب . وان كثافة الحروب (الخسائر بالقتلى من العسكريين والمدنيين) لم تتوقف عن الازدياد :

— ففي حروب الثورة الفرنسية والامبراطورية بين ١٧٩٢ و ١٨١٥ بلغت الخسائر مليونان من القتلى .

— وفي الحرب العالمية الاولى بلغ عدد الخسائر بين ١٩١٤ و ١٩١٨ حوالي (٩) ملايين نسمة .

— وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) كانت الخسائر بالارواح تزيد عن (٤٠) مليون نسمة .

— اما بالنسبة للعشرين حرب محلية خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ فقد بلغت خسائرها بالارواح حوالي (١٠) ملايين قتيل .

لهذا نعتقد ان العالم سيشهد ولا شك حروبا محلية عديدة ، على اقل تقدير خلال العقدين القادمين من هذا القرن ، ذلك لان دورة تصفية الاستعمار وما بعد الاستعمار لم تنته بعد ، وان العالم الثالث يختلف عن القوى الهرة ، لانه لا يزال في بداية شبابه ولم يبلغ مرحلة الرشد والاتزان السياسي .

بعض المشاكل الرئيسية

لكي نستقرئ المستقبل لنعرف ما يمكن ان يقع من حروب في الفترة الباقية من هذا القرن (بين ١٩٨٠ و ٢٠٠٠) ، يمكننا بالاستناد الى الجدول رقم ٣ - ، المتعلق بتصعيد العنف السياسي ، ان نستخلص ونطرح عدة مشاكل رئيسية ، دون أمل بالوصول الى اجوبة اكيدة .

غير ان الشيء الاساسي هو ، قبل كل شيء ، ادراك ومعرفة المشاكل ، لكي يمكن ايجاد حلول اقل فظاظة واخف عدوانية لها .

١ - ان نزاعا صغيرا كازمة البترول مثلا ، قد يؤدي الى حزب محلية ، بل وحتى حرب عالمية ، وهذه الحرب ستكون ولا شك حربا نووية .

والواقع ان هذه الفرضية ليست مستبعدة ، خاصة اذا وضع سلاح البترول القوى الصناعية في « حالة اختناق » ، الامر الذي يشكل « مبررا قاطعا للحرب » . ذلك ان الحروب تتفجر عندما يجد احد الاطراف نفسه في وضع يائس لا مخرج منه ، وعندما يتجاوز الطرف الآخر عتبة « التسامح » كما فعل هتلر في غزو بولونيا عام ١٩٣٩ . وهذه العتبة هي « الحد الذي لا يمكن احتماله » ، والتي اشار اليها السيد جان بابتيست دوروزيل في احدى مقالاته التي نشرت في مجلة السياسة الدولية (العدد الخامس ١٩٧٩) فقال : « ان الحد الذي لا يمكن احتماله هو الشيء الذي يستحق المغامرة من اجله بالحياة ... » .

وان ما يستحق التضحية بالنفس في اللحظة الحرجة هو الشيء الذي لا يمكن احتماله . وهذا الموقف ينتج بلا ريب عندما يرفض الانسان التنازل عن نظام القيم التي يؤمن بها .

ولما كان التناوب بين السلم والحرب ، بما في ذلك الاعداد لهذه والتهديد بتلك ، يشكل السمة المهيمنة للعلاقات الدولية ، فانه يصبح من الضروري جدا دراسة « الوضع الذي لا يمكن احتماله » و « العتبة » التي تؤدي اليه .

وهنا يتبادر للأذهان السؤال التالي : هل يمكن ان يتطور النزاع
التحتي ، كعدم توازن البنى الديمغرافية - الاقتصادية العالمي الذي يولد
الروح العدوانية ، هل يمكن ان يتطور هذا الى حرب عالمية ؟

.. : الواقع ان خلل التوازن الديمغرافي - الاقتصادي المتفاقم بين
الشمال والجنوب .. والذي يمكن ان يأخذ في نهاية القرن الحالي ابعادا
مخيفة ، يمكن ان يؤدي اما الى نزاعات مباشرة او الى اغراق البلدان
الصناعية في المناطق المعتدلة بطوفان من سكان البلدان النامية (المناطق
فوق المدارية والمناطق الاستوائية) .

وهنا تظهر أهمية الحوار بين الشمال والجنوب .

وهذه الحالة تنطبق ايضا على الخلل الديمغرافي - الاقتصادي بين
الاتحاد السوفياتي والصين على جانبي حدود البلدين التي ينوف طولها
من ستة الاف كم ، مما يخلق حالة متفجرة .

وكذلك الامر بالنسبة للعداء بين الشرق والغرب .

٢ - ألا يمكن ان يؤدي تعدد النزاعات الصغيرة ، الى نشوب نزاعات متوسطة ،
كما حدث بالفعل في لبنان عام ١٩٧٥ ، وفي ايران عام ١٩٧٨ ، وفي
أفغانستان عام ١٩٧٩ ، أي الى حروب داخلية وثورات تهدد دائما
بالتدخل الاجنبي ؟ ثم الا يمكن ان يؤدي تطور عمليات الارهاب الى زرع
الفوضى في بعض البلدان ؟ وهل يؤدي الارهاب النووي الى تفجير حرب
نوية ؟

٣ - أولا تهدد النزاعات المتوسطة ، مثل نزاعات تشاد والصحراء الغربية
بالخطر ، عن طريق التصعيد ، بنشوب حروب محلية ، اذا لم يتم التحكم
والهيمنة عليها في الوقت المناسب من قبل المجتمع الدولي ؟

والحقيقة ان الخطر كان قائما في قبرص عام ١٩٧٤ ، وفي لبنان عام
١٩٧٥ ، وفي ايران عام ١٩٧٨ .

٤ - والحروب المحلية ، الا يمكن ان تندهور بسرعة بالتصعيد وتتحول الى حروب واسعة قد تصبح عالمية ونووية ؟

ان هذا الخطر ، هو بلا شك احد التهديدات الأكثر خطورة ، بل هو الأكثر انتشارا ، فالحرب الكمبودية أدت الى الثوتز بين فيتنام من جهة والصين وتايلاند من جهة أخرى ، والحرب الافغانية أدت الى حدوث توتر عالمي لا يزال قائما حتى الآن (١) .

ومن الجدير بالذكر ان ديناميكية النزاعات تطرح السؤالين التاليين :
اولا : هل ستبقى الحروب المحلية « الجزية » التي لا بد من تأديتها من اجل تحاشي الحرب النووية ؟ او على العكس ، هل الحروب المحلية مؤهلة لان تتحول بارادة البشر او بسبب عجزهم الى حرب نووية شاملة تدمر المدن وتبيد المئات من ملايين البشر ؟

ثانيا : الى أي حد ترتبط القوى الصغرى التي تتجابه في حروب محلية ، بالقوى العظمى ، التي تعتمد عليها بالتسليح والتموين ؟ وهل هي قادرة على جر هذه القوى العظمى الى الحرب فتصبح الحرب بعد ذلك حزبا عالمية ونووية ؟ او على العكس هل باستطاعة القوى العظمى الاستمرار بالتحكم والسيطرة على مسألة الحرب والسلام ؟.

والحقيقة ان هذه الاحتمالات الاربعة ممكنة ، وينتج عنها اربعة اشكال مستقبلية للحروب المحلية :

٢ - السلام ، عن طريق التفاهم ، او الوساطة ، او الاكراه ، او الانهك .
ب - تدهور الحرب الى حد استحالة الاستمرار .

ج - الاتساع المحدود والتحول الى حرب محيطية تشترك فيها احدى القوى الكبرى كما هي الحال في حرب افغانستان .

(١) والمقصود هنا حتى تاريخ نشر الكتاب الذي نحن بصدد تعريبه ، أي في الربع الاول

من عام ١٩٨٠ .

د - الاتساع الكامل والتحول الى حرب عامة وعالمية عن طريق الاشتباك
الفعلي للقوى العظمى ، ليس على مسرح عمليات النزاع فحسب ،
بل وفوق منحدراتها وارضيتها بالذات .

وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ،
والحرب في لبنان ، والثورة الايرانية الداخلية (١) والحرب الافغانية
(التي لم تسو حتى مطلع عام ١٩٨٠) من اعظم الاخطار التي تهدد
العالم الآن ، خاصة بسبب حساسية الشرق الاوسط من الناحية
الجغرافية - السياسية ، وبسبب ما تختزنه من البترول .

ه - هل تؤدي نهاية توازن الرعب ، واجتياز العتبة النووية بالعالم الى الانزلاق
الى الحرب التي ستكون في هذه الحالة حربا نووية ؟ واخيرا الا يمكن
ازالة هذا الخطر ؟

من المؤكد انه طالما استمر توازن الرعب بين القوتين العظميين فان
الفرضية القائلة بان العنف السياسي سيبقى محصورا في اللعبة النووية ،
وسيكون خلال العقدين القادمين من هذا القرن ، مجموعة من المشاكل
المتنازع عليها التي ستسبب نزاعات جزئية صغيرة ، ونزاعات متوسطة
وحروبا محلية .

غير ان هذا « الحصر النووي » يمكن ان ينهار على اثر تقدم تكنولوجي
حاسم ، او بسبب خطأ في التقدير على مستوى الاستراتيجيات النووية ،
او نتيجة لهروب احدى القوى العظمى الى الامام عندما تشعر انها اصبحت
في وضع يهدد وجودها نفسه بالخطر ، واخيرا يمكن ان ينهار الحصر
النووي بسبب جنون بعض القادة المهوسين .

بقي علينا ان نشير الى اربعة مشاكل عظيمة الاهمية :

١ - الحتمية والحريية .

(١) والحرب الايرانية - العراقية التي نشبت في ٢٣ ايلول ١٩٨٠ ولم تسو حتى الان (المغرب) .

٢ - المسؤولية .

٣ - الاضطراب .

٤ - الحذر .

الحروب الحتمية والحروب غير الحتمية

والسؤال هنا هو : هل تغلب الحتمية في الميدان السياسي - الاستراتيجي وديناميكية النزاعات الى الحد الذي تصبح فيه نوعا من « القدر » ؟ وهل يبقى لدى القادة شيئا من الحرية بمثابة هامش مناورة ؟ او بالاحرى هل تتفوق الحرية في هذا المجال الفاض ، على الحتمية التي تقلص وتهدد هامش المناورة ؟

والحقيقة ان هذا السؤال على جانب عظيم من الاهمية ...

ويبدو انه يمكن تمييز نوعين من الحالات :

- حالة الحروب التي تصبح حتمية .

- وحالة الحروب التي لا تزال غير حتمية .

وفي حالة الحروب الحتمية ، مثل الحرب العالمية الثانية ، كان من الواضح (قبل نشوب الحرب) ان الحرب لا يمكن تجنبها ، وان هامش المناورة اصبح ضيقا الى اقصى الحدود . ولم يبق امام المسؤولين ، ضمن بعض الشروط ، سوى امكانيات محدودة للتأثير على زمان ومكان وشروط هذه الحرب لجعلها اكثر ملاءمة او على الاقل التخفيف ما أمكن من شرورها .

فالتأثير على « الزن » يمكن الحصول عليه باستباق موعد نشوب الحرب ، والمبادرة بحرب وقائية ... مثلا ، ومع ذلك لا بد من الاشارة هنا الى المصاعب التي تطرحها الحرب الوقائية على الصعيد الاخلاقي وعلى صعيد القرار ، الامر الذي يفسر ندرتها ، اما محاولة تأخير وقوع الحرب ، باجراء بعض التنازلات او اللجوء للمفاوضات ، مثلا ، فهذا ينطوي دائما على مغامرة دقيقة جدا وخطيرة النتائج (ويكفي ان نذكر اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨ للبرهان على ذلك) ...

والتأثير على « المكان » يمكن الوصول اليه بتحاشي الصدمة الاولى ،
او بالاحرى تغيير اتجاه الصدمة الاولى .

اما التأثير على الشروط فيمكن الوصول اليه بالعمل الدبلوماسي .

والخلاصة : « ان مفهوم هامش المناورة ، في حالات الحرب الحتمية
يعتبر عنصرا جوهريا يجب البحث عنه واستغلاله بكل السبل والوسائل » .

وفي حالة الحروب غير الحتمية : فان هامش المناورة يكون عادة اكثر
اتساعا . لذا يجب العمل على تحاشي نشوب هذه الحرب « تكتيكيا » ، وهو
امر ممكن ، واستراتيجيا عن طريق حل عقدة الازمة بشكل يزيل خطر الحرب
على المدى المتوسط والمدى البعيد . لذا يجب عدم الاقدام على اية مجازفة قبل
اتخاذ جميع الاحتياطات واجراء الحسابات الدقيقة لكل الاحتمالات ، لانه في
حالة الفشل قد تنقلب هذه الحرب الى حرب حتمية اشد خطرا او هولا .

وهناك حالتين مثاليتين مختلفتين تجسدان بشكل دقيق حالة الحرب
غير الحتمية : الحالة الاولى وقعت قبل العصر الذري وهي احتلال المانيا الهتلرية
لمنطقة رينانيا عام ١٩٣٦ ، والحالة الثانية في العصر النووي وهي ازمة كوبا
عام ١٩٦٢ .

ففي الازمة الكوبية ، كان من الممكن ان تؤدي الازمة الى حرب نووية
على عكس ازمة رينانيا التي سبقت العصر النووي .

ومن المعروف تاريخيا انه مع ازمة رينانيا عام ١٩٣٦ لم تتخذ الاجراءات
اللازمة والكافية لتحاشي الحرب ، وبالتالي فقد جعلت الحرب حتمية .

اما في الازمة الكوبية ، في عام ١٩٦٢ فقد سمحت المجازفة المحسوبة
واستخدام الردع النووي المتدرج ، بتحاشي الحرب ...

لذا فان المجازفة المحسوبة اساسية في حالة الحرب غير الحتمية ، ولكن
يجب الحذر خلال عملية المجازفة من الانزلاق الى مجازفة اخرى لا تحسب
عقبها ، فتتحول عندها الحرب غير الحتمية الى حرب حتمية .

وهنا لا بد من طرح السؤال التالي وهو : كيف يمكن ايجاد الترابط المنطقي والتخلص من الحتمية ؟

ويبدو ان « التهديد النووي الجدي » ، المبني على حسابات دقيقة جدا ومفهومة ، اثبت جدواه .

وتجدر الاشارة في هذا المجال ان التهديد النووي اكثر من التهديد بالغاز الذي لم يستطع هتلر او لم يتجرا على استخدامه بين عام ١٩٤٢ و ١٩٤٥ .
لذا نعتقد ان هناك علاقة منطقية بين التهديد النووي وبين الحتمية ، فاذا تغلبت الحتمية النووية على الحتمية النووية امكن تحاشي الحرب .

قادة الدول والاحبار النظام (انكهنه النظام)

الواقع ان رؤساء الدول ، يقومون في وقت واحد بدور المحرك لشعوبهم ، وبدور التعبير عن ارادة هذه الشعوب . فهم تارة يقررون مصير هذه الشعوب ، وتارة يخضعون لارادة الراي العام كما فعل نابليون الثالث عام ١٨٧٠ (١) .

وتجدر الاشارة الى ان سلطة رؤساء الدول باتخاذ قرارات الحياة او الموت لشعوبهم (الحرب او السلم) كانت مختلفة عبر التاريخ . فعندما يجمع رؤساء الدول بين السلطة السياسية والسلطة المقدسة ، يكونون ملوكا وقضاة في وقت واحد ، وفي هذه الحالة لا يكون لشعوبهم اي صوت او راى في مسألتى الحرب والسلم .

وفي القديم كان صوت الملك هو « صوت الرب » ، وكان ذلك هو الحق الالهي للملوك . صحيح انهم كانوا يحيطون انفسهم بالمستشارين كما فعل

(١) نابليون الثالث (١٨٠٨ - ١٨٧٣) انتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية في كانون اول ١٨٤٨ ، واقسم الولاء للدستور . ولكنه تنكر لقسمه الجمهوري ، واعتقل السياسيين الجمهوريين وقام بانقلاب اطاح بالجمهورية ٢١ كانون اول ١٨٥١ وأعلن نفسه امبراطورا عن طريق الاستفتاء العام المباشر بتاريخ ٢ كانون اول ١٨٥٢ . واصبح حاكما مطلقا حتى عام ١٨٦٧ ، ثم اضطر لاصدار بعض القوانين التي اعادت عددا من الحريات للمواطنين بين ١٨٦٧ و ١٨٧٠ . وبعد هزيمة ١٨٧٠ اعتقله الالمان ثم توفي عام ١٨٧٣ .

لويس الرابع عشر في اللحظة التي طرحت عليه مشكلة خلافة العرش الاسباني ، ولكنهم كانوا في نهاية الامر يتخذون القرار لوحدهم مستندين الى حقهم الشرعي .

وفي العصور القديمة كان رؤساء الدول « احبارا عظاما » اي انهم يملكون السلطة الدينية العليا والديوية ، وبموجب هذه السلطة العليا يمكن للملوك (الاحبار) ان يفامروا بمصائر شعوبهم نظرا لان مسؤولياتهم شاملة ومطلقة .

ومع تقدم الديمقراطية ، وازدياد قوة الراي العام ، انتقلت سلطة اقرار الحرب والسلم ، في الدول الديمقراطية الى المجالس النيابية التي تجسد السيادة الشعبية . وهكذا انقلبت الآية واصبح « صوت الشعب هو صوت الرب » . وان المهلة الزمنية التي يتطلبها اعداد الجيوش الكلاسيكية ، وتعبئة الجيوش الوطنية ، سمحت للبرلمانات بان تنافس مسألة الحرب والسلم وان تجري التصويت لاقرار هذه الحالة او تلك ، مع الاشارة الى ان هذه البرلمانات قد تكون في بعض الاحيان خاضعة بنسب متفاوتة لرؤساء الدول والحكومات مما يجعل تصويتها ومناقشاتهما اقرب الى الاجراءات الشكلية ..

ولكن الشروط الراهنة السائدة في العصر النووي الفضائي ، ادت الى تقليص « مهلة القرار » لتصبح عدة ساعات او عدة دقائق ، بعد ان اصبح في مقدور الصواريخ العابرة للقارات التي تحمل الرؤوس النووية المتعددة ، اصابة المراكز الحيوية للدول ، على مسافة الاف الكيلو مترات وتدميرها تدميرا كاملا خلال ساعات معدودة .

وهكذا يجد رئيس الدولة نفسه ممسكا السلطة والمسؤولية باتخاذ القرار باستخدام السلاح النووي لغايات الردع او لاغراض هجومية ، في مهلة قصيرة جدا . ولن يكون امام المجالس النيابية (البرلمانات) الوقت اللازم للتداول والتصويت على القرار . وبذلك يصبح العدد القليل من المستشارين وحدهم ، هم الذين يقدمون آراءهم للرئيس لكي يتخذ القرار الحاسم النهائي . وهذا الوضع يذكرنا بصلاحيات « الكاهن الاعظم » وسيد الحياة والموت لاتباعه في العصور القديمة .

أولا يعني هذا ان البشرية تعود من جديد الى العصر الذي كان فيه « صوت الملك هو صوت الله » مع تغيير بسيط ان الملك في عصرنا الحاضر هو رئيس الدولة ٤.

ولكن هذا الوضع الجديد لا بد وان تتوفر فيه شروط ثلاثة :

١ - ان يكون رئيس الدولة فعليا ومن الناحية الشرعية مجسدا للسيادة الشعبية ، وان يملك الصفات اللازمة لكي يكون قراره معبرا تمام التعبير عن ارادة الامة ومصلحتها العليا .

٢ - وان يكون رئيس الدولة منتخبا من الامة بكاملها كما هو الامر في البلدان ذات الانظمة الديمقراطية . وان تكون قوته في اتخاذ القرارات مستمدة من قوة شرعيته . وان تكون سلطته متوقفة على مدى شعبيته في الامة .

٣ - وان تكون متانة اخلاق الرئيس في مستوى حكمته وعدالته ووضوح رؤيته ..

وفي رأي الاستاذ جاك فيرنان (عميد المعهد العالي للعلوم السياسية بباريس) :

« ان من واجب رجل الدولة ، في الازمات ، السعي الحثيث لتحقيق هدفين على الاقل ، يستطيع بواسطتهما الوصول الى طريقين مختلفين للعمل في اغلب الاحيان الا وهما :

- تأمين استقرار السلطة في الداخل للمدى المتوسط ،

- والبحث في الخارج عن الحل الاكثر ملاءمة لمصالح البلاد الدائمة » .

والخلاصة ، ان واجب رؤساء الدول المتخاصمة (او المتحاربة) في جميع الحالات ، ايجاد الطريق السليم الذي يحفظ السلام ، في جو يحتدم فيه الخصام الذي لا مفر منه بين جماعة (الصقور) وجماعة (الحمام) الموجودين في كل البلاد . ولهذا يعتبر دور رؤساء الدول اساسيا .

الاضطرابات

تجدر الإشارة أن هناك بعض رؤساء الدول بسبب قوة شخصيتهم وطموحهم ، وزعامتهم الحقيقية ، وبسبب التأييد الجماهيري الذي اوصلهم الى السلطة ، يمكن ان يصبحوا « خطرين على التوازن الدولي القائم » .. ويعتبر « هتلر » من هذا النوع من الرؤساء .

والحقيقة ، انه لكل « زمان » شخصياته التي تعكر صفو الامن فيه .. والعالم في عام ١٩٨٠ يحتوي ولا شك ، على العديد من هؤلاء « المشاغبين » .. ومن واجب المجتمع الدولي ان يكتشف في وقت مبكر مظاهرهم لكي يتمكن من « احتوائها » بينما يكون ذلك ممكنا ، لتخاشي الاخطار التي تسببها هذه المظاهر ...

وفي العصر النووي - الفضائي يمكن صياغة نظريتين اساسيتين :

- النظرية الاولى : اذا بقيت الحروب محدودة ومحلية ، فانها ستعكر السلام العالمي وستؤثر على الحضارات ...

- والنظرية الثانية : اما اذا انفجرت حرب نووية او بيولوجية فلن يقتصر الامر على الاضرار بالحضارات في منجزاتها الحية ، وتلطيخ الضمير الانساني بالجريمة الرهيبة ، فحسب ، بل ان بقاء النوع البشري سيكون امرا مشكوكا فيه (١) ...

لهذا فان « العتبة النووية » هي « عتبة ما لا يمكن اصلاحه » .

بعض النقاط التي تطبق فيها مجهودات السلام

ان البحث الذي نحن بصدده حول استطلاع المستقبل للفترة الواقعة

(١) يلاحظ من هاتين النظريتين مدى التركيز على الحروب المحلية التي يراد لها ان تسود الفترة الباقية من هذا القرن ، ومن الطبيعي أن تكون البلدان النامية او بلدان العالم الثالث ، الميادين المطلوبة لهذه الحروب (الحرب) .

بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، لم يمكننا الا اعطاء أجوبة جزئية واثارة أسئلة جديدة مستندين على الاسلوب العام للعنف السياسي ، من جهة ، وعلى تحليل تطور النزاعات بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٧٩ ، واستطلاعات المستقبل القريب من جهة أخرى .

والسؤال الذي يتبادر للذهن في هذا المجال هو :

هل العالم في مطلع عام ١٩٨٠ في وضع قابل لنشوب الحرب ؟

ان استطلاع النزاعات لا تسمح بالتنبؤ حول اي من هذه الاحتمالات المستقبلية الذي سيتحقق ، لان مسألة الحرب والسلام ، ستكون غدا كما كانت بالامس ، مسألة صراع بين حرية الانسان وحتمية الاشياء ...

وان السلطة والرأي العام في القوتين العالميتين العظيمتين يمكنهما ان تعتمدا على الاقل في هذا الصراع ، على حقيقة كون العنف السياسي يتطور عادة باتجاه مستويات متصاعدة ، لذلك يمكن بل يجب على الجهود السلمية ان تكون صريحة واضحة في مستوى « ظواهر العنف » وان تطبق للحيلولة دون اجتياز « العتبة العليا » .

اما بالنسبة للروح العدوانية ، فان جرثومة الحروب تنمو في مختلف البنيات (الجغرافية ، والسكانية - الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعقلية) ، ويجب التأثير عليها بالعمل السياسي الوقائي الطويل المدى للتخفيف من عدوانيتها وجعلها اقل تفجرا .

ويبدو لنا ان المراقبة الحذرة المستمرة لقوة عدوانية البنيات المختلفة ، ومستويات العنف ، هي الشرط الاساسي الذي يجب ان يسبق كل جهد سلمي فعال ، من اجل التنبؤ بالازمات العدوانية ، ومحاولة السيطرة على الاخطار ومنع المجازفات .

وان عظمة الانسان والمجتمعات والحضارات ، هي في قدرتها على معرفة ما يمكن ان يدمرها ، من اجل العمل في وقت مبكر على ايقاف تداعي وتصعيد

أحداث العنف في أوسع نطاق ممكن ، وهي أيضا في نزوع الحرية الانسانية والحب للاقتصار على حتمية الاشياء .

ونحن نعتقد ان « تحليل التهديدات العدوانية السابقة الذي قمنا به في هذا البحث » ، يصلح ايضا بالنسبة للتهديدات العدوانية في مطلع عام ١٩٨٠ . صحيح ان تطور « علاقات القوة » و « التقدم التقني » يستازمان التحديث الدائم ، ولكن الشيء المهم هو ان الاسلوب المقترح لدراسة الحالات العدوانية سيبقى صالحا ما دام التوازن النووي (او نوازن الرعب) قائما .

وفي اطار هذا التحليل ، يجدر بنا ان نعيد الى الازهان « ان هدف علم الحرب - شأنه في ذلك شأن العلوم الاخرى كالفلسفة وعلم الاجتماع ، وعلم النفس والتاريخ - ليس حل المشاكل ، فذلك امر يعو دللسياسة وحدها ، ولكن الاكتفاء بطرح هذه المشاكل على أحسن واوضح الوجود ، لمساعدة السلطة على ايجاد الحلول المناسبة لها ، كما يهدف علم الحرب الى انشاء « نظام انداز » للكشف والتعرف على الظواهر المتنازع عليها^(١) والبحث عن السبل والوسائل للسيطرة عليها .

(١) تجدر الاشارة هنا الى ان هذا العلم كبقية العلوم قد تكون أهدافه سامية ولكنه قد يسخر لتحقيق اشنع الاهداف .. فهو في سعيه للتعرف والكشف عن خفايا واسباب وظواهر النزاعات ، يمكن ان يقدم لبعض القوى الشريرة الما دالخام التي تستخدم لتأجيج وتفجير هذه النزاعات للوصول الى أهدافها القلرة كما تفعل اسرائيل والامبريالية في السنوات الاخيرة (المغرب) .

الفصل السابع عشر

تفاعلات الحصار والحروب

يمكن ان نجمع في نهاية هذه السلسلة من التحليلات والتركيبات الجزئية ،
في لوحة اجمالية شاملة ذات حقلين معظم التفاعلات بين الحصار والحروب
(يرجى الرجوع للوحة رقم - ٧) .

اللوحة رقم - ٧ -

تأثير الحصار على الحروب (الحقل الاول)

عناصر الحصار الفاعلة (الفصل الثاني)	عناصر الحروب المنفلة (او المتأثرة) (الفصول : الاول ، والثالث ، والسادس عشر)
أ	ب
١ - ميدان الحصار . - المجال البري : * ابعاده، وتقسيماته الدولية	ابعاد الحروب (حروب مدن ، او حروب امبراطوريات)

٢	ب
* وضعه الجغرافي - السياسي	حروب دفاعية ام حروب فتح ام غزوات
* خطوط تصدعه	خطوط مجابهات مسلحة
* حدوده الطبيعية التقريبية	مدى هشاشة هذه الحدود او قوتها
* شبكة مواصلاته	ومدى تطور التحصينات والاسوار الاستراتيجية، التكتيك ، الشؤون الادارية
- السيادة البحرية :-	- وجود او عدم وجود القوات البحرية استخدام العمليات المشتركة
- السيادة الجوية :-	- وجود او عدم وجود القوات الجوية - استخدام العمليات المشتركة - تعرض السكان المدنيين او عدم تعرضهم للاخطار
- السيطرة على الفضاء الخارجي :-	- استخدام القذائف والصواريخ - وجود او عدم وجود الاقمار الصناعية (اقمار الرصد ، والاتصالات ، والتدمير)
٢ - القوة السكانية النسبية :-	- نزعة الحرب ، او الخوف من الحرب - مستوى الخسائر المقبولة بالارواح
٣ - العرق :-	- الحروب العنصرية (العرقية)
٤ - البنيات السكانية الاقتصادية :-	- مبررات ووظائف الحروب
٥ - العقليات :-	- تكوين الحروب - المجازفات : محدودة ، ام شاملة
- اساليب التفكير	- التكتيك . النزعة للقيام بمذابح بشرية ، وجود او عدم وجود قانون للمجابهة ، التمييز او عدم التمييز بين المقاتلين ، والمدنيين

٢	ب
- الديانات	- طبيعة الحروب الدينية - المكان المخصص للاله في الحروب
- الايديولوجيات	- اعلان الحرب او عدم اعلانها - توقيع معاهدة سلام او عدم توقيعها الطبيعة الايديولوجية للحرب
٦ - العناصر المادية :	- تناظر او عدم تناظر الحروب - هدف الحروب: العبيد ، الثروات ، الاراضي
- الادوات والتقنيات - الجمالية	- التحصينات ، والحصار ، اساطيل حربية ، اسراب جوية ، اقمار عسكرية ، اعلان الحرب او عدمه
- الحياة المادية والقدرة الصناعية	- الالبسة العسكرية ، والبسبة الميدان ، الادب ، والأعمال الفنية
- التنظيم :	- حجم الجيوش ، التعبئة الشاملة ، قوة او ضعف التموين والادارة
- الطب	- مجمل الزيادة بالسكان ، القدرة على تعويض الجرحى
٧ - البناء الاسرة	- المكان المخصص للمرأة في الحرب ، التوزيع بين المقاتلين والعناصر في المؤخرة
- تقسيم العمل - التسلسل الاجتماعي - المؤسسات والاشكال السياسية	- تجنيد الجيوش ، حروب محدودة ام حروب عامة ، تنظيم قيادة الجيوش
٨ - الاختراعات :	- اتجاه البحث نحو الاهداف العسكرية (١) ،

(١) ان الاختراعات العسكرية والبحوث المخصصة للحروب يكون لها في الغالب نتائج في الميدان المدنية .

ب	أ
<p>التطبيق السريع او البطيء في الحرب ، تحولات وتطورات الحرب</p> <p>- أساليب وقف الحروب</p> <p>- فترات الحروب المتناوبة</p>	<p>٩ - مستويات القدرة على الابداع ، او القدرة على التدمير وعلاقة هاتين القدرتين :</p>
<p>- اقامة نظام عسكري ضروري لبقاء هذه الحضارة</p> <p>- النزعة للحروب والفتوحات</p> <p>- بالحروب او بالتأثير المتبادل (الارشاح) والتبادل بين الحضارات</p> <p>- مدى تعرضها وحساسيتها بالنسبة للحروب الاهلية والخارجية</p> <p>- زوال نظام عسكري ، او زوال شكل من اشكال الحرب</p>	<p>١٠ - حياة حضارة ما : - ميلادها - نموها - تدهورها - موتها</p>
<p>- مدى مقاومتها لآثار الحروب التدميرية</p>	<p>١١ - حيوية وديناميكية حضارة ما :</p>

اللوحة رقم - ٧ - الحقل الثاني
تأثير الحروب على الحضارات

عناصر الحضارات المنفصلة بالحروب (الفصل الثاني)	عناصر الحروب الفاعلة (الفصل الاول ، والثالث والسادس عشر)
<ul style="list-style-type: none"> - كان لها تأثير على تطور الحضارات - صناعة الاسلحة كمحرك للاقتصاد - ميدان الحضارة : - المجال البري ، المجال البحري ، المجال الجوي ، المجال الفضائي - القدرة السكانية النسبية - شكل هرم الاعمار - البنية السكانية - الاقتصادية - العقليات ، الديانات ، الايديولوجيات - اتساع وتطور اللغات - الادوات والتقنيات المدنية (بواسطة اختراعات اوقات الحرب) (٢) - الجمال : تأثير علم الجمال للطرف المنتصر - الحياة المادية ، والقدرة على الانتاج - مستوى الطب - التسلسل الاجتماعي (الطبقي) - المؤسسات والاشكال السياسية - سير ومستقبل الالعب الاولمبية 	<ul style="list-style-type: none"> ١ - الاعداد للحرب ، وللحرب وحدها (١) ٢ - الحروب تبدل : ٣ - والحروب تزيد في سرعة : ٤ - والحروب تساهم : ٥ - والحروب (النووية والبيولوجية) تهدد
<ul style="list-style-type: none"> - تطور الحضارات ، - والتبادل بين الحضارات ، - في ولادة حضارات جديدة - وفي تلف وتدهور الحضارات - في وفاة (قتل) الحضارات - الحضارات ، بل وبقاء الجنس البشري . 	

(١) انشاء قوات مسلحة ، وبحوث للتطور ، وضع اسلحة ، واسلحة وعسكرة الحياة نفسها .
(٢) ان هذه الحروب تزيد في سرعة الاخرامات ، وتطبيقاتها ، تحت ضغط الحاجة ، ويمكن ان تتحول هذه المخترعات الى القطاع المدني في اوقات السلم .

من المؤكد أن هناك عوامل ذاتية المنشأ وعوامل خارجية المنشأ ، غير تلك العوامل الناتجة عن تكوين الحروب وحياة أو موت الحضارات .

ويجب ألا ننسى أن معارك فكرية كبرى تشن إلى جانب معارك القوة (الحروب) وأن هذا النوع من المعارك لا يمكن كسبها إلا إذا لم تتبعها فتوحات فكرية ودينية واجتماعية والايديولوجية ، وأن التطرف في الحروب والثورات يمكن أن يؤدي إلى « تصفية الحضارة » أو إلى حالة من الهمجية الجاهلية . ومع ذلك فإن للحروب نفوذا جوهريا . فهي بالنسبة للحضارات ، كتطور الخلية ، والحوادث الطارئة ، والأمراض ، والوفاة ، بالنسبة لحياة الإنسان الفردية .

وتشكل الحروب ظاهرة بيولوجية واجتماعية من الدرجة الأولى ، وأن محاولات الاقتراب السياسية والعسكرية لن تكون كافية لفهم هذه الظاهرة والسيطرة عليها ، وأن « علم الحرب » علم جديد ذو طبيعة تبادلية (يؤثر ويتأثر) وهو يقترح أخذ شموليته بعين الاعتبار .

الخلاصة

بعد أن وصلنا إلى نهاية مجابهتنا للحروب والحضارات ، يمكن أن نستنتج من هذه العملية بعض « المواضيع للتفكير » في مجال هذه الخلاصة .

فمنذ أقدم العصور البشرية ، ظهرت الحرب بأشكالها المتجددة باستمرار في جميع الحضارات ، وأدت إلى تطورها وتداخلها ، وعملت على تغيير ميادين وعناصر هذه الحضارات ، إلى أن وصلت في بعض الأحيان إلى تحويلها أو تدميرها وزوالها .

وفي العالم الحديث أخذت الاضطرابات والآسي أشكالها في عام ١٩٤٥ . وتعد لأطول حرب عرفتتها البشرية ، ومع امتداد التقدم والتقنيات وشمولها الكرة الأرضية بكاملها ، وبعد السيطرة المزدوجة على الذرة والفضاء ، ذات الحدين ، هل سيعم الخير أم الخراب ؟ وهل ستكون النتيجة الحياة أم الموت ؟ أو بالأحرى هل العالم يتجه الآن نحو الحرب أو يسير باتجاه السلام ؟

او بعبارة أخرى ، كما صرح السير نوبل بيكر حامل جائزة نوبل للسلام ،
في منظمة اليونسكو بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٩ : « على الانسانية ان تختار
بين عالم يمكن ان يتحول الى صحراء مقفرة كالقمر اذا وقعت الحرب النووية ،
وبين عالم رائع » .

والحقيقة ان هذه الاساليب الجديدة المتسارعة للخلق والتدمير تأخذ
اليوم اشكالا مختلفة ، وهي تزلزل جميع الحضارات القائمة حاليا ، بما في ذلك
الحضارة التقنية الغربية المتطورة جدا ، والحضارات العريقة الموجودة في العالم
الثالث .

ولكن تأثير الحروب المدمرة ، يجب الا يجعلنا نفغل التهديدات الاخرى
التي يمكن ان تثقل كاهل الحضارات وتشلها ومن هذه التهديدات :

– الكوارث الطبيعية الهائلة (تقلبات المناخ ، الانهيارات ، والفيضانات ،
الهزات الارضية) التي عرفتها الكرة الارضية في العصور الجيولوجية
الماضية ، والتي يحتمل ظهورها من جديد .

– التدهور البيولوجي الذي يصيب الحياة البشرية بسبب التلوث ، وانهاك
محيط الكرة الارضية الحيوي ، وجفاف الموارد الطبيعية .

– الوباء الجائحة المريعة التي يمكن ان تظهر من جديد ايضا .

– المجاعات التي تزداد انتشارا مع تضاؤل الموارد وازدياد السكان .

ومن الجدير بالذكر ان العدو الرئيسي الذي يعرقل التطور السلمي
للشريعة ، في زمننا الحاضر ، يتكون من مجموعة الفرسان الاربعة التالية :

– تدهور الحياة ، والجوع ، والحرب النووية ، والبيولوجية (الجرثومية)
والموت .

ومن واجب المجتمع العالمي ان يفهم هذا العدو فهما عميقا ويجسده
تجسيدا واضحا يستطيع مجابهته متضامنا ، ويرفع عن كاهل البشرية هذا
التحدي الشامل المخيف .

وعلى المجتمع العالمي ، منذ الآن أن يدرك بصدق وإخلاص أنه ليس هناك سوى عدو واحد : ذلك هو العدو الذي يببئ الإنسان ...

أن الوسيلة الوحيدة القادرة على إزالة التهديدات والمخاطر ، هي الجهد القوي الخلاق المعنوي والتقني المدعوم بمزيد من الروح . مع العلم بأن المخاطر التي تنتظر البشرية في العقود القادمة يمكن أن تكون مميتة .

وطالما بقيت الحضارات ، كما أصبحت تدريجيا ، مؤلفة من مجموعة أمم لكل منها ثقافتها وطاقاتها ، فلا بد لها أن تستمد قوتها من الموارد الحيوية الوطنية والتضامن الدولي المخلص ..

وان الإيمان وحده بالإنسان وبمصيره ، يمكن أن يوحى وينعش هذا « الجهد المشترك » لكي تتمكن حضارات الجنس البشري الحية الموجودة على كوكب الأرض ، الانتصار على الاخطار المنتظرة في عام (٢٠٠٠) م .

وان العالم الغربي ، رغم شخوخته النسبية ، يمكن أن يقدم مساهمة لا مثيل لها ، من أجل بقاء الحضارات المتجددة ..

وتجدر الإشارة في هذا المجال الى ذلك النداء الذي أصدره السيد جان هامبرغر^(١) (في كتابه الذي صدر عام ١٩٧٩) بعنوان « غدا .. الآخرون » ، والذي يقول فيه :

« ان هذا التطور الثقافي ، والاموات الذين يعدون اشكالا جديدة ، هي دون شك صورة تاريخ البشر . لقد كان لدينا حبا ثمينا اكثر منه خالدا .. يمكن ان يخلق لاحفادنا أنواعا أخرى من الحب الذي لم نشعر به نحن .

ويبدو لي بالمقابل ، انه لمن البؤس الشديد الا نستطيع صيانة مساهمتين من مساهمات حضارتنا :

المساهمة الاولى : هي اسلوب اكتشاف الحوار اللازم مع العالم ، القائم على الاسس التي تعلمناها من « اساليب النقد العلمي » .

المساهمة الثانية : هي غاية ، وموقف حياة ، وعاطفة : عاطفة احترام الفرد ..

واذا كانت آفاق هذا الاسلوب وهذه العاطفة ، ستسود وتتلاشى ثم تزول، فان المغامرة الانسانية لن تتوقف ، بل ستبدأ بالدوران حول نفسها .. وقد تقطف حصادا آخر ... يفقدها كل ما حصلت عليه من تقدم مدهش ، وان تاريخ هذين المستقبلين الفكري والاخلاقي سيصبح في النهاية تاريخ فرضيتين ضائعتين » .

واخيرا سوف يطبق على الحضارات ذلك الراي الذي صرح به الرئيس جورج بومبيدو للرئيس نيكسون عشية مراسم دفن الجنرال شارل ديغول وهو :
« ان المجتمعات التي لا تدافع عن نفسها لا يمكن ان تعيش او بالاحرى ليست جديرة بالحياة » .

باريس ١١ آذار ١٩٨٠

* * *

الملحق رقم (١)

بعض التعاريف لمبارتي : الحرب والسلام

١ - الحرب :

٢ - معجم لاروس الفرنسي :

الحرب :

١ - مبارزة بالقوة بين شعبين (حرب أجنبية ؟ أو بين حزبين في بلد واحد (حرب أهلية) أو بين خصمين يسميان للاستبلاء بالعنف على ما لم يستطيعا الحصول عليه بالأساليب الأخرى ، أما ليرجحوا ادعاءاتهم أو للدفاع ضد ادعاءات الآخرين ، كالحرب الفرنسية - الألمانية عام ١٨٧٠ والحروب العالمية الأخرى .

٢ - وهي فن إدارة هذا الصراع (والدراسة الاجتماعية لواقع الحرب مشار إليها في عبارة علم الحرب) .

٣ - وقياسا على ذلك ، فإن المعارك التي تشنها الحيوانات تعتبر حربا .

٤ - بالمعنى المجازي هي صراع ما .

٥ - عمل يجري من أجل إزالة أو تدمير شيء ما .

ب - معجم روبير :

الحرب :

١ - صراع مسلح بين مجموعات اجتماعية وخاصة بين دول .

تعريف كينس رايت الذي يلح على الصفة الحقوقية : الحرب هي الشرط المشروع الذي يسمح لطرفين او عدة اطراف بالقيام بنزاع بالقوات المسلحة .

تعريف كلوزويتز : (الذي يهتم بالنوايا) : الحرب : عمل عنيف هدفه اجبار الخصم على تنفيذ رغباتنا ، وهي استمرار للسياسة بوسائل اخرى .

تعريف غ. بوتول : الحرب : شكل من اشكال العنف ، وتتصف اساسا بانها نموذجية ومنظمة فيما يختص بالجماعات التي تقوم بها والطريقة التي ينفذونها بها . كما انها محدودة في الزمان والمكان ، وتخضع لقواعد خاصة متغيرة الى اقصى الحدود . وميزتها الاخيرة ، انها دموية ، اما عندما لا تشتمل على تدمير الحياة البشرية فتعتبر نزاعا او تهديدا متبادلا . و « الحرب الباردة » ليست حربا .

٢ - وبالتعميم : العمل العدواني هو صراع بين مجموعات اجتماعية او بين دول لا يصل الى درجة النزاع المسلح الدموي ، وهو الشكل الذي يعارض به غالبا الحرب السياسية والعسكرية (الحرب الاقتصادية ، الحرب الاعلامية ، الحرب الباردة الخ) .

٣ - وبالمعنى المجازي : كل نوع من القتال او الصراع .

ج - معجم ليتريه :

الحرب :

اسلوب السلاح الذي يستخدمه الشعب ، او يستخدمه امير ضد امير آخر ، لحل خلاف ما :

١ - والحرب والطاعون والمجاعة ، هي آفات الهبة ثلاث .

٢ - ويقال حرب جيدة : كل حرب تسير حسب القوانين والتقاليد الحربية المعروفة .

٣ - وتُخلد الحرب في بعض الاحيان بالاساطير والشعر ،

٤ - والحرب حملة او غزوة .

٥ - والفن العسكري ، هو معرفة الوسائل المستخدمة للقيام بالحرب .

٦ - والحرب مجموعة الاعمال الهجومية والدفاعية والعمليات .

٧ - والحرب كل نوع من النقاش والاشتباك او الصراع .

د - معجم لابوريت :

الحرب :

تنتج عن المجابهة بين اعلامين او بنيتين او نظامين مفلقين لفرض هيمنتها الضرورية ، او لتأمين تموينها بالطاقة او المواد الضرورية التي تعتبر بنفس الوقت خدمة للبنيات .

١ - تعريف سلبي : الحرب هي غياب السلم .

٢ - تعريف ساكن : الحرب حالة مجموعة بشرية ذات سيادة او مؤهلة للاستقلال السياسي ، يشكل موتها جزءا من مذبحه جماعية منظمة ومخططة .

٣ - تعريف اكثر ايجابية : الحرب مجابهة على نطاق واسع منظمة ودموية ، تقوم بها جماعات سياسية (ذات سيادة في حالة الحرب بين الدول ، وداخلية في حالة الحرب الاهلية) .

ملاحظة : ان مفهوم النطاق الواسع هام جدا لانه لا بد من البعد الشاسع في الزمان والمكان وكثافة الخسائر لكي تكون هناك حرب فعلية . اما الاضطرابات المحدودة والمحلية والمتقطعة فليست حربا .

٤ - تعريف اميل للفلسفة : الحرب هي العنف الجماعي المنظم والهائج والمقدس الذي يضحي بالارواح البشرية لخدمة هدف سياسي .

هـ - معجم روجيه كايوا

الحرب :

عنف معترف به ، عنف موصوف ، عنف منمجد . وهي تلبى الفرائز البدائية للكائن الانساني ، الذي حاولت الحضارات الانسانية ترويضه بصعوبة ولاجل محدود . وهي تدمير منظم ، يمكن ان تحل المشاكل المطروحة لفترة ما حلا جذريا وبسيطا ، وتشكل انفجارا دوريا يخيل فيه للفرد والمجتمع بأنه يكمل نفسه اي انه يصل الى الحقيقة ويبلغ الرخاء في وقت واحد . ولهذا فهي تقوم في المجتمع الالي بنفس الوظيفة التي قامت بها في المجتمع البدائي : فهي تمارس نفس الاغراء وتبدو بالنهاية كالمظاهرة الوحيدة التي يقدس بها المجتمع المعاصر الوسائل والموارد الهائلة التي اصبحت بحوزته .

واخيرا فان الحرب اصبحت في هذه الايام تأخذ الافضلية على كل ما عداها، ولم تعد الحرب هي التي تتكيف تبعا لقوانين الحضارة العامة ، بل على العكس فان الحضارة بمجموعها هي التي يجب ان تتكيف سلفا حسب شروط القتال المقبل .

وهكذا اصبحت الحرب هي التي تقود بدلا من ان تخضع وتطيع .

٢ - السلام :

٢ - معجم لاروس :

السلام :

١ - علاقات بين الاشخاص الذين ليسوا في حالة نزاع او خصومة . وهو ايقاف للنزاعات والخصومات .

٢ - علاقات هادئة بين المواطنين وغياب الصراعات والاضطرابات والعنف .

٣ - حالة هدوء وسكون اجتماعي يتميز بالنظام الداخلي في كل جماعة وبغياب النزاع المسلح .

٤ - حالة امة او دولة ليست في حرب ، وعلاقات بين دول تتمتع بهذا الوضع ، معاهدة سلام توقف الحرب بين قوتين متحاربتين .

- ٥ - وبالتعميم : - حالة شخص لا يكر صفوه أو يزوجه شيء - الهدوء داخلي لشخص ما ، او حالة نفسية لا يكرها أي نزاع ولا أي حزن ، - حالة وطبيعة مكان او لحظة زمنية خالية من أي اضطراب او ضجة .

ب - معجم لئترية :

السلام :

- ١ - علاقات نظامية هادئة خالية من العنف ، لدولة مع أخرى او لشعب مع شعب آخر .
- ٢ - معاهدة سلام بعد تصديقها من الطرفين .
- ٣ - الوفاق ، والهدوء الداخلي في الدول والعائلات والمجتمعات الخاصة .
- ٤ - راحة النفس .

ج - علم الحرب :

السلام :

- ١ - تعريف سلبي قيم : هو غياب الحرب .
- ٢ - تعريف ساكن : هو حالة مجموعة بشرية ذات سيادة أي تتمتع بالاستقلال السياسي ، ليس فيها وفيات ناتجة عن العنف الجماعي المنظم والمدار .
- ٣ - تعريف أكثر ايجابية : السلام حالة توازن مستقر تقريبا في العلاقات السياسية (بين دول من اجل السلام الدولي ، وبين مجموعات من دولة ما من اجل السلام الداخلي) بشكل يستبعد كل جريمة انسانية جماعية منظمة .
- ٤ - تعريف أكثر التزاما : السلام هو النظام في الهدوء وهو الانسجام في العلاقات السياسية .

هـ - تعريف حديث السلام :

السلام :

هو مجموعة ديناميكية لعلاقات التعايش والتعاون بين الأمم وفي داخل الأمم ، لا تتميز بغياب النزاعات المسلحة فحسب بل وباحترام القيم البشرية التي عبر عنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وبالرغبة في أن يتوحد لكل فرد أقصى ما يمكن من الرفاه .

* * *

الملحق رقم (٢)

طرق الانتقال من عالم الاسلام الى عالم الحرب ومن عالم الحرب الى عالم السلام بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

ملاحظات أولية :

١ - لكي نتعرف جيدا على قانون الحرب ، لا يكفي ان ندرس اسبابها وظواهرها وآثارها فحسب ، بل يجب ان نأخذها في فترتين متميزتين حيث يوجد بالفعل تغيير حقيقي للواقع القائم :

- فترة ولادتها : أي الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب .

- فترة وفاتها : أي الانتقال من عالم الحرب الى عالم السلام

وسوف ندرس بالتالي الطرق المؤدية لهاتين الحالتين . وعلى الرغم من ان الانتقال الاول (أي الدخول بالحرب) اكثر تعقيدا من الانتقال الثاني (أي العودة للسلام) الا اننا سندرس أولا ولاسباب تاريخية طرق الدخول في الحرب (اللوحة - آ) قبل دراسة العودة للسلام (اللوحة - ب) .

٢ - بالنسبة لعلم الحرب : عندما تكون هناك حالة دخول في الحرب ، لا بد وان تتواجد دائما أسباب عديدة رئيسية تكون عادة على ثلاث مستويات :

- الأسباب الظاهرية (أحداث ، صدامات ، مررات ، تحريض ... الخ)
المدرسة بشكل جيد .

- الأسباب والظروف المحيطة (السياسات الداخلية ، والخارجية ،

والاقتصادية ، والعسكرية ، والاقليمية ، والدينية ، والايدونوجية ،
والنفسانية ... الخ) المعروفة بشكل جيد .

— الاسباب البنيوية ، الاكثر عمقا ، والاكثر اهمية . وغالبا ما تكون غير
معروفة بالشكل اللازم والكافي .

والواقع ان العدوانية الجماعية وجرائم الحرب ، تنمو في البنيات
المختلفة (السكانية ، والاقتصادية ، والجغرافية والتاريخية والعقلية
... الخ) .

— الاسباب الاخرى المختلفة : وهي موجودة بشحنات متفاوتة خاصة بكل
حرب على حدة ، ويمكن تمييزها بحدود معينة .

ومن الواجب ان يتركز التحليل على ثلاث مستويات مع الانتباه الخاص
للاسباب البنيوية التي تفلت عادة من المراقبة باعتبارها اكثر عمقا واشد
تغيرا واقل بروزا .

٣ — ان طرق الدخول في الحرب تختلف تماما عن حتمية المسؤوليات فهذه
شيء آخر . فالطرف الذي يبادر بالاعمال العدوانية والدخول بالحرب ،
ويظهر كمعتدي ، قد يكون الطرف الرئيسي ، او المسؤول الوحيد عن
الحرب ، كما يمكن ايضا ان تكون مسؤوليته ثانوية ، او بدون مسؤولية
اطلاقا .

وعلم الحرب الذي يدرس علميا « قانون الحرب » يتحاشى الوقوع في
الانحياز بالنسبة لتحديد المسؤوليات .

٤ — ولما كانت الحرب ظاهرة متعددة الاطراف في الزمان والمكان ، فان طرق
الدخول اليها متنوعة ومتعددة ، ويعتبر كل منها حدث تاريخي فريد .
غير انه بالامكان استخلاص الطرق الرئيسية التي تتفرع عنها الطرق
الخاصة .

٥ — ولهذا فاننا نأخذ بالمعايير التالية التي تستند الى مستويات النزاعات
المقترحة في اللوحة (رقم - ٣) .

أ - الحروب الأجنبية (حيث تكون الأطراف المتحاربة دولاً ذات سيادة ، ومستقلة ، وتمتع بسلطات سياسية معترف بها) . او الحروب الداخلية (حيث يكون هناك عدد واحد او اكثر في البداية ، وسلطة حكومية شرعية قائمة) مع او بدون تدخل اجنبي مسلح .

ب - حروب بين دول منظمة او بين دولة منظمة ومجموعة سياسية خارجية غير منظمة او بين جماعات سياسية غير حكومية .

ج - الانتقال من السلم الى الحرب (لا بد وان تسبق كل نزاع متوسط او حرب ، نزاعات تحتية صغيرة) يمكن ان يتم عن طريق مرحلة وسيطة تكتنفها النزاعات الجزئية التي تنبئ بالحرب ، كما يمكن ان تتم بدون هذه المرحلة الوسيطة .

وفي الحالة الاولى تنشب « وكأنها في سماء صافية » ، وفي الحالة الثانية تنشب الحرب عندما تأخذ الاضطرابات المسلحة البدائية تسارعا عظيما لتصبح في حجم الحرب الحقيقية .

د - بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد او بعد اعلان مسبق يدل على العدوان وبدء الاعمال الحربية ، وقد يتم ذلك بدون هذا الاعلان المسبق .

هـ - حرب تبدأ برغبة احد الاطراف ، او بالرضاء المتبادل من الطرفين ، كما كان الامر بالنسبة للمعارك في القرن السابع عشر والثامن عشر ، التي لا تتم الا بموافقة الطرفين المتخاصمين ، ومن ثم بالرغبة المنفردة من طرف واحد بعد ان اصبحت الحروب تجري بالفرق .

و - وفي حالة الحروب الداخلية تكون بداية العمليات العدوانية :

- بمبادهة السلطة الحكومية ضد جماعة داخلية معادية .

- او بمبادهة جماعة متمردة ضد الحكومة الشرعية .

- او في دولة ضعيفة من قبل فئة معينة ضد فئة اخرى من نفس الدولة .

٦ - أن التنسيق بين هذه المعايير الخمسة السابقة يشكل اللوحة التالية
(لوحة - ٢) التي تحتوي على :

- الحقل الاول - (١) : ويبين أصناف الحروب .
- الحقل الثاني - (ب) : ويبين طرق الدخول الى عالم الحرب .
- الحقل الثالث - (ج) : يشير الى بعض الامثلة من كل طريقة مع شرح المقدمات واساليب الحرب ، وعلى سبيل المثال هناك نموذجان من الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ و عام ١٩٦٨ وامثلة اخرى عن الحروب الثلاثة عشر التي وقعت في الفترة ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٦ .

٧ - واللوحة - ٢ - تقتصر على « الطرق المختلفة للدخول في عالم الحرب » دون دراسة القوانين الهامة الاخرى للحرب ، والتي كانت موضوعا لدراسات عديدة سابقة قام بها المعهد الفرنسي لعلم الحرب وتتضمن :

- الاسباب .
- المبررات .
- استقلال او تبعية الحروب بين بعضها وفي هذه الحالة : اما عن طريق آثار العدوان او التابع المباشر (كالحروب الاسرائيلية العربية الاربعة) ، واما بالعدوى القريبة نوعا ما (مثل دخول بلغاريا في الحرب العالمية الاولى ، وحرب لبنان عام ١٩٧٥ في سياق الحرب العربية الاسرائيلية) .
- الاشكال .
- النتائج والآثار والوظائف .

اللوحة - آ -

طرق الانتقال الى حالة الحرب بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

أنواع الحروب	طرق الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب	بعض الامثلة (خاصة خلال الفترة بين ١٩٦٨ - ١٩٧٩) المقدمات والوسائل
٢ - حروب اجنبية : ١ - بين دول منظمة (مبارزة ثنائية او احلاف) ، وحروب رئيسية متناظرة	١ - انتقال مفاجيء ومباشر دون انفصال مرحلي مسبوق بنزاعات جزئية بين الدول (صحيح انه يمكن ان تقع احداث وازمات واسباب وتهديدات بالحرب ولكن الحرب تنفجر وكأنها من سماء صافية - بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد بعد اعلان مسبق (انذار علني ورسمي) - اما بواسطة انذار قطعي بدون اعلان حرب رسمي وقانوني) - واما بانذار قطعي ثم اعلان الحرب - واما باعلان الحرب بدون انذار قطعي	- الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) : - حادث سراجيفوا ٢٨ نيسان ١٩١٤ - انذار النمسا لهربيا (٢٣ تموز) - اعلان النمسا الحرب على صربيا (٢٤ تموز) - قصف بلغراد (٢٦ تموز) - انذار المانيا لروسيا وفرنسا (٣١ تموز) - اعلان المانيا الحرب على روسيا (١ آب)

(ج)	(ب)	(ا)
<p> - انداز المانيا لبلجيكا (٢ آب) - اعلان المانيا الحرب على فرنسا (٣ آب) - غزو المانيا لبلجيكا (٣ آب) - اعلان انكلترا الحرب على المانيا (٤ آب) - الغارة الفرنسية على الالزاس العليا (٨ آب) - الهجوم العام الروسي في بروسيا الشرقية (١٧ آب) - معركة الحدود (١٩ - ٢٥ آب) - احتلال النمسا (بعد انداز هتلر القطعي) (آذار ١٩٣٨) </p>		
<p> - حرب البوكسر (١٨٩٨-١٩٠١) (الهجوم على البعثات الاوربية في بكين) - احتلال البانيا (نيسان ١٩٣٩) - الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) - هتلر يجتاح بولونيا (١ ايلول ١٩٣٩) - وبالنسبة انكلترا وفرنسا تعلنان الحرب على المانيا (٣ ايلول) - حرب كوريا (١٩٥٠ - ١٩٥٣) - الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة (٥ حزيران ١٩٦٧ وحرب تشرين عام ١٩٧٣) والهجوم الجوي - البري الاسرائيلي - الحرب العربية - الاسرائيلية الرابعة (٦ تشرين اول ١٩٧٣) الهجوم المصري والهجوم السوري </p>	<p> ٢ - بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد دو اعلان مسبق (دون انداز ودون اعلان حرب) </p>	

(ج)	(ب)	(ا)
	<p>١ - بعد اعلان مسبق للحرب</p> <p>٢ - بدون اعلان مسبق للحرب</p>	<p>٢ - بين دولة منظمة وجماعات سياسية اجنبية لا تشكل دولا منظمة (حرب غير متناظرة)</p>
<p>- قبل عام ١٧٤٠ الحروب القطاعية بعد ارسال نذير بالحرب (الحروب القبايلية : - في افريقيا ، وخاصة المغربية منها - في امريكا الشمالية (حروب الهنود الحمر) مع مراسلات متنوعة تدل على دخول الاطراف المتخاصمة بالحرب</p> <p>- يمكن ان تكون هذه الاعمال العدوانية مفاجئة</p>	<p>١ - بعد اعلان مسبق</p> <p>٢ - دون اعلان مسبق</p>	<p>٣ - بين جماعات سياسية لا تشكل دولا منظمة (حروب صغيرة متناظرة)</p>
<p>- كانت هذه الطريقة نادرة جدا بالنسبة للحروب الخارجية مثال على ذلك : الفارات المتكررة من قبل الاساطيل الاسبانية والانكليزية في عام ١٥٨٨ (الازمات التي لا تغلب)</p> <p>- اغتيال ادوارد بوسكاون عام ١٧٥٩ قبل حرب السنوات السبع (الاميرال البريطاني)</p> <p>- تساعد عمليات القراصنة البربر قبل حملة الجزائر (١٨٣٠)</p>	<p>٢ - الانتقال التدريجي وغير المباشر (مع مرحلة وسيطة بمراحل من النزاعات الصغيرة والتوترات ، والازمات ، وقيام عدد من المجابهات المسلحة الاقليمية التي تعتبر مقدمات للحرب)</p>	
	<p>٢ - الانتقال المفاجيء والمباشر بدون مرحلة وسيطة ، وذلك بمرحلة نزاعات داخلية صغيرة (من المؤكد قيام ازمات واسباب وتهديد بحروب داخلية ، وبعد الحرب الداخلية تنفجر في جو</p>	<p>ب - حروب داخلية (بدون او مع تدخل مسلح اجنبي لاحق)</p> <p>نوعان من الحالات : ١ - استمرارية (في حالة دول تحتل نفس</p>

(ج)	(ب)	(ا)
	<p>صاف (</p> <p>١ - بدء الحرب من طرف واحد بعد اعلان مسبق (اذار ملني ورسمي)</p> <p>- اما بقرار خطير (انفصال) - او بمجرد اذار قطعي - او بتحديد بسيط</p> <p>ثلاث حالات من الاعمال العدوانية :</p> <p>٢ - بمبادأة من السلطة الحكومية</p> <p>ب - بمبادأة من مجموعات مضادة للحكومة الشرعية</p> <p>ج - بمبادأة من الفصائل المتخاصمة في دولة ضعيفة جدا</p>	<p>الاراضي</p> <p>٢ - متقطعة : في حالة اراضي غير متصلة بالوطن الام او حصار دولة ، مثل : حرب تصفية الاستعمار</p>
<p>- حرب كردستان الاولى (١٩٦١ - ١٩٧٠)</p> <p>١٩٦١ : تراجعت حكومة بغداد عن الصلاحيات التي منحها للاكراد .</p> <p>- حرب كردستان الثانية (اذار ١٩٧٤ - نيسان ١٩٧٥)</p> <p>١٩٧٤ : تراجعت حكومة بغداد عن الصلاحيات التي منحها للاكراد في الاتفاقية التي انتهت الحرب الاولى</p> <p>- حرب الانفصال في الولايات المتحدة (١٨٦١ - ١٨٦٥)</p> <p>- انتخاب لنكولن في كانون اول ١٨٦٠</p> <p>- انفصال ولاية كارولينا الجنوبية (٢٠ كانون اول)</p> <p>- تشكيل حكومة اتحادية (٢٨ شباط ١٨٦١)</p> <p>- الحادث الذي اشعل نار الحرب : قضية قلمسة سمر ، التي هاجمها الاتحاديون (نيسان ١٨٦١)</p>	<p>٢ - بدء الاعمال العدوانية دون اعلان مسبق</p> <p>ثلاثة حالات من الحروب :</p>	
	<p>٣٢٠ -</p>	

(ج)	(ب)	(أ)
<p>الحربية :</p> <p>٢ - بمبادهة من السلطة الحكومية</p> <p>١ - نزاعات صغيرة متصاعدة ٥٠/ في باكستان الشرقية و ٢٥٪ منها في عاصمتها دكا ، وخاصة مظاهرات وصادات مع الشرطة ، ومذابح</p> <p>٢ - صدامات على الحدود الباكستانية - الهندية</p> <p>١ - نزاعات داخلية في لبنان :</p> <p>٤ نزاعات متوسطة ١٩٦٨ - ١٩٧١</p> <p>٨ نزاعات عام ١٩٧٢</p> <p>١٤ نزاع في ١٩٧٣</p> <p>١١ نزاع عام ١٩٧٤</p> <p>الاشكال : مجابهات بين جماعات مع مضاعفات وتدخل الفلسطينيين ، اختطاف اشخاص ، اغتيالات مذابح</p> <p>٢ - نزاعات صغيرة بين اسرائيل ولبنان (خاصة غارات اسرائيلية ضد قواعد الفلسطينيين ، في عام ١٩٧٣ غارة واحدة (١٠) غارات عام ١٩٧٤ و (٧) غارات في الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٧٥</p>	<p>الحربية :</p> <p>٢ - بمبادهة من السلطة الحكومية</p> <p>ب - بمبادهة مجموعة مضادة للسلطة</p> <p>ملاحظة :</p> <p>ان ايرلندا التي عرفت منذ ١٩٦٩ مرحلة من النزاعات الصغيرة (الارهاب) لم تنزلق الى الحرب كما هي الحال في لبنان .</p>	

ملاحظات حول اللوحة - ٢ - بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

- ١ - هناك فرق واضح بين الحروب الاجنبية والحروب الداخلية :
 - أ - فالحروب الاجنبية تبدو غالبا بشكل مفاجيء ومباشر ، دون مرحلة وسيطة من النزاعات الجزئية بين الدول .
 - ب - اما الحروب الداخلية فتبدأ غالبا بشكل متدرج وغير مباشر بعد مرحلة مسبقة من النزاعات الجزئية الداخلية التي تتكاثف وتتدهور فتتحول الى حرب .
- ٢ - هناك اختلاف واضح بين فترة ١٧٤٠ - ١٩٤٥ وفترة ١٩٤٥ - ١٩٧٩ للأسباب التالية :
 - أ - ففي الفترة الواقعة بين ١٧٤٠ و ١٩٤٥ كانت الحروب الاجنبية تبتدىء في أغلب الاحيان باعلان مسبق قبل بدء العمليات العدوانية (حالة الحربين العالميتين) . بينما لم تعد الحروب بعد ١٩٤٥ ، يسبقها اعلان للحرب (مثل حرب كوريا ١٩٥٠ ، والحروب العربية الاسرائيلية ..) . وكان الدخول في الحرب يتم مباشرة وبشكل مفاجيء ، نظرا لاهمية المبادرة الجوية .
- ومن الملاحظ هنا ان تطور التقنيات والعقليات ادى الى تراجع (تدهور) في الحقوق الدولية .
- ب - اما الحروب الداخلية فكانت تبدأ اغلب الاحيان دون اعلان مسبق (في فترة ١٧٤٠ - ١٩٤٥ وفي الفترة التي تلت عام ١٩٤٥) .
- ٣ - اما ما يتعلق بالحروب الداخلية فقد كانت انواع المبادعات الممكنة الثلاثة موجودة (السلطة الحكومية ، مجموعة مضادة للحكومة ، فصيلة ضد فصيلة اخرى في نفس الدولة) ، وخاصة منها ، المبادعة الثانية : التمرد الصريح المكشوف او بدء الثورة من قبل مجموعة مضادة للحكومة .

اللوحة - ب -

اساليب ايقاف الحروب منذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٧٩

امثلة	الطرق والنتائج	
	(ب)	(أ)
<p>خصوصا في الفترة ١٨٦٨ - ١٩٧٩ (</p> <p>(ج)</p> <p>- الحرب النمساوية البروسية (١٨٦٦)</p> <p>- حرب بيارفرا (١٩٦٧ - ١٩٧٠)</p> <p>- حرب بنغلاديش (مع تدخل خارجي) ١٩٧٤</p> <p>- حرب كردستان الاولى (١٩٧٤ - ١٩٧٥)</p> <p>١ - الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ ومعاهدة فرساي (١٩١٩)</p> <p>٢ - الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)</p> <p>٣ - الحرب الاسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩)</p>	<p>- احد الاطراف يربحها عسكريا (وغالبا ما يكون ذلك بسرعة) على الطرف الآخر</p> <p>- العنف المتنازل لاحد الاطراف يفرض السلم :</p> <p>- في البداية وقف اطلاق النار على احد الجبهات</p> <p>- احتمال توقيع هدنة</p> <p>- ومن ثم معاهدة سلام بالتفاوض تحت ضغط المنتصر (باستثناء الفترة التي تلت ١٩٤٥)</p> <p>- احيانا استسلام بدون شروط</p> <p>- وحيانا ازالة المعسكر المعادي</p>	<p>١ - نهاية عسكرية (عملياتية او تموينية ادارية) (لوجيستكية)</p>
<p>- روسيا (معاهدة بrest - نيتوفيسك ، اذار ١٩١٨</p> <p>- حرب فيتنام (١٩٦٠ - ١٩٧٥)</p>	<p>احد الاطراف ينهار مغلوبا (بصورة عامة تنهار الجبهة الداخلية ، وحيانا الجبهة العملياتية) ومندها يقوم سلام بالقوة</p>	<p>٢ - نهاية نفسانية (بسلوكية)</p>
<p>- حرب غينيا - بيساو (١٩٦٢ - ١٩٧٤)</p> <p>- حرب موزامبيق (١٩٦٥ - ١٩٧٥)</p> <p>- حرب لافولا (قبل الحرب الاهلية)</p> <p>١٩٦١ - ١٩٧٥</p>	<p>- احد الاطراف يعيد النظر بالوضع السياسي - العسكري بعد سنوات من الحروب فيستسلم (لاغراض سياسية وحيانا بسبب الشعور بالانهك والملل) ويقبل حلا سياسيا ، ١٩٦١ - ١٩٧٥</p>	<p>٢ - نهاية سياسية</p> <p>١ - الحالة الاولى : بمبادأة عسكرية من طرف واحد</p>

(أ)	(ب)	(ج)
	<p>يوافق عليه الطرف الثاني . ويكون نتيجة ذلك :</p> <p>- اتفاق لوقف إطلاق النار - اتفاق مبني على التفاوض - احتمال معاهدة سلام (نادرة)</p>	
<p>٢ - الحالة الثانية* بسبب المجز العسكري المتبادل بين الطرفين</p>	<p>- لم يصل أي من الطرفين إلى النصر الحاسم : - أما بسبب المجز بالميليات - أو بسبب الانهك بالتموين (اللومبتيك) - أو بسبب الملل والتزيف - أو بسبب تعاون هذه العوامل الثلاث</p>	<p>- حرب ولاية العرش في النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) - الحرب الهندية - الباكستانية الثانية (١٩٥٦ - ١٩٦٦) - حرب السودان (١٩٥٥ - ١٩٧٢)</p>
	<p>وهكذا تنشأ : - حالة من الأمر الواقع (١) - أو مفاوضات ثنائية بين المسكرين - أو تدخل عسكري لطرف ثالث أو لمنظمة دولية - أو وساطة ، مكرهة للطرفين إلى حد ما ، من طرف ثالث أو من منظمة دولية</p>	<p>- حرب كوريا (١٩٥٠ - ١٩٥٣) - الحرب العربية الاسرائيلية لرابعة ١٩٧٣ - الحرب الكردية العراقية الاولى (١٩٦١ - ١٩٧٠) - حرب الكونغو - كينشاسا (١٩٦٠ - ١٩٦٦) - الحرب الروسية - اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥)</p>
<p>٤ - نهاية اجتماعية</p>	<p>- نتيجة انهك احد الطرفين (أو كلاهما) - نتيجة إبادة أو ملبحة أحد الطرفين</p>	<p>- حرب باراغواي (١٨٦٤ - ١٨٧٠) - حرب أرمينيا (١٩١٥ - ١٩١٨)</p>

ملاحظة ١ : في بداية عام ١٩٨٠ ، لم يعد ممكنا معرفة النهاية ، أو النتائج التي ستترتب على الحرب اللبنانية (التي نشبت عام ١٩٧٥ ...) .

(١) منذ عام ١٩٤٥ أخلت تظهر حالة جديدة هي « حالة الاحارب واللاسلم » .

ملاحظة ٢ : من بين المؤشرات التي تنلر بنهاية حرب ما ، هو عدم الاستقرار الداخلي لأحد أطراف النزاع ...

الملحق رقم (٣)

بعض تعاريف المصطلحات

الحضارة والثقافة :

١ - موسوعة لاروس الكبرى (١٩٦٠) :

٢ - الحضارة : مجموعة من الصفات الخاصة بالحياة الفكرية ، والفنية والاخلاقية او المادية لبلد او المجتمع ما .

(حضارة الانكا . حيث توجد بعض الادوات المنزلية المتنوعة التي عثر عليها في المقابر الكبرى لهذه الحضارة الضخمة) وهذا ينطبق على الحضارة المصرية (غوتيه) .

اما تعريف الحضارة : فهو اولا صياغة التاريخ بكلمات حديثة في لغتنا الدارجة ، وقد نشأ ذلك في عصر الانوار في اواسط القرن الثامن عشر ...

وتعريف الحضارات : هو استكشاف طرائق الشرح الكبرى التي تدعي اخذ المصير البائد للحضارات بعين الاعتبار ، في الامس وفي اليوم الحاضر ...

ان « المفهوم العرقي للحضارة » ، يعترف لكل مجموعة بشرية ، ولكل مجتمع ، بحضارته القديمة .. مهما كانت غنية او فقيرة ، والبشر الذين يرجعون لعصور ما قبل التاريخ ، والانكا ، والافريق الذين عاصروا بيركليس ، والشعوب البربرية ، وشعوب الصيت والفرس ، كان لكل منهم حضارته .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، درج العلماء على استعمال هذا
التعدد العرقي .

أما وصف حضارة شعب ما ، فهو بالنسبة إلينا ، استعراض
حياته الثقافية بكل تأكيد ، وكذلك السياق الاجتماعي - الاقتصادي
والسياسي الذي تطور فيه هذا الشعب .

وان صعوبة وتعقيد الآثار ، والرفض ، والعطاءات ، وعدم
الاستمرارية الظاهرية والواقعية ، تفرض علينا استخدام مفهوم
الدول ، في داخل الحضارات لمدد طويلة أحيانا ، ورفض كل نوع من
المقارنة أو المجابهة الشاملة التي تدعى أخذ التطور الانساني على
كاملها ..

(وفي كل الحالات) هناك حضارة عالمية في طريقها للنشوء ، وقد
أخذ البعض بعض التدابير من أجل هذا التوحيد بشكل قاطع ،
وأهملوا قوة المقاومة التي تمثلها التقاليد الوطنية ، والحواجز
اللغوية ، والفوارق التي يفرضها الاقتصاد ، والبنى الاجتماعية
والعواطف الدينية ...

ولكن مع ذلك ، من لا يرى عودة ظهور ، حضارة عالمية ، تحت
هذا الشعار أو هذا الطموح ، الذي تميز فيه الإيمان في القرن
الثامن عشر ؟ .

ب - « الثقافة » هي :

- الفعل أو الطريقة التي تزرع فيها الأرض أو بعض النباتات .
- فن استثمار بعض المنتجات الطبيعية .
- شكل خاص للمعرفة ، للفكر : الثقافة الكلاسيكية .
- دعم فكري وروحي : الثقافة الإفريقية - اللاتينية .

٢ - مصطلح تقني وثقدي للفلسفة : بقلم : اندريه لالاند (الصحافة الجامعية
الفرنسية ١٩٦٨) :

الخلاصة :

١ - الحضارة مجموع مركب من القوانين الاجتماعية ، ذات طبيعة
قابلة للانتقال ، تمثل صفة دينية ، واخلاقية وجمالية ، وتقنية او
علمية ومشاركة لجميع اجزاء مجتمع واسع ، او عدة مجتمعات
متصلة ببعضها (الحضارة الصينية مثلا) .

المجال الحضاري : مساحة جغرافية تقوم عليها حضارة ما .
طبقات حضارية : تقال مبدئيا عن الطبقات المادية المتوضعة فوق
بعضها ، والتي تظهر ، خلال التنقيب عن الآثار ، بقايا الحضارات
المتعاقبة ، وهي تطبق بشكل عام ، على الحضارات التي تعاقبت
الواحدة تلو الاخرى في نفس المجال الجغرافي ...

ب - والحضارة ، تستدعي ايضا ، في نطاق واسع جدا ، الفكرة القائلة
ان الانسانية تتجه لتصبح اكثر وحدة واكثر تشابها في مختلف
اجزائها .



الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣	مقدمة العرب
٩	مقدمة
١٤	مدخل
١٤	عوامل الحرب وعوامل السلام
٢١	مراحل البحث الاربعة وعرض نتائجها
٢٣	المجابهة

الفصل الاول

٢٣	الحرب موجودة على الدوام
٢٣	المدبحة الكبرى
٢٤	مفريات الحرب
٢٥	تعاقب الحروب والسلام
٢٧	استقرار الحروب ووظائفها
٣٠	وظيفة الحرب التدميرية
٣١	صدمة الحروب

٣٣ حق العنف والعدو
----	-----------------------

الفصل الثاني

٣٥ في قلب الحضارات
٣٦ الحضارات أعدى من الثقافات
٣٧ العناصر المكونة للحضارة
٣٧ علم الجمال
٣٩ تقسيم العمل
٣٩ الاختراعات والتقنيات
٤١ الطب
٤١ بنية الاسرة
٤٢ اساليب التفكير والمؤسسات
٤٣ الاشكال السياسية
٤٣ القدرة على الابداع والقدرة على التدمير
٤٣ الوسط الجغرافي - السياسي وخطوط التصدع
٤٦ العقليات هي الاساس
٤٧ البقاء والتداخل
٤٩ فروع الحضارات
٥٠ العصور البشرية
٥١ اضطراب الحضارات
٥٢ الفرائز العدوانية

الفصل الثالث

٥٥ جولة عبر العصور والحضارات
٥٥ الاجداد الاوائل
٥٦ الحضارات الاجتماعية
٥٧ مساهمة العرافة (او علم خصائص الشعوب)
٥٩ ملاحظات معروفة
٦٠ لوحة بالعادات الحربية للقبائل السامية والاوربية
٦٢ الهجرات
٦٣ الانسان الطريدة
٦٧ القوميات الحديثة والحروب القبلية

الفصل الرابع

٦٩ حروب الالهة
٦٩ علم الاساطير (او الميثولوجيا اليونانية)
٧١ روايات الهند الاسطورية
٧٢ الحروب المقدسة في مجمع الالهة الجرمانية
٧٣ مميزات حروب الالهة
٧٥ آلهة المدن
٧٨ آلهة التوراة
٧٩ آلهة روما
٨١ آلهة العرب

الفصل الخامس

المجازر الجماعية والحضارات التي سبقت اكتشاف القارة الامريكية	
(أو ما يسمى بحضارات ما قبل الكولومبية)	٨٣
حضارات المكسيك الجنوبي واليوكاتان القديمة	٨٦
الحضارات المكسيكية - حضارات الازتيك	٨٩
حضارة الانكا	٩٢

الفصل السادس

الحتميات الجغرافية - السياسية	٩٩
المناطق المفضلة وخطوط التصدع	٩٩
مناطق الاحتكاك والصدام بين الحضارات	١٠٢
الحدود وطرق الغزو	١٠٣
خطوط التقسيم	١١٠

الفصل السابع

ملحمة الحصان	١١٣
كانت البداية في آسيا	١١٣
استمرار ملحمة الحصان في أوروبا : في الفن والدين والمعرفة	١١٥
الحصان والمراتب الاجتماعية	١١٧
النبالون (رماة الاسهم) الراكبون والفرسان المدرعون (الخيالة المدرعة)	١١٨
التجديد المفهولي	١٢٠
فرسان الغرب ، فشل الخيالة الراكبة	١٢٢

١٢٦	عصر المدرعات ، الحصان يستعيد ثيابه
-----	--

الفصل الثامن

١٢٩	الحروب واستبداد الشرق
١٢٩	تعاقب الامبراطوريات الشرقية
١٣٢	الامبراطوريات والاستبداديات الشرقية
١٣٤	الاستبدادية الشرقية وتعميم الحرب
١٣٥	اختلاط الاسر المالكة

الفصل التاسع

١٣٩	الحروب المقدسة وعقليات الشعوب
١٤٠	حروب العبرانيين والشرق القديم
١٤٥	القبائل العربية والاسلام
١٤٦	الجهاد المقدس والحروب الصليبية
١٥٢	الخلط بين الامور الدينية والامور الدنيوية
١٥٤	حروب الدين الاوربية
١٥٦	الحروب الدينية تجسيد مسبق للحروب القومية والحروب الايديولوجية
١٥٨	الحروب الايديولوجية المعاصرة
١٦٠	الحروب المقدسة في الايام الحاضرة

الفصل العاشر

١٦٣	مبادئ التفاعلات الخمسة - الاسلحة والتكتيكات والصناعة
١٦٤	عصر الاسلحة النارية
١٧٠	العصر الصناعي
١٧٣	عصر المحسرك
١٧٣	تمجيد المتفجرات والصواريخ : والعصر النووي - الفضائي

الفصل العاشر عشر

١٧٩	التحصينات : التقنيات والاحكام
١٧٩	المعاقل الاولى (معاقل الانسان الاولى)
١٨٠	الدفاع والهجوم
١٨١	التحصين والاقتصاد والدين
١٨٣	ولادة المدينة المحصنة
١٩٠	من العصور المحصنة الى المواقع المحصنة
١٩٢	اشهر حصار في التاريخ

الفصل الثاني عشر

١٩٩	الحضارات والبحار
١٩٩	من ملاحه السواحل الى الملاحة فوق البحار العانية
٢٠٤	في البحر الابيض المتوسط
٢٠٦	تطور السفن
٢٠٨	المدافع والسفن الحربية
٢٠٩	البحار والمعادن
٢١٠	الفواصات والطائرات
٢١٣	البحر والعصر النووي - الفضائي

الفصل الثالث عشر

٢١٥	من ايكار الى هيروشيما
٢١٥	اكتشاف النار واسطورة بروميتيه
٢١٦	اسطورة ايكار وتسخير الرياح
٢١٩	من سفينة الهواء (المنطاد) الى الطائرة
٢٢٢	تسارع الحروب
٢٢٤	الذرة والصواريخ والاقمار الصناعية

الفصل الرابع عشر

التسلسل الطبقي والمؤسسات العسكرية	٢٢٧
التجنيد	٢٢٨
جيوش المدن وجيوش الامبراطوريات	٢٢٩
البنيات الاقطاعية والخدمة العسكرية	٢٣٤
تطور الجيوش الملكية	٢٣٦
البنيات الوطنية لها جيوش وطنية	٢٤٠
الحرب الصناعية والتعبئة العامة	٢٤٣
الروح المدنية والوطنية	٢٤٤
التنظيم ، التشكيلات بالنظام المنظم	٢٤٥
تشكيلات الفرق	٢٤٧
القيادة المدنية والقيادة العسكرية	٢٤٩
فصل السلطة السياسية عن السلطة العسكرية	٢٥٣

الفصل الخامس عشر

التغير في العصر النووي - الفضائي	٢٥٥
القوى النووية	٢٥٦
تطور وظائف الحروب	٢٥٧
علم الفضاء ، الديمقراطية - الاقتصادية	٢٥٩
التحديات الثلاث	٢٦٣

الفصل السادس عشر

التحديات العدوانية والحضارة الانسانية	٢٦٥
الاساليب العامة لتصعيد العنف الجماعي	٢٦٧
تصاعد العنف يمكن أن يكون تدريجيا أو شرسا أو وحشيا	٢٦٨
تصاعد العنف منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٩	٢٦٩

٢٧٧	جبهات العدوانية الجماعية
٢٨١	مخاطر التصعيد المحتملة في الفترة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠
٢٨٢	الافاق المحتملة (هـ + ٢٠)
٢٨٥	بعض المشاكل الرئيسية
٢٨٩	الحروب الحتمية والحروب غير الحتمية
٢٩١	قادة الدول والاحبار العظام (الكهنة العظام)
٢٩٤	الاضطرابات ، بعض النقاط التي تطبق فيها مجهودات السلام

الفصل السابع عشر

٢٩٧	تفاعلات الحضارات والحروب
٣٠٢	الخلاصة

الملحق رقم (١)

٣٠٧	بعض التعاريف لعبارتي الحرب والسلام
-----	--

الملحق رقم (٢)

٣١٣	طرق الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب
-----	--

اللوحة (٢)



١٩٧٩ - ١٧٤٠	طرق الانتقال الى حالة الحرب بين عام ١٧٤٠ - ١٩٧٩
-------------	---

اللوحة (ب)

٣٢٤	اساليب ايقاف الحروب منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٧٩
-----	---

الملحق رقم (٣)

٣٢٦	بعض تعاريف المصطلحات
٣٢٦	الحضارة والثقافة

هذا الكتاب

• يعالج ظاهرة الحرب التي عرفتها البشرية واكوت بنارها منذ نشوء الإنسان وحتى يومنا هذا ، معالجة علمية موضوعية ، يبرز من خلالها التفاعل بين الحروب والحضارات ومكدي تأثر كل منها بالآخرى ..

• لاشك في أن جميع الحضارات البائدة قد دمّرتها الحروب . فكما أن الحرب تعتبر الإبنة القائلة للحضارة ، فهي في الوقت نفسه مرضعتها ، وإن الحضارة التي لاتدافع عن نفسها في حضم هذا الصراع الدائم لا يمكن أن تحيى ، بل إنها لاتستحق الحياة .

• يأتي هذا الكتاب واحداً من سلسلة منشورات المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني (ماس العدد ٤ - الفصل الرابع لعام ١٩٧٩) قام بوضعه كل من : « غاستون برنول ، رينيه كارب ، وجان بوبس أنطوان » وهم من المعهد الفرنسي لعلم الحرب .

• ونظراً لما في هذا الكتاب من فوائد وعبر ، فقد قام مركز الدراسات والأبحاث العسكرية بترجمته إلى العربية ، راجياً أن يحظى باهتمام القراء الأعزاء .